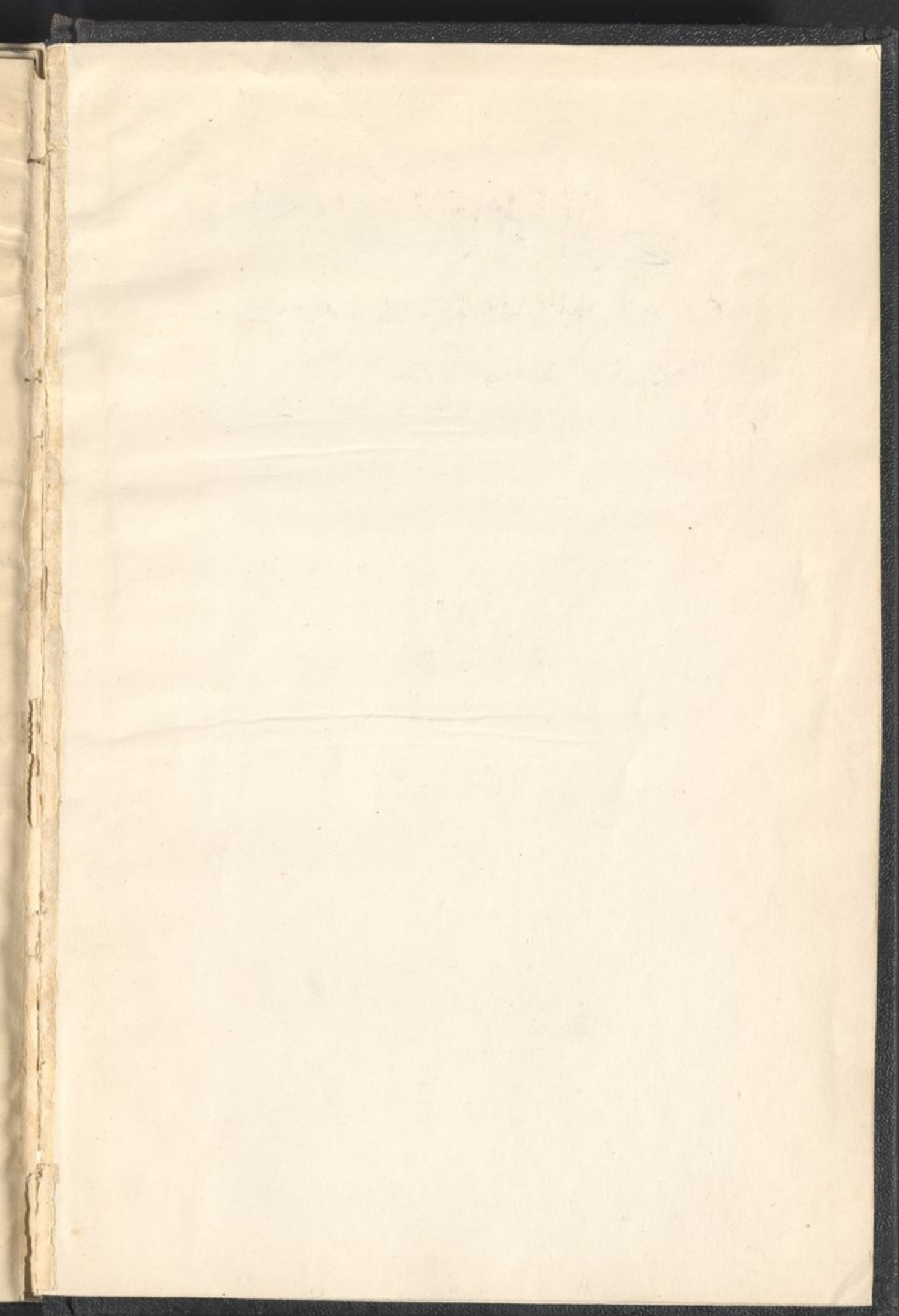


AMERICAN UNIV. IN CAIRO LIBRARY
3 8534 00990 2598

75
23
19



الموازنة بين الشعراء

أبحاث

في أصول النقد وأسرار البيان

PJ
7541

2B
1926
C1

بقلم

زكي مبارك

دكتور في الآداب

ومُعَيِّد بالجامعة المصرية

الطبعة الأولى

(حقوق الطبع محفوظة)

الثلث ١٥

طبع بمطبعة المصطفىٰ للقطن بمصر

892.701

M 88

Aug, 9

15288

الأهداء

تَذِكرَة ولاء و إخلاص لحضرة صاحب العزة الاستاذ
الفيلسوف احمد لطفى السيد بك مدير الجامعة المصريه

من أصغر ابتائ

زكي مبارك

مستوفى

و كسالة

غرة رمضان سنة ١٣٤٤ — ١٥ مارس سنة ١٩٢٦

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

كلمة وجيزة

هذه طائفة من الابحاث ، انفقت فيها حين كتبتهما
ما كنت أملك من جهد ووقت ، وقرأت شيئاً منها على
استاذي الدكتور طه حسين ، ونشرها المقطم في صيف
سنة ١٩٢٥ ، أقدمها للقراء راجياً أن تقع من المنصفين منهم
موقع القبول ، والسلام

محمد زكي عبد السلام مبارك

البحث الاول

أهواء النقاد

— ١ —

فطّر الناس على حُبِّ المفاصلة بين الأشياء التي ترمي إلى غرض واحد ، والموازنة بين الأنواع التي ترجع الى اصل واحد . وقد ظهرت هذه الفطرة واضحة جلية حين ظهر الشعر ، وتبارى في قرضه الشعراء وليست الموازنة إلا ضرباً من ضروب النقد ، يتميز بها الرديء من من الجيّد ، وتظهر بها وجوه القوة والضعف في أساليب البيان : فهي تتطلب قوة في الادب ، وبصراً بمناحي العرب في التعبير ، ومن هنا كان القدماء يتحاشون الى النابغة تحت قبته الحمراء ، في سوق عكاظ ، إذ كان في نظرهم أقدر الشعراء على وزن الكلام

وقد كلف الادباء في مختلف العصور بالموازنة بين من ينبغون من الشعراء في عصر واحد ، فوازنوا بين امرئ القيس والنابغة وزهير والاعشى ، في الجاهلية ، وبين جرير والفرزدق والاختل ، في الدولة الأموية ، وبين أبي نواس ومسلم بن الوليد وأبي العتاهية ، وبين ابن المعتز وابن الرومي ، وبين أبي تمام والبحتري ، في الدولة العباسية . وكذلك عقدت الموازنات بين من نبغوا بعد أولئك الفحول الى

العصر الذي نعيش فيه ، والعهد قريب بما كُتب في الموازنة بين شوقي وحافظ ومطران في الجرائد المصرية والسورية . ولا يزال الأدباء مختلفين في حكمهم على من تقدمهم أو عاصرهم من الشعراء

* *

ونريد أن نبين في هذه الفصول أغلاط النقاد الذين تصدروا قديماً أو حديثاً للموازنة بين شاعرين : جمع بينهما عصر واحد ، أو اشتراكا في الإبانة عن غرض واحد ، وأن نضع ميزاناً يُعتمد عليه في وزن ما للشعراء من الحسنات والسيئات ، ليستطيع المتأدب الفصل بين شاعرين اختلف من أجلهما الناس وسبيلنا الى ذلك أن نُحدد شخصية الناقد الذي يُرشح نفسه للموازنة وأن نميز الوحدة الادبية التي يرجع اليها الناقد فيما يُعنى به الشعراء من تحرير المعاني ، واختيار الألفاظ

* *

يجب أن يصل من يتصدر للموازنة بين الشعراء الى درجة عليا في فهم الادب ، وان يُصبح وله في النقد حاسة فنية تصرفه عند الحكم عن كل ما يفسده من الأهواء والاغراض ، التي تحمل القاصرين من طلاب الأدب على البعد عن جادة الصواب ، حين يوازنون بين الشعراء والكتاب والخطباء . فقد نجد من الناس من يطرب للشعر ، لا لأنه شعر ، بل لأنه طرق موضوعاً يحبه ، وكشف عن معنى تميل نفسه اليه ، وقد لا يكون ما سمعه أو قرأه جيلاً من الوجهة الفنية ،

أَفِيُعْتَبَرُ هَذَا الْإِعْجَابُ دَلِيلًا عَلَى حُسْنِ مَا اسْتَحْسَنَهُ هَذَا الَّذِي تَشَبَّعَتْ
نَفْسُهُ بِغَرَضٍ خَاصٍّ ؟

وَمِنْ هُنَا نَسْتَطِيعُ غَضَ النَّظَرِ عَنْ أَحْكَامِ الْمُتَأَدِّينَ الَّذِينَ يُفَضِّلُونَ
الْقَدِيمَ مُطْلَقًا عَلَى الْجَدِيدِ ، بِحَيْثُ يَرَوْنَ الْجَدِيدَ نَوْعًا مِنَ الْهَرَاءِ ، أَوْ
يُفَضِّلُونَ الْجَدِيدَ مُطْلَقًا عَلَى الْقَدِيمِ ، بِحَيْثُ يَرَوْنَ الْقَدِيمَ صُورَةً مِنْ صُورِ
الْجُمُودِ . وَإِنَّمَا نَغْضُ النَّظَرَ عَنْ أَحْكَامِ هَؤُلَاءِ لِأَنَّ التَّشَبُّعَ لِلْقَدِيمِ أَوْ
الْجَدِيدِ صَرَفَهُمْ عَنِ الاسْتِعْدَادِ لِلْحَاسَةِ الْفَنِيَّةِ ، الَّتِي تَطْرُبُ لِلْجَدِيدِ الْمُمْتَعِ
مِنْ ثَرْوَةِ الْقَدَمَاءِ أَوْ الْمُحْدَثِينَ

وَقَدْ تَنَبَّهَ لِهَذَا عَبْدُ الْعَزِيزِ الْجَرَجَانِيُّ حِينَ قَالَ : وَمَا أَكْثَرَ مَا نَرَى
وَنَسْمَعُ عَنْ حِفْظِ اللُّغَةِ وَجَلَّةِ الرُّوَاةِ مِمَّنْ يَلْهَجُ بِعَيْبِ الْمُتَأَخِّرِينَ ، أَنْ
أَحَدَهُمْ يَنْشُدُ الْبَيْتَ فَيَسْتَحْسِنُهُ وَيَسْتَجِيدُهُ وَيَعْجَبُ مِنْهُ وَيُخْتَارُهُ ، فَإِذَا
نُسِبَ لِبَعْضِ أَهْلِ عَصْرِهِ وَشُعْرَاءِ زَمَانِهِ ، كَذَبَ نَفْسَهُ ، وَنَقَضَ قَوْلَهُ ،
وَرَأَى تِلْكَ الْغَضَاضَةَ أَهْوَنَ مَحْمَلًا ، وَأَقْلَ مَرَزَا ، مِنَ التَّسْلِيمِ بِفَضِيلَةِ
الْمُحَدَّثِ ، وَالْإِقْرَارِ بِالْإِحْسَانِ لِمَوْلَدِهِ . وَحَكَى عَنْ إِسْحَاقِ الْمَوْصِلِيِّ أَنَّهُ
قَالَ : أَنْشَدْتُ الْأَصْمَعِي :

هَلْ إِلَى نَظَرَةٍ إِلَيْكَ سَبِيلُ فَيَبُلُّ الصَّدَى وَيُشْفَى الْغَلِيلُ
إِنْ مَا قَلَّ مِنْكَ يَكْثُرُ عِنْدِي وَكَثِيرٌ مِنْ تَحِبُّ الْقَلِيلُ

فَقَالَ : هَذَا وَاللَّهِ الدِّيَابِجُ الْخَسِرَانِي ! وَلِمَنْ تَنْشُدُنِي ؟ فَقُلْتُ إِنَّهُمَا
لَا يَلِيَهُمَا . فَقَالَ : لَا جَرَمَ ، وَاللَّهِ إِنْ أَثَرَ التَّكَلُّفِ فِيهِمَا ظَاهِرٌ !!

ومن هذا الباب جاز ما ابتدعه خَلَفُ الأَحرار من الشعر باسم شعراء الجاهلية ، لأن غرام النقاد إذ ذاك بالقديم جعلهم يُسَيِّفون كل ما يضاف إلى القدماء من ألوان الكلام !!

ونستطيع كذلك غض النظر عن الأحكام التي تتسم بسمة الغيرة على الجنس ، والدفاع عن النوع . كالموازنة التي كانت تعقدتها السيدة سُكَيْنَةُ بين الشعراء . وليس بصحيح ما ذكره استاذنا المرحوم الشيخ محمد المهدي بك في محاضراته بالجامعة المصرية ، من أن السيدة سُكَيْنَةُ كانت ترى فضل الشعر في الصدق ، والرفق ، وجميل الأحداث . استناداً إلى الحديث الذي نقله صاحب الأغاني . فسيرى القارىء أن نقد السيدة سُكَيْنَةُ متأثر بالعطف على المرأة ، بلا نظر إلى قيمة الشعر من الوجهة الفنية . وقد يخرج الشعر على التقاليد الاجتماعية والدينية ، ولكنه يظل قيماً في نظر الأديب الفنان

وأنا أشرك القارىء في الحكم على ذلك الحديث : ذكر صاحب الأغاني أنه اجتمع في ضيافة السيدة سُكَيْنَةَ جرير والفرزدق وجميل وكثير ونصيب ، فكثوا أياماً ، ثم أذنت لهم فدخلوا عليها ، فقعدت حيث تراهم ولا يرونها وتسمع كلامهم . ثم أخرجت لها وضيئاً ؟ قد روت الأشعار والأحاديث ، فقالت : أيكم الفرزدق ؟ فقال : هانذا . فقالت : أنت القائل

هما دلتاني من ثمانين قامة * كما انحط باز أقم الریش كاسرُهُ (١)
فلما أستوت رجلای بالارض قالتا * أحیٰ یُرَجِّیٰ أم قتیلاً نحاذِرُهُ
فقلت أرفعوا الأمراس لا یسعروا بنا * وأقبلتُ فی أعجاز لیل أبادِرُهُ (٢)
أبادر بَوَّابَینِ قد وُكِّلَا بنا * وأحمر من ساج تبصُّ مسامرُهُ (٣)

قال : نعم ! قالت : فما دعاك الى إفشاء سرها وسرك ؟ هلا سترت
عليك وعليها ؟ خذ هذه الألف والحق بأهلك !

ثم دخلت على مولاتها وخرجت ، فقالت أيكم جرير ؟ قال :
هأنذا . قالت : أنت القائل

طَرَقَتْكَ صائدةُ القلوب وليس ذا * وقت الزيارة فارجمي بسلام
تجرى السواك على أغرَّ كأنه * برَدُّه تحذر من متون غمام

قال : نعم ! قالت أو لا أخذت بيدها ، وقلت لها ما يقال لمثلها ؟
انت عفيفٌ وفيك ضعف ! ! خذ هذه الألف والحق بأهلك ؟

ثم دخلت على مولاتها وخرجت ، فقالت أيكم كشمير ؟ فقال :
هأنذا . فقالت : أنت القائل :

وأعجبني يا عزُّ منك خلأقٌ * كرامٌ إذا عُدَّ الخلائق أربعُ
دُنُوكَ حتى يدفع الجاهل الصبَا * ودفعك أسبابُ المنى حين يطمع
فوالله ما يدرى كريمٌ مما طل * أينساک إذ باعدت أو يتصدّعُ

قال : نعم ! قالت : ملحت وشكيت ! خذ هذه الألف والحق
بأهلك

ثم دخلت على مولاتها وخرجت فقالت: أيكم نُصِيبُ؟ قال: هأنذا.
قالت: أنت القائل

ولولا أن يُقال صبا نُصِيبُ لقلت بنفسى النشأ الصغارُ
بنفسى كل مهضوم حشاها إذا ظلمت فليس لها انتصارُ

قال: نعم؛ فقالت: ربيتنا صغاراً ومدحتنا كباراً؛ خذ هذه الألف
وألحق بأهلك

ثم دخلت على مولاتها وخرجت فقالت: يا جميل! مولاتي تُقرئك
السلام، وتقول لك: والله ما زلتُ مشتاقةً لرؤيتك منذ سمعت قولك

ألا ليت شعري هل أبيتن ليلةً بوادى القرى إني إذا لسعيد^(١)
يقولون جاهد يا جميل بغزوة وأى جهاد غيرهن أريدُ
لكل حديث يذهبن بشاشة وكل قتيل عندهن شهيدُ

جعلت حديثنا بشاشة وقتلانا شهداء؛ خذ هذه الألف وألحق
بأهلك

وليس في هذا الحديث ما يدل على أن السيدة سكينة لم تهتم ولم
تحرص إلا على أخلاق الأبناء، وإنما ألقت عليهم درساً ما كان
أحوجهم إليه — كما ذكر أستاذنا المهدي — وإنما هو حديث صريح
في الإبانة عن حرص السيدة سكينة على نعيم المرأة بوجه خاص.

ألا ترى كيف عقيبت على قول جرير:

طرتك صائدة القلوب وليس ذا وقت الزيارة فارجمي بسلام

(١) وادى القرى: هو واد بين المدينة والشام أكثر من ذكره الشعراء.

إنها قالت له : أو لا أخذت بيدها ، وقلت لها ما يقال لمثلها ؛ أنت

عفيف ، وفيك ضعف !

فالسيدة ترى أنه كان يحملُ بحريراً أن يأخذ بيدها ، وأن يقول لها ما يقال لمثلها . فكان يقول بالطبع « ادخلي بسلام » ونحن نعلم إلى أين يُؤخذ بيد المرأة حين تطرق عاشقها بليل !

ثم ما معنى هذه الجملة « أنت عفيف ، وفيك ضعف » أما والله إني لأحب أن يُعفيني القارىء من شرح ما في هذه الجملة من ألوان الفتون !

وقد رضيت السيدة سكينه عن تلك الفتاة اللعوب ، التي تدنو حتى يركب الجاهل رأسه ، ويُسخر لصباه ، وتنفر حتى تتقطع بالغوي أسباب المني والمطامع ، والتي لا تزال تلعب حتى يغلب الحب على أمره ، فما يدري أيصدف وينسى ، أم يُنسى وهو مُتَيِّمٌ مجروح الفؤاد . وفي هذا الحكم خضعت السيدة لحاستها الفنية ، فلم تذكر إلا أنه ملح وشكل^(١) وأنه بلغ بذلك غاية البيان

وما الذي أعجبها في شعر نصيب ؟ أعجبها أنه ربّاهن صغاراً ، ومدحهن كباراً ! وهذا ما أردته من الغيرة على الجنس ، والدفاع عن النوع . ولهذا أعجبها من جميل أنه جعل حديثهن بشاشة وقتلاهن شهداء !

ويؤيد هذا الرأي ما ذكر من أنها قالت مرة لراوية جميل : أليس

صاحبك الذي يقول

(١) شكل على وزن فرح : من الشكل بالكسر وهو رقة الغزل

ألا ليتني أعمى أصم تقودني بثينة لا يخفى علي كلامها
قال : نعم ! قالت : رحم الله صاحبك إن كان صادقاً في شعره
ألا تراها رَضِيت بما رضى الشاعر لنفسه من العمى والصمم مع
سلامة محبوبته ، وهي التي أنكرت على الفرزدق أن يفرع ويروع حين
فرعت وروعت من أجله صاحبته ؟

ونستطيع أيضاً أن لا نبالي بأحكام المتأدين الذين يخضعون لغير
الفكرة الأدبية : كالفقهاء والمتصوفة ، ومن إليهم ممن يقيسون بمقياس
العرف ، والمألوف ، والمستحسن من خصال الناس . فقد قيل لعمر
ابن عبيد : ما البلاغة ؟ فقال ما باغ بك الجنة ، وعدل بك عن النار ، وما
بصرك مواقع رشدك ، وعواقب غيك « فهو يقيس جودة الكلام
بمقياس الدعوة إلى الرشد ، والنهي عن الغي ، والتنفير من طاعة الهوى .
مع أن من الكلام ما يهوى بصاحبه إلى أعماق الجحيم وهو في الوقت نفسه
يسمو به إلى أعلى مراتب البيان

ولقد أذكر أن بعض العلماء قرأ كتاب (حب ابن أبي ربيعة
وشعره) ثم قال بلهجة جدية : لا عيب في هذا الكتاب إلا أنه لم يختم
بفصل في النهي عن العبث بالنساء (١)

وليس معنى هذا أن الشعر يفسد بالأمر بالمعروف والنهي عن
لمنكر ، ولكن معناه أن للشعر نزعة أخرى غير النزعة الدينية . وأريد

النزعة الدينية الصرفة التي تخلو من النفحة الشعرية ، ومن ذلك ما تحدثوا
 به من أن بعض الشعراء أنشد المأمون في مدحه
 أضحي إمام الهدى المأمون مشتغلاً بالدين والناس بالدنيا مشاغلاً
 فغضب لذلك ولوى وجهه ، مع أن هذا البيت يُصور مطامع كثير
 من النفوس التي يحسب أصحابها أن الإنسان لا يقرب من ربه إلا
 إذا شغله دينه عن دنياه . ولكن نفس المأمون الوثابة الطمّاحة لم ترض
 عن هذه المنزلة ، ولم تشأ الزهد في طيبات الحياة
 قلت لك إن الشعر قد يُسائر الأغراض الدينية ، وتبقى له حين
 تغلب فيه تلك النزعة قيمته الفنية ، وعندى لهذا شاهدٌ بدع ، وهو
 قول بعض الحجازيين في ذم جماعة من عبّيد الراح
 لو كنت أحمل خمرأ يوم زرتكمو لم ينكر الكلب أنى صاحب الدار
 لكن أتيت وروح المسك يفغمني وعنبر الهند أذكى على النار
 فأذكر الكلب ريحي حين أبصرني وكان يعرف ريح الزرق والقار
 فهذا نهى عن الخمر ، واسكنك لا تستطيع أن تضع في صفه قول ابن الوردي
 ودع الخمر إن كنت فتى كيف يسعى في جنون من عقل
 لأن هذا ينقصه ما يبنى عليه الشعر من رائع الخيال

* *

وأحب أن لا ينسى القارىء أننا نتكلم في الأدب لا في الأخلاق
 فلا يبتئس بما نقول . على أنى قد أعود إليه بعد قليل لأحدد معه أغراض
 الشعر والنثر البليغ ولأدرس معه نظرية « الفن للفن » لنعرف إن
 كانت غاية الأدب تهذيب الأخلاق ، أم تربية الأذواق

البحث الثاني

عود الى أهواء النقاد

بينت للقارىء في الكلمة الماضية أنه يجب ان لا يخضع الناقد عند الموازنة لغير الحاسة الفنية ، وذكرت له بعض الآفات التي تذهب بقيمة النقد : كالتعصب للقديم أو الجديد ، والتشبع بالأفكار الدينية أو الصوفية ، والدفاع عن الجنس في حكم بعض النساء بين الشعراء والآن أسير مع القارىء في هذه السبيل لنعرف بقية الموانع التي تحول بين الناقد وبين الصواب حين يوازن بين الشعراء

- ١ -

لا ينكر أحد ان ابن الرومي كان من الشعراء الفحول ، والشاعر أبصر بالشعر من سواه ، فلحكمه قيمة خاصة ، تفوق أحكام المتأدبين من رجال اللغة والرواية ، ومع هذا فأنا أستطيع ان احكم بأن ابن الرومي حكم مرة بالجمال لقطعة من الشعر ، وكان في حكمه من الخاطئين واليك البيان :

كان ابن الرومي مسرفاً في التطير ، وكاد اسرافه فيه يصل به الى الجنون ، فقد كان يلبس أثوابه كل يوم ويتعوّذ ، ثم يصير الى الباب والمفتاح معه ، فيضع عينه على ثقب في خشب فتقع عينه على جاره كان نازلاً بازائه ، وكان أحذب ، يقعد كل يوم على بابه ، فاذا نظر اليه رجع ، وخام ثيابه ، وقال : لا يفتح الباب ، فكان بيته يظل مغلق

الابواب إلى ان يُشرف من فيه على الهلاك ! وعلم معاصروه بافراطه في التطير فأقبل عليه أحدهم وأنشده :

ولما رأيت الدهر يُؤذن صرْفُهُ بتفريق ما بيني وبين الحبائبِ
رجعت إلى نفسي فوطنتها على ركوب جميل الصبر عند النوائبِ
ومن صحب الدنيا على جور حكمها فأيامُهُ محفوفةٌ بالمصائبِ
فخذ خلسة من كل يوم تعيشهُ وكن حذراً من كامنات العواقبِ
ودع عنك ذكر الغال والزجر واطرح تطير جار أو تفاؤل صاحب
فبقي ابن الرومي باهتاً ينظر إليه ، ثم تبين الحاضرون انه شغل قلبه
بم حفظ هذه الايات

أفيحسب القارىء ، أن مثل هذه القطعة — وهي وَسَط في الفاظها ومعانيها — كانت تشغل مثل ابن الرومي ، وتظفر باحتلال قلبه ، لولا بغضه للتطير ، ومَلَله من تلك الوسوسة التي كدَّرت عليه موارد الحياة ؟

إن الناقد مفروض فيه البرء من جميع الأغراض ، لان النقد نوع من القضاء ، فاذا سيطرت عليه فكرة خاصة صيرت حكمه طُعْمَةً للظنون ، وسواء ذلك في الافكار الدينية ، والنزعات الجنسية ، والاتجاهات العقلية ، التي تصبغ التفكير بلون خاص

ان الشعر الوَسَط قد يؤثر تأثير الشعر البديع حين تستعدُّ له النفس ولكن هذا التأثير لا يسمو بالشعر الوَسَط الى منزلة الشعر الجيد ، ومن أمثلة ذلك ما روي من أن بعض الأعراب تزوج جارية من رهنه

وطمع في أن تلد له غلاماً ، فولدت له جارية ، فهجرها وهجر منزلها ،
وصار يأوى الى غير بيتها ، فربح بئسائها بعد حول واذا هي تُرقص بنتها
وهي تقول :

ما لأبي حمزة لا يأتينا يظل في البيت الذي يلينا
غضبان أن لا نلد البنينا تالله ما ذلك في أيدينا
وانما نأخذ ما أُعطينا ونحن كالزروع لزارعينا

ننبت ما قد زرعه فينا

فلما سمع الأبيات أقبل يعدو نحوها حتى ولج عليها الخباء ، فقبلها
وقبل أبنيتها ، وقال : ظلمتكم ورب الكعبة !

فأنت ترى أن هذه أبيات عادية في ألفاظها ومعانيها ، ولكن
لا تنس أن الرجل الذي نالت من نفسه ، وراضته بعد جموحه ، رجل
ينزع قلبه بالرغم منه الى زوجه وأبنته ، والشرارة الضئيلة كافية لاحتراق
الهشيم ! فليست تدل هذه الحادثة على قيمة أدبيه لهذه الأبيات ، وانما
هي شاهد « على ضرب من المعاملات ، وعلى أحوال الاجتماع ، وعلى
ما للمرأة من لين الجانب ورقة الأخلاق » (١)

وكذلك يجب درس حالة المناقبة النفسية قبل الاعتداد بما أصدر
من الأحكام لأن الحكم يتبع ما للنقاد من ألوان النفوس ، وصور العقول

ونستطيع كذلك غض النظر عن الأحكام التي يخضع أصحابها
لفكرة قومية أو حزبية ، فقد أسرف النقاد في الظلم حين تصدروا

(١) كذلك قال الاستاذ الدكتور ضيف في مقدمته ص ٦٦

للفصل بين شعراء الأحزاب ، وانك لتجد أمثلة ذلك منشورة هنا وهناك : حين ترجع للعصور التي اصطدمت فيها الدولة العباسية بالدولة الأموية ، وحين تُراجع التنافس الذي كان بين أدباء قرطبة وأدباء بغداد وهذا عبد الملك بن مروان كان من أبصر أهل عصره بنقد الشعر.

فلما دخل عليه الأخطل وأنشده

نفسى فداء أمير المؤمنين اذا
الخائض الغمرة الميمون طائرُه
في نبتة من قريش يعصمون بها
حشده على الحق عتافوا خنا أنف
لا يستقل ذوو الاضغان حربهمو
شمس العداوة حتى يستقاد لهم
هم الذين يمارون الرياح اذا
بني أمية نعاكم مجللة

أبدى النواجذ يوم عارم ذكر^(١)
خليفة الله يستسقى به المطر
ما ان يوازي بأعلى نبتها الشجر
اذا الملت بهم مكروهة صبروا
ولا يبين في عيدانهم خور
وأوسع الناس احلاما اذا قدر^(٢)وا
قل الطعام على العافين أو قتر
تمت فلامنة فيها ولا كدر

أقول لما أنشد الأخطل هذه القصيدة طرب عبد الملك وقال :
أأنادي في الناس انك أشعر العرب ؟ فقال الاخطل : حسبي شهادتك
يا أمير المؤمنين !

ولم يكن الأخطل أشعر العرب إذ ذاك ، فقد كان جرير والفرزدق
في الميدان ، ولكن عبد الملك خضع في حكمه للمصلحة الذاتية ،
لا الحاسة الفنية ، فقد كان الأخطل سليط اللسان ، خبيث الهجاء ،
وكان عبد الملك قد استعان به على لاذع من يناوئه من رجال السياسة

(١) العارم : الشديد (٢) شمس : جمع شمس وهو الصوب المراس

وشعراء الأحراب، ومن هنا كانت دالة الأخطل عليه، وكان مارووا من أنه كان يجيئه وعليه جبة خز، وفي عنقه صليب ذهب، وفي ملاحه نشوة الصهباء، مع ان عبد الملك خليفة المسلمين، والدين في عنفوانه، والناس على نصره حراص، ولكن السياسة، وحاجة الملك الى الدعاة من كتاب وخطباء وشعراء، والحرص على تحقير المعارضين، كل أولئك أغرى عبد الملك بحب الأخطل، والحكم بأنه أشعر الناس، ولو أن ابن رشيق تنبه لهذا الغرض لما ظن أن المسلمين سكتوا عن الأخطل لجمال شعره، ولما عجب من جهره بتحقيق الفرائض الإسلامية حين قال

ولست بصائم رمضان طوعاً ولست بآكل لحم الاضاحي
ولست بزاجر غنساً بكوراً الى بطحاء مكة للنجاح^(١)
ولست منادياً أبداً بليل كمثل العير حي على الفلاح
ولكني سأشربها شمولاً وأسجد قبل منبج الصبح^(٢)

ولكن ابن رشيق حسب عبد الملك سكت عن هذا الشاعر لحسن شعره، وتقدمه على معاصريه، ولذلك قال «ومن الفحول المتأخرين الأخطل، وأسمه غياث ابن غوث، وكان نصرانياً من تغلب بلغت به الحال في الشعر الى أن نادى عبد الملك بن مروان، وأركبه ظهر جرير ابن عطية بن الخطفي وهو تقي مسلم» ثم قال «وهجا الأ نصار ليزيد بن معاوية لما شرب عبد الرحمن بن حسان بن ثابت بعمته فاطمة بنت أبي

(١) العذس : الناقة الصلبة (٢) الشمول هي الخمر التي تعصف بالعقل كما

تعصف بالنبات ربح الشمال

سفيان ، وقيل بل بأخته هند بذت معاوية ، ولولا شعره لقتل دون اقل من ذلك ، وقد ردَّ على جرير أقبح رد وتناول من أعراض المسلمين وأشرفهم ما لا ينجو مع مثله علوى فضلاً عن نصراني »

وقد بينت لك أن الشعر وحده لم يكن كافياً لإنجاة الأخطل من أن يؤخذ بجرائره ، وليكن دفاعه عن بني أمية ، وهجاءه لخصومهم ، كانا سبباً في تعصب الأمويين له ، حتى حكم عبد الملك بتقدمه على الشعراء

— ٤ —

وكما كان عبد الملك يؤثر شعر الأخطل كان الرشيد يؤثر شعر منصور النمري ، ولسكن لا تنس أن رجال السياسة لا يحبون الشعر للشعر ولا العلم للعلم ، وإنما يتخذون الشعراء والعلماء مطايا لأغراضهم السياسية. فمن البكة أن نظن أن جودة الشعر هي التي أدت النمري من الرشيد ، أو أن اتصال الذنب كان سبب تلك الخطوة كما توهم بعض مؤرخي الآداب العربية ، وإنما أدنى الرشيد هذا الشاعر لميله إلى إمامة العباس وأهله ، ومنافرة لآل علي بن أبي طالب ، فقد ذكروا أنه قال في تسفيهم هذه الأبيات

بني حَسَنَ وقل لبني حُسَيْنِ عليكم بالسواء من الأمور
أَمِيطُوا عَنْكُمْو كَذِبَ الْأَمَانِي وَأَحْلَاماً يَمْدُنْ عِدَاةَ زُورِ
تُسْمُونَ النَّبِيَّ أَبَا وَيَّابِي مِنَ الْأَحْزَابِ سَطْرٌ فِي سَطُورِ

يريد قوله تعالى في سورة الأحزاب « ما كان محمد أباً أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين » ويذكرون أن الرشيد قال له : ما عدوت ما في نفسي ! ثم امره أن يدخل بيت المال فيأخذ ما أحب ،

كما قال صاحب زهر الآداب ، مع أن الآية وجهاً غير هذا الوجه ،
وتأويلاً غير هذا التأويل

ويؤيد ما اسلفناه ان الرشيد لما بلغه قوله

آل النبي ومن يحبهم يتطامنون مخافة القتل ^(١)

أمن النصارى واليهود ومن ^(٢) من أمة التوحيد في أزل

إلا مصاليت ينصرونهمو بظبا الصوارم والقنا الذبل ^(٣)

لما بلغ الرشيد هذا القول امر بقتله ، فضى الرسول فوجده قد

مات . فقال الرشيد لقد هممت ان أنبش عظامه فأحرقها !

وانا اكتفى بهذين المثالين في تعرض من يوازن بين الشعراء للظنة

حين تسيطر عليه فكرة حزبية ، او قومية ، ولولا انى اعرف فى شعراء

العصر ضيق الصدر ، لذكرت لك نماذج من شعرهم فى مسأيرة

الأحزاب ، خوفاً من النقد والموازنة تحت وحنى الأغراض ، ولهم العذر

فى هذا الدهاء ، فان الأمة التى تكاد تصدق اكثر ما يقال ، إنما

تحمل الشعراء على ان يحسبوا حساباً لما يكتب عنهم فى الصحف التى

لا تعرف الفرق بين الشخصية الأدبية ، والشخصية السياسية ، فقد

اكون عدوك لأنك تناصر حزباً غير الحزب الذى أناصره ، واكون

فى الوقت نفسه نصيرك كعالم ، او اديب ، او فنان

(١) يتطامنون : يسكنون (٢) الازل : الشدة (٣) المصالت : جمع

مصلت ، وهو المقدام ، والقنا الذبل هى الظما الى الدم ، والمفرد ذابل ، ويجمع

أيضاً على ذوابل

البحث الثالث

« أنفس الشعراء »

— ١ —

قد رأيت أن الموازنة نوعٌ من النقد، وهي كذلك نوع من الوصف،
فلذى يُوازن بين شاعرين إنما يصف ما لكل منهما وما عليه بأدق ما يمكن
من التحديد، فمن واجب الناقد إذاً أن يتعمق في دراسة حياة الشاعر
الذي يضع شعره في الميزان، وأن يجتهد في أن يرى الأشياء بعينه،
ويدركها بشعوره، ليستطيع وزن ما يقول. فإن الشاعر إنما يؤدي «رسالته»
إلى جيل خاص، في قطار خاص. ومن التحكم أن تطالبه بأن يرى الأشياء
بعينك، ويدركها ببصيرتك، ويتذوقها بوجدانك، مع أن عينك وبينه
مئات الفروق، وهو لم يعيش معك، ولا لك، وإنما خضع في شعره
لغير ما تخضع له من ظروف الزمان والمكان

وقد رأيت من الأدباء من يستنكر قول زهير في دار محبوبته وقد
نال منها العفاء:

وقفتُ بها من بعد عشرين حجةً فلا يَأْ عرفتُ الدار بعد توهم^(١)
وهو يرى أن هذا وصفٌ ضئيل للدُّروس والعفاء. وتلك غفلةٌ
ظاهرة، فإن منازل الأعراب تعفو وتدرُس في أقل من عشرين سنة،
فكيف يطلب لدروسها عشرات العقود؟

(١) لا يَأْ عرفتُها، وعرفتُها بعد لا يَأْ: أي بعد مشقة

ورأيت من يستهجن ابتداء كعب بن زهير بقوله :
 بانث سعاد فقالي اليوم متبولٌ متيم إثرها لم يفد مكبولٌ
 وما سعاد غداة البين إذ رحلوا إلا أن غضيض الطرف مكحولٌ
 وذلك ان هذه القصيدة أنشدت في حضرة النبي عليه السلام، فمن
 الأدب أن لا تبدأ بالنسيب. وهذا أيضاً خطأ لأن بدأ الشعر بالغزل كان من
 العادات العربية المستملحة، ولم يكن أحد ينكرها إذ ذاك، حتى ينسب
 كعب إلى ما هو منه براء

وكان الجاحظ يقول : لا أعرف شعراً يفضل قول أبي نواس
 ودار ندأ عطلوها وأدجلوا بها أثر منهم جديد ودارس
 مساحب من جر الزقاق على الثرى وأضغاث ريحان جنى ويابس
 حبست بها صبحي فجددت عهدهم واني على أمثال تلك لحابس
 تدار علينا الراح في عسجدية حببها بأنواع التصاوير فارس
 قرارتها كسرى وفي جنباتها مها تدريها بالقسي الفوارس
 فلنخمر ما زرت عليه جيوبها ولما ما دارت عليه القلائس
 ثم جاء صاحب المثل السائر فقال « فصاحة هذا الشعر عندي هي
 الموصوفة لا هذا المعنى ، فانه لا كبير كلفة فيه ، لأن أبا نواس رأى كأساً
 من الذهب ذات تصاوير فحكاها في شعره ، والذي عندي في هذا أنه
 من المعاني المشاهدة، فان هذه الخمر لم تحمل الماء يسيراً، وكانت تستغرق
 صور هذا الكأس الى مكان جيوبها ، وكان الماء فيها قليلاً بقدر القلائس
 التي على رءوسها ، وهذا حكاية حال مشاهدة بالبصر »

فانظر كيف صغرُت قيمة الشعر في عين هذا الناقد حين كان «حكاية
 حال مشاهدة بالبصر» مع انه انما عظمُ لذلك في عين الجاحظ
 ورأيت من ينكر قول ابن الدمينية
 ولو أننى أستغفر الله كلما ذكرتك لم تكتب على ذنوب
 واستند في إنكاره الى أن هذه (عبارة فقهية) وكان عليه أن يذكر
 أن روح الشاعر مصبوغ بصبغة دينية ، وانه قال هذه الكلمة العذبة ،
 قبل ان يوجد التكلف في الفقه ، وقبل ان تثقل أرواح الفقهاء !
 ومن النقاد من فضل قول مسلم بن الوليد :
 تظلم المال والأعداء من يده لا زال للمال والأعداء ظلاماً
 واستقبح قول ابي نواس :
 بُحَّ صوت المال مما منك يشكو ويصيحُ
 استناداً الى أن المال لا صوت له . وهذا أيضاً خطأ . لان أبا نواس
 قريب العهد بمال الاعراب ، ومال الاعراب ، ناطق ، وطالما اضطربت
 الابل لسكينة الجزار عند قدوم الضيفان

فعلى الناقد أن يتبين العهد الذي عاش فيه الشاعر ، وأن يُعنى فوق
 ذلك بمعرفة ما درسه من الأدب القديم ، لما لذلك من الاثر في اذواق الشعراء
 فقد أنكروا على شوقي قوله
 أرفعي الستر وحي بالجبين وأرينا فلق الصبح المبين
 وقفي الهودج فينا ساعة تقبس من نور أم المحسنين
 واتركي فضل زمامية لنا تتناوب نحن والروح الامين

مع ان أم المحسنين انما ركبت يومئذ سيارة تنهب الارض، ولكن
هكذا بقى الهودج فى ذهن شوقى ، لآمعانه فى دراسة الشعر القديم...
وأنكروا عليه قوله فى سيارة الدكتور محبوب

لكم فى الخط سيّاره حديث الجار والجاره
واستخفوا كلمة « حديث الجار والجاره » وفاتهم أن الدكتور محبوب
يسكن فى حى قد لا يعرف أهله غير الخيل والبغال والحمير !

واستنكروا قول حافظ على لسان اليتيم
أمشى يُرتحنى الأسى والبؤس ترنيح الشراب
لأن اليتيم البائس قد لا يعرف كيف يترنح السكران . ولكن
حافظ يرى هذه المناظر فى الصباح والمساء

واستضعفوا قول مطران فى رثاء اسماعيل صبرى
شهبٌ تبين فما تؤوبُ فكانها حَبَبٌ يذوبُ
أرايت فى كأس الطلا دُرّاً وقد صعدت تصوبُ
هو ذاك فى لجّ الدجى طفو الدّارارى والرّسوب
لا فرق بين كبيرها وصغيرها فيما ينوب
لأن مقام الرثاء يحل عن ذكر الحبّ والكأس ، وليس لك أن
تشبه الشهاب حين يغيب، بالحبّ حين يذوب . ولكن يجب أن نعرف
كيف يعيش مطران ، لنعرف قيمة هذا التشبيه فى نفسه المِراح

وكذلك نقول فى توجيهه كلمة شوقى فى رثاء محمد تيمور
ضربوا القباب على الشباب وثوّوا الى يوم الحساب
همّدوا وكل محرك يوماً سيسكن فى التراب

نزلوا على ذئب البلى فتضيئوا شر الذئاب
وكانهم صرعى كرى بالقاع أو صرعى شراب
فاذا صحوا وتنبهوا فالله أعلم بالمآب

فان تشبيه الموتى بصرعى الشراب لا يدل على غفلة الشاعر عن
رعاية مقتضى الحال ، وانما يشير بطرف خفي الى ما لحياته من شتى
الالوان ، كما أفصح شعره عن ألوان حياته في قوله من كلمة ثانية .
ما أنت يا دنيا ؟ أرؤيا نائم ؟ أم ليل عرس ؟ أم بساط سلاف
نمائك الرياح إلا أنه مست حواشيه نقيع زعاف
وقال أحد أنصار ابن الرومي يلومه : لم لا تشبهه كتشبيهات ابن
المعتر ؟ فقال أنشدني من قوله الذى استعزيتني عن مثله . فأنشده قوله
في الهلال .

انظر اليه كزورق من فضة قد أثقلته حمولة من عنبر
فقال له زدني فأنشده :

كأن آزيونها غب سماء هامية
مداهن من ذهب فيها بقايا غالية

فصاح : واغوثاه ! لا يكاف الله نفساً إلا وسعها . ذلك إنما يصف
ماعون بيته ، لانه ابن خليفة . وأنا أى شيء أصف ؟ ولكن انظر إذا
وصفت أين يقع قولى من الناس . فهل لأحد قط مثل قولى فى قوس الغمام
وقد نشرت أيدي الجنوب مطارفاً

من الجوّ دكناً والحواشي على الارض
يطرزها قوس السحاب باخضر على أحمر فى أصفر إثر مبيض

كأذيال خود أقبلت في غلائل مصبغة والبعض أقصر من بعض

وقولى فى صانع الرقاق

ما أنسَ لا أنسَ خبازاً مررتُ به يدحو الرقاقة مثل الملح للبصر
ما بين رؤيتها فى كفه كرة وبين رؤيتها قوراء كالقمر
إلا بمقدار ما تنداح دائرة فى لجة الماء يلتقى فيه بالحجر

فليس لك ان تقدم ابن المعتز على ابن الرومى لأنه استطاع تشبيه
الآزريون بعد المطر بمداهن الذهب فيها بقايا الغالية ، وليس لك أن
تقدم ابن الرومى على ابن المعتز لانه أجاد وصف الخباز وهو يدحو الرقاق
فان السبق هنا وهناك يرجع الى الظروف التى أتاحت لكل من الشعارين
ومهدت السبيل الى الوصف الدقيق . وانما يجب عليك أن تعتمد الى
الشاعر وتسبر أغوار نفسه لترى مبلغ شعوره بما وصفه من الاشياء ،
فقد يكون ابن الرومى فى وصف الرقاق أشعر من ابن المعتز فى وصف الهلال

- ٤ -

وكذلك ليس لك ان تقدم الاوصاف الحضرية على الاوصاف
البدوية ، لان الحضارة فى ذوقك أنضر من البداوة ، فقد يكون البدوي
فى بداوته أشعر من الحضري فى حضارته ، كما قال استاذنا المهدي ، ومعنى
ذلك أن البدوى قد يكون شعوره بالريح السَّموم فى مجاهل البداء ، أقوى
من شعور الحضري بالنسيم العليل فى الروضة الغناء

فليس قول خزيمه بن نهدي ريق محبوبته

فتاة كأن رُضاب العبير بفيها يُعلُّ به الزنجبيلُ

بأقل من قول الشريف الرضي

ييسمن عن برد الغمام و برده ريان يغبق بالمدام ويصبح
ولا يفضلهما من قال « كأنى ألتقط من فيها حب الرمان » لأن
الامر في ذلك يرجع الى قوة ادراك الشاعر ، بغض النظر عن تفاوت
الاصناف ، فقد يكون الزنجبيل أجمل ما تعطر به الأفواه في البادية كما
تكون الخمر أوحب الرمان أحلى ما تعطر به الننايا في الحاضرة . ولكل
شعب وجهة في تناول الاشياء .

ألم تر الى المتوكل وقد أنشده ابن الجهم في مدحه
أنت كالكلب في حفاظك للود وكالتيس في قراع الخطوب
لقد طرب المتوكل لهذا الشعر ، وان كان جاسي اللفظ ، بادي
الخيال ، لانه أعجب بما له من قوة الشاعرية ، وهي روح البيان ، ثم
اسكنه قصرا من قصور بغداد ، واستدعاه بعد ذلك وقد صقلته الحضارة
فأنشده تلك الرائية البديعة التي يقول في أولها
عيون المها بين الرصافة والجسر

جلبن الهوى من حيث أدري ولا أدري

أعدن لي الشوق القديم ولم أكن سلوت ولكن زدن جمرأ على جمر
سلمن وأسلمن القلوب كأنما تشك بأطراف المثقفة السمر
خليلي ما أحلى الهوى وأمره وأعرفني بالخلو منه وبالمر
بما بيننا من حرمة هل علمتا أرق من الشكوى وأقسى من الهجر
والخلاصة ان الناقد إنما يوازن بين عبقرية وعبقرية . ويفاضل بين
بصيرة وبصيرة . ويقارن بين إدراك وإدراك . بغض النظر عن الفروق
الموضعية التي يقضي بها اختلاف الاقاليم . والفوارق الزمنية التي يوجهها

اختلاف العصور . وهذا يتطلب من الناقد تضحية خطيرة . ولكنها
ضرورية . يتطلب هذا أن ينسي الناقد شخصيته . وأن يفنى في شخصية
الشاعر الذي يدرسه . بحيث يبصر بعينه . ويسمع بأذنه . ويفقه بقلبه .
ليستبركاً قلت أغوار نفسه . ويرى مبالغ شعوره بما وصفه من الأشياء .

البحث الرابع

« شعراء الأحزاب »

ويجب على الناقد حين يُوازِن بين شاعرين أن يعرف حياتهما
بالتفصيل ، وأن يتثبت مما أحاط بهما من مختلف الظروف . وعلى الأخص
إذا مرّت حياتهما في غمرة من الغمرات الدينية . أو فتنة من الفتن السياسية .
فقد يكون أحد الشاعرين من الحزب الغالب . وثانيهما من الحزب
المغلوب . ثم تعصف الفتن بما ترك شاعر الأقلية من الشعر الرائع . وتبقى
العصبية الحزبية على ما ترك شاعر الأكثرية من الغث والسمين .
والويل كل الويل للمغلوب !

ولقد حان الوقت لمحو تلك الخرافة التي كاد يجمع عليها مؤرخو
الأدب العربية : وهي أن الشعر كان في خمود في زمن البعثة والخلافة
الراشدة ، استناداً إلى ندرة ما روى من شعر ذلك العهد ، وقلة من عرف
فيه من الشعراء

ولو تنبه الباحثون إلى تلك الحملة الشديدة التي وجهتها الشريعة إلى

الشعر والشعراء لترثوا في الحكم أو احترسوا بعض الاحتراس . فقد كان الشعر في زمن البعثة قوياً وغزيراً . وكان الشعراء في كثرة وعزة . ولكن النبي عليه السلام رأى أكثرهم من معارضيهِ . فعمد إلى اخفات صوتهم . وكان ما أراد

فان كنت في ريب من ذلك فخذني عن سبب نزول هذه الآية « والشعراء يتبعهم الغاوون . ألم تر أنهم في كل واد يهيمون . وانهم يقولون ما لا يفعلون » ثم اذ كر أن عبد الله بن رواحة وكعب بن مالك وحسان بن ثابت قالوا : يا رسول الله لقد أنزل الله هذه الآية وهو يعلم اننا شعراء . هل كنا : فأنزل الله « الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيراً وانتصروا من بعد ما ظلموا » فدعاهم رسول الله فتلاها عليهم (١)

ومعنى ذلك ان الشعر لا يذم الا ان أُعدت به حجة على النبوة . والا فقد روى ان النبي عليه السلام قال ليلة وهو في بعض أسفاره : أين حسان ابن ثابت ؟ فقال حسان : لبيك يا رسول الله وسعديك ! قال : احذ ! فجعل ينشد ويصفي اليه . فما زال يستمع اليه وهو سائق راحلته حتى فرغ من إنشاده فقال عليه السلام : لهذا أشد عليهم من وقع النبل . وروي أيضاً انه قال له : اهجم ! فوالله لهجاؤك أشد عليهم من وقع السهام في غلس الظلام ! وكذلك كان حسان يقول لاهل مكة

عَدِمْنَا خيلنا إن لم تروها تثير النقع موعدها كداء (٢)
ينازعن الأعنة مصغيات على اكتافها الأسل الظماء

(١) راجع اسباب النزول (٢) كداء بفتح الكاف بأعلى مكة عند المحصب

تظل جيادنا متمطرات تلطمهنَّ بالخر النساء (١)
 فاما تعرّضوا عنا اعتمرنا وكان الفتح وانكشف الغطاء
 وإلا فاصبروا لجلاد يوم يُعز الله فيه من يشاء
 وقال الله قد يسرتُ جنداً هم الانصار عرضتها اللقاء (٢)
 لنا في كل يوم من معدة سباب أو قتال او هجاء
 فنحكم بالقوافي من هجانا ونضرب حين تختلط الدماء
 وجبريل امين الله فينا وروح القدس ليس له كفاء
 ألا ابلغ أبا سفيان عني مغلفة فقد برح الخفاء (٣)
 بأن سيوفنا تركتك عبداً وعبد الدار سادتها الإماء
 هجوت محمداً فاجبت عنه وعند الله في ذاك الجزاء
 أتهجوه ولست له بكفء فشر كما خير كما الفداء

وانما نقلت لك هذه القطعة من شعر حسان لانها تمثل خصومة ذلك العهد اصدق تمثيل ، فليس عندي شك في انه كان لقريش شعراء خول يقارعون شعراء الرسول ، وليس عندي شك في انه كان لليهود شعراء يجمعون بين حسن القول وظلمة الارتياب ، وحسبك أن تعرف أنه كان فيهم من يقول :

فلو كان موسى صادقاً ما ظهرتمو علينا ولكن دولة ثم تذهب ولكن رأى النبي أن يقضى قضاء مبرماً على من عارضه من شعراء قريش ، وشعراء اليهود . لأن الدين في نفسه أعز من أن يهادن أعداءه

(١) متمطرات مصرعات ، وتلطمهن النساء تمسح ما عليهن من الغبار
 (٢) العرضة بالضم الهمزة (٣) المغلفة الرسالة تحمل من بلد الى بلد

أو يفتر عن حرب خصومه من الشعراء . وكذلك باد وأقرض مارك
حزب المعارضة لذلك العهد من الآثار الأدبية والفنية ، وما خلف من
الآراء الفلسفية والاجتماعية ، وأصبحنا لا نعرف من الحركة العقلية في
ذلك العصر غير ما رواه المسلمون ، وهم لا يروون بالطبع إلا ما فيه
للإسلام نصر وتأيد ، وصار من المتعذر على الباحث أن يضع لذلك العصر
صورة صحيحة مضبوطة ، لم تلونها الاغراض والأهواء ، وأقول الأغراض
والأهواء لأن القضاء على آثار الحزب المعارض لعهد النبوة إنما كان طاعة
للأهواء الجامحة التي لم يعرف أصحابها خطر هذه الجناية على تقدير قوة
الإسلام من الوجهة الروحية ، والعقلية ، والاجتماعية

أفتحسب أن من مجد الإسلام أن تثبت أن العالم كان محطّم
الأركان ، مهدّم الجوانب ، وأن العقول كانت خلت من روعة الإيمان ،
ثم جاء الإسلام فلم يجد غير أنقاض من الهمم ، وأطلال من العزائم ،
وخرائب من العقول ، والقلوب ؟

هيهات هيهات !

إن مجد الإسلام في أن تثبت خطر العهد الذي نشأ فيه من الوجهة
العقلية ، لترى كيف تقارعت الحجج ، وتصارفت البراهين ، ولترى
كيف ألتصرت النبي على خصومه الأقوياء ، الذين وصفهم القرآن بقوة
النطق حين قال : « إِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِالسِّنَةِ حِدَادٍ » وبعنف
الخصومة حين قال : « لَتَنْذِرُنَّ قَوْمًا لَدًّا » وبسحر البيان حين قال :
« أَلْهَتْنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ »

وبشدة المكر حين قال : « وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال » وبرجاجة العقل حين قال : « فاعتبروا يا أولي الأبواب »

- ٢ -

ونعود فنذكر أن الحملة التي وُجِّهَتْ إلى الشعر على أثر ما كان من لَدَدِ شعراء اليهود، وتوثب شعراء المشركين، أثرت تأثيراً عميقاً في حياة المسلمين من الوجهة الأدبية، فرأيناهم يسرفون في بُغْضِ الشعر، والنيل من الشعراء، وكان من ذلك أن قيل لسعيد بن المسيب إن قومك بالعراق يكرهون الشعر، فقال نسكوا نسكاً أعجيباً ! وسئل ابن سيرين في المسجد عن رواية الشعر في رمضان، وقد قال قوم إنها تنقض الوضوء فقال :

نُبِّئْتُ أَنَّ فَتَاةً كُنْتُ أُخْطِبُهَا عُرْقُوبُهَا مِنْ شَهْرِ الصُّومِ فِي الطَّوْلِ
ثُمَّ قَامَ فَأَمَّ النَّاسَ !

وسئل ابن عباس : هل الشعر من رفث القول ؟ فأنشد :

وَهِنْ يَمْشِينَ بِنَاهُمِيسَا إِنْ تَصْدُقَ الطَّيْرُ نَنْكَ لِمِيسَا

وقال : إنما الرفث عند النساء، ثم أحرم للصلاة !

ثم جرى على ألسنة الجماهير أن الشعر لا يليق بالفقهاء والمحدثين، فرأيناهم يسألون عبيد الله بن عبد الله بن عتبة : أ تقول الشعر في فقهك وورعك ! فاجاب : لا بد له مصدر أن ينفث ! وهذا الفقيه هو

صاحب هذه الايات الرائعة

شَقَقْتُ الْقَلْبَ ثُمَّ ذَرَرْتُ فِيهِ هَوَاكَ فَلَيْمَ فَالتَّامَ الْفُطُورُ

تَغْلَغَلَ حَبَّ عَثْمَةٍ فِي فَوَادِي فَبَادِيهِ مَعَ الْخَافِي يَسِيرُ

تغلغل حيث لم يبلغ شرابٌ ولا حزنٌ ولم يبلغ سرور
ورأيناهم يزعمون ان الامام الشافعي قال
ولولا الشعر بالعلماء يزري لسكنت اليوم أشعر من لبيد
ولا يزال شيوخ الازهر مختلفين في بدء الشعر بالبسملة ، لأنه فيما
يرون ليس من الامور ذوات البال ! ولا أدل على هوان الشعر في نظر
الفقهاء من قول الغزالي « وأما الشعر فكلام حسنُه حسنٌ وقبيحُه قبيحٌ »
وهذا كله أثر الحملة التي وجهت الى الشعر والشعراء
ولكن الشعر من الفنون الفطرية التي كلف بها الانسان منذ عهد
بعيد ، والمسامون ككل الأمم لم يكن لهم بد من حياة الفنون . وكذلك
نهضوا داعين الى روايه الشعر ، وإجازة الشعراء . ولكنهم لم يدعوا
الى الشعر باعتبار أنه فن جميل وانما دعوا اليه باسم الدين ، فقالوا ان النبي
كان يرتجز بقول ابن رواحة وقد أصيبت إصبعه في احدى المواقع
هل انت الا اصبع دميت وفي سبيل الله ما لقيت
وحبروا الفصول الضافية في أشعار الخلفاء والقضاة والفقهاء . فنسبوا
لأبي بكر الصديق قصيدة طويلة مطلعها :
أمن طيف سامي بالرماح الدماث أرقى أو امر في العشيرة حادث
ونسبوا الى عمر وعثمان طائفة من المقطوعات ، ونسبوا الى علي
طائفة من القصائد ، ونقل الفيروز ابادي عن المازني وصوبه الزخشي
أنه لم يصح أن علي بن أبي طالب تكلم بشيء من الشعر غير هذين البيتين
تلكم قريش تمناني لتقتلني فلا وربك ما برؤوا ولا ظفروا
فان هلكت فرهن ذمتي لهمو بذات ودقين لا يعفو لها أثر

وقال ابن رشيق بعد ان ذكر طائفة من شعر الأئمة والقضاة « وقد كان جماعة من أصحاب مالك بن أنس يرون الغناء بغير آلة جائزاً . وهو مذهب جماعة من أهل مكة والمدينة . والغناء حلة الشعر ، ان لم يلبسها طُوِيَتْ . ومحال ان يحرم الشعر من يحل الغناء به » وحسب الشعر هو انما ان تقول انه مباح !

أفترى بعد هذا البيان أن في مقدور الناقد أن يوازن بين حسان بن ثابت مثلاً وبين واحد ممن عاصره من شعراء المشركين واليهود ؟ كيف وقد عصفت الحوادث بما ترك شعراء الحزب المغلوب ، وبقي شعر حسان بفضل ما صاغ له رسول الله من عقود الثناء ؟ على أن هذا لا يمنع أن يكون حسان سيد الشعراء في عصره ، ولكن هات ما ترك أقرانه ، لنستطيع الموازنة ، ولنصل بها الى علم اليقين ، فقلما تنفع الظنون

وإنك لتجد ما يدعوك الى الحذر اذا تخطيت عهد النبوة ، وانحدرت الى عهد بني أمية ، أو عصر بني العباس ، هناك ترحم نفسك من التوغل في بيداء الضلال ، وهناك تجد شعراء العلويين في عهد بني أمية ، وشعراء الامويين في عصر بني العباس ، تجد هؤلاء وأولئك يقاسون ألوان العنت وصنوف الجهد ، في كتم ما ينم عن مشاربهم الاجتماعية ، ومنازعهم السياسية ، وأكتمى الآن بمثال واحد ، وثوشت لضربت لك عشرات الامثال ذكروا أن التوكل على الله كان في اجتيازه الى دمشق قد وجد في حائط

من حيطان دير الرصافة رقعة ملصقة ، فيها هذه الايات :
أيا منزلاً بالدير أصبح خالياً تَلَاعَبُ فِيهِ شَمَالٌ وَدَبُورُ

كأنك لم تسكنك بيض أو انس
 وأبناء أملاك عباشم سادة
 إذا لبسوا أدرعهم فعنابس
 على أنهم يوم اللقاء ضراغم
 ليالي هشام بالرصافة قاطن
 اذ العيش غض والخلافة لدنة
 وروضك مرتاض ونورك نير
 بلى فسقاك الله صوب سحاب
 تذكرت قومي خالياً فبكيتهم
 لعل زماناً جار يوماً عليهمو
 فيفرح محزون وينعم بأئس
 رويدك ان اليوم يتبعه غد
 قال ياقوت : فارتاع المتوكل عند قراءتها واستدعى الديراني وسأله
 عنها فانكر ان يكون علم من كتبها ، فهم بقتله ، فسأله الندماء فيه ،
 وقالوا : ليس ممن يتهم بميل الى دولة دون دولة . فتركه . ثم بان أن الايات
 من شعر رجل من ولد روح بن زنباع الجذامي من أخوال ولد هاشم بن
 عبد الملك

وكذلك عصفت السياسة بما ترك شعراء الاحزاب ، وتهدمت
 صروح من الآداب بما ضاع من الشعر السيامي فيما خلا من العصور ،
 وكلنا يذكر ما لقي شعراء البرامكة من عنف الرشيد

ومن هنا وجب على الناقد حين يوازن بين شاعرين أن يعرف
ما أحاط بهما من مختلف الظروف ليكون في حكمه قريباً من الصواب،
فقد رأينا كيف تطمس القوة معالم الشعر البليغ

البحث الخامس

نفسية الناقد

— ١ —

قلت فيما سلف: إن الموازنة نوع من القضاء . والآن نريد أن نبين
أن الناقد كالقاضي، فكما يجب على الحكم أن يُخلى نفسه من جميع الأغراض
حين يتقدم للحكم بين الناس، كذلك يجب على الناقد أن يبرئ نفسه
من جميع الأغراض حين يتقدم للموازنة بين الشعراء

فاذا أردت أن توازن بين شاعرين فامتحن نفسك قبل ذلك ،
فان رأيت في نفسك الميل لتفضيل أحدهما على الآخر لسبب لا تُسيطر
عليه الحاسة الفنية ، فاعلم أنك في ترجيحك متهمٌ ظنين . وان رأيت
نصرة الادب والحق تغلب على جميع مالك من النوازع ، وآنتست في
نفسك القدرة على مقاومة ما يعترضك من التقاليد — ولعالم الادب أيضاً
رسوم وتقاليد — فتقدم الى الموازنة ، وثق أن الرغبة في نصرة الحق
حليفة الفوز المبين

وأنا ذا كرك من الشواهد على ما يفعل الغرض بالموازنة ما نقله
صاحب زهر الآداب عن الحاتمي إذ قال :

« جمعي ورجلين من مشايخ البصرة ، ومن يؤبه اليه في علم الشعر ،
مجلس بعض الرؤساء ، وكان خبره قد سبق إلي في عصبية للبحثري ،
وتفضيله إياه على أتي تمام . ووجدت صاحب المجلس مؤثراً لاستماع كلامنا
في هذا المعنى ، فأنشأت قولاً أنحيت فيه على البحثري إنحاءً أسرفت فيه ،
وأقترحت زناد الرجل : فتكلم وتكلمت ، وخضنا في أفانين من التفضيل
والمائلة ، غلوت في جميعها غلوأ شهده جميع من حضر ، وخضنا في أفانين
في المجلس ، وكانوا جيلة الوقت وأعيان الفضل ، فاضطُرَّ إلي أن قال :
ما يحسن أبو تمام أن يتدى ، ولا أن يخرج ، ولا أن يختتم ، ولو لم يكن
للبحثري عليه من الفضل إلا حسن ابتداءه ، ولطف خروجه ، وسرعة
انتهائه ، لوجب أن يقع التسليم له ، فكيف بأوابده التي تزداد على التكرار
غضاظة وجدّة ؟

ثم أقبل على فقال : أين يذهب بك عن ابتدائه :
عارضتنا أصلاً فقلنا الربرب حتى أضاء الأحقوان الأشنب^(١)
وأخضر موشى البرود وقد بدا منهن ديباج الحدود المذهب
وأين لأبي تمام مثل خروجه حيث يقول :

أدارهم الأولى بدارة جالجل سقاك الحيا ربحائه وبواكره
وجاءك يحكي يوسف بن محمد فروتك رياه وجادك ما طره
وأني لأبي تمام مثل حسن انتهائه حيث يقول :

(١) الأشنب : من الشنب مفتحتين وهو برد ورقة وعدوبة في الاسنان

اليك القوافي نازعات شوارداً
ومشرقة في النظم غراً يزيد لها
يسير ضافي وشيهاً وينم
بهاء وحسناً أنها لك تنظم
وقوله في هذا المعنى :

أست الموالي فيك نظم قصائد
ثناء تخال الروض فيه منوراً
هي الانجم اقتادت مع الليل أنجماً
ضحى وتخال الوشى فيه منمناً
ولقد تقدم البحتري الناس كلهم في قوله

لو أن مشتاقاً تكلف فوق ما
في وسعه لسمى اليك المنبر
هذه خلاصة الجزء الأول من هذه المحاورة التي وضعت في الموازنة
بين أبي تمام والبحتري. وقبل عرض الجزء الثاني نلفت نظر القارئ إلى اختبار
« نفسية » الحاتمي صاحب هذا الحديث ، فانا نجد أنه كان يعلم
عصبية مناظره للبحتري ، وتفضيله إياه على أبي تمام ، ويذكر أنه تعمد
الإنحاء على البحتري ليقترح زناد خصمه ، وأنه غلا في المائلة غلواً شهده
جميع من حضر ، وأنه اضطرَّ خصمه إلى أن يزعم أن أبا تمام لا يحسن
الابتداء ولا الخروج ولا الانتهاء ، إلى آخر ما قال

فكيف إذن تقبل هذه الموازنة وهي مصحوبة بهذا العمد ، ومسبوبة
بذلك الإصرار ؟

ثم قال « وكنت ساكتاً إلى أن استتم كلامه ، وكان الجماعة أعجبهم
ذلك ، عصبية علي لا على أبي تمام ، لأنني كنت كالشجي معترضاً في
لهواتهم ، وأسر كل واحد منهم إلى صاحبه سرّاً يومي به إلى استيلاء
الوجل علي ، فلما استتم كلامه ، وبرقت له بارقة طمع في تسليمي له ،
ابتدأت فقلت : لست ممن يتعقع له بالخصي ، أو تفرع له العصا ، لا إله

الا الله ! استنت الفصال حتى القرعى : هل هذه إلا عوانة مفترعة ،
قد تقدم ابو تمام الى سبك نضارها ، واقتضاضاً بكارها : وجري البحري
على وتيرته فى انتزاع أمثالها واتباعها »

وهذه القطعة تدل كذلك على أن هذه ليست موازنة بين شاعرين
وانما هي مقارعة بين خصمين ، يريد كل منهما أن يقهر صاحبه ، وأن
يفوز باعجاب الحاضرين ، ألا ترى كيف فطن الحاتمي الى رضى الجماعة عن
فوز البحري ، وان ذلك كان عصبية عليه لا على أبي تمام ، وكيف أسرَّ
كل واحد منهم الى صاحبه مشيراً الى استيلاء الوجل عليه . ثم انظر كيف
غضب ، وكيف ثار ، ل ترى انه لم يغضب للحق ، وانما غضب لنفسه ،
ولم ينتصر للادب ، وانما انتصر لهواه

ثم اندفع يذكّر أن قول البحري فى صفة الغيث مخاطباً الدار

وجاءك يحكى يوسف بن محمد فروتك رياه وجادك ماطره

مأخوذ من قول ابي تمام

ويوتها فى القلب نوًى شفه وله بظاعنها وبالمخلف

وكأنما استسقى لهم محمد من سؤمهن من الحيا فى زخرف

وان البحري أخذ قوله

لو أن مشتاقاً تمكف فوق ما فى وُسْمه لسمى اليك المنبر

من قول ابي تمام الذي تقدم فيه كل احد لفظاً رشيقاً ومعنى دقيقاً

ديمة شمة القياد سكوب مستغيث بها الثرى المكروب

لو سعت بقعة لآعظام نعى لسمى نحوها المكان الجديب

وأن قوله في صفة القوافي :

يسير ضافي وشيها وينم

وقوله في صفتها :

ثناء تخال الروض فيه منوراً ضحى وتخال الوشي فيه منمنا

إنما أخذه من قول أبي تمام

حلوا بها عقد النسيم ونموا من وشيها نشرأ لها وقصيداً

ومن قوله الذي أبدع فيه

ووالله لا أنفك أهدي شوارداً اليك تحملن الثناء المبعجلاً

تخال به برداً عليك مجبراً وتحسبه عقداً عليك مفصلاً

الذ من السلوى وأطيب نفحة من المسك مفتوقاً وأيسراً محملاً

أخف على قلبي وأثقل قيمة واقصر في قلب الجليس وأطولاً

وان قول البحري :

هي الانجم اقتادت مع الليل انجماً

مأخوذ من قول أبي تمام مقصراً عن استيفاء احسانه حيث يقول

أصيح تستمع حر القوافي فانها كواكب الا انهن سمود

ولا يمكن الإخلاق منها فانما يلذ لباس البرد وهو جديد

وبعد بيان هذه المآخذ يذكر الحاتمي انه قال لمناظره « فهذه خصال

صاحبك فيما عدته من محاسنه التي هتكت بها ستر عواره ، ونشرت

مطوي اسراره ، حتى استوضحت الجماعة ان احسانه فيها عاربة مرتجمة

ووديلة منتزعة » والعناد ظاهر في هذا الكلام

ثم اخذ يسرد طائفة من ابتداءات أبي تمام وانتهاءاته ، ونماذج من

حسن تخلصه ، ولطف اقتضابه ، وبزاعة وصفه للقوافي . فاستحسن
ابتدائه اذ قال

لا أنت أنت ولا الديارُ ديارُ خفّ الهوى وتقضت الأوطارُ
وزعم أن لن يستطيع أحد أن يتدىء بمثل ابتدائه حيث يقول :
طلّل الجميع لقد عفوت حميدا وكفى على رزئي بذاك شهيدا
دمنٌ كأنّ البين أصبح طالبا دينا لدى آرامها وحقودا
وحيث يقول :

ما في وقوفك ساعةً من باسٍ تقضي حقوق الأربع الأدراس
فعلّ عينك أن تجود بدمعها والدمع منه خاذلٌ وموآسي
واستمح اقتضابه حين قال
الحق أبلجُ والسيوف عوارِ فحذارٍ من أسدٍ العرين حذارِ
واستجاد تخلصه إذ يقول

ان الذي خلق الخلائق قائما أقواتها لتصرف الأحراس
فالأرض معروف السماء قرى لها وبنو الرجاء لهم بنو العباس
القوم ظل الله أسكن دينه فيهم وهم جبل الملوك الراسي
وزعم أن ابا تمام هو الذي وصف القوافي بما لم يستطيع أحد وصفها به فقال

جاءتك من نظم اللسان قلادة سمطان فيها اللؤلؤ المكنون
أنسية وحشية كثرت بها حركات أهل الارض وهي سكون
ينبوعها خضيلٌ وحليٌ قريضا حلتي الهدى ونسيجها مَوْضُون
قد حاكها صنع الضمير يمه حسبٌ اذا نضب الكلام معين
أما المعاني فهي أبكار اذا نُصت ولكن القوافي عون

هذا أهم ما ورد في حديث الحاتمي وهو طويل ، ذكره برمته صاحب
 زهر الآداب ، والذي يعني منه هو ما فيه من العمد إلى النيل من البحري
 والاصرار على كبت منافسه ، وظهوره عليه ، وظفره به ، وانظر كيف
 يقول في ختام هذا الحديث «هل يستطيع أحد أن ينسب هذا اوشيثاً منه
 إلى السرقة والاختلاس ؟ وهل يستطيع مماثلته بشيء من شعر البحري
 أو أشعار المحدثين في عصره ومن قبله ؟ فمعي عن الجواب قصوراً ، وأحجم
 عن المساجلة تقصيراً ، وحكمت الجماعة لي بالقهر ، وعليه بالنصر ، ولم ينصرف
 عن المجلس حتى اعترف بتقديم أبي تمام في صنعه البديع واختراع المعاني
 على جميع المحدثين . وكان يوماً مشهوداً »

وهذا النوع من النقد لا قيمة له ، ولكنه مع الأسف ظاهر كل
 الظهور في مناهج القدماء ، فقد كان بشار يقول : أنا أشعر الناس . فإذا
 سئل في ذلك أجاب بأن له اثني عشر ألف قصيدة لا تخلو واحدة منها
 عن بيت نادر ومن ندر له اثنا عشر ألف بيت فهو أشعر الناس . وكانوا
 يختلفون في الموازنة بين جرير والفرزدق ، ثم يفضلون جريراً لأنه قال
 إن الذين غدوا بلبك غادروا وشلا بعينك ما يزال معينا
 غيظن من عبراتهم وقلن لي ماذا لقيت من الهوى ولقينا
 فإذا سألتهم كيف سما جرير بهذين البيتين حتى بذى الفرزدق اجابوك
 بأن الفرزدق في فسوقه وفجوره ، لم يجد التشبيب كما اجاده جرير في تحرجه
 وعناقه . وقد يقولون : جرير اشعر ، لأن الفرزدق ماتت امراته فلم يبكها
 الا برائية جرير في امراته ، وهي القصيدة التي مطلعها

لولا الحياء لهاجنى استعمارٌ ولزرت قبرك والحبيب يزار
 وكانوا اذا ذكر شعراء الجاهلية قدم فريق منهم امراً القيس لقوله
 قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللوى بين الدخول فومل
 وقالوا. انه بكى واستبكى وذكر الاحبة فى بيت واحد !!
 وقدم اخرون النابغة الذبياني لقوله
 نبئت ان ابا قابوس اوعدني ولا قرار على زأر من الأسد
 او لقوله

فانك كالليل الذي هو مدركي وان خلت ان المتأى عنك واسع
 ومنهم من زعم ان اغزل بيت قاله العرب قول بشار
 انا والله اشتهي سحر عيني لك واخشى مصارع العشاق
 وان احكم بيت قاله العرب قول ابي ذؤيب الهذلي
 والنفس راغبة اذا رغبته واذا ترد الى قليل تقنع

وكان يحذر بأدباء هذا العصر أن يضعوا خطة جديدة، لنقد الشعر
 والنثر، غير ذلك المنهج الذى يرتكز على تأمل الشطرة فى نقد الشعر،
 والفقرة فى نقد النثر، ولكنهم نسجوا على منوال المتقدمين، فترام
 يُعنون حين يظهر كتاب جديد بالبحث عن مسلكه فى استعمال الالفاظ
 وربما رجعوا الى منهج اللغة ليتبينوا الفرق بين الوضع القديم، والوضع
 الجديد، وقد اذكر أن الاستاذ صادق عنبر نقد كتاب البؤساء فلم يجدوجها
 لتخطئة المعرب غير استعمال بعض الالفاظ. فرد عليه الأستاذ علام سلامه
 يصحح استعمال تلك الالفاظ. فحافظ ابراهيم مخطي فى نظر صادق عنبر

لبعده عن معجم اللغة. وهو مصيب في نظر علام سلامه لقربه من المعجم !
والحق أن الاعتماد على نقد الشطرة ، والفقرة ، واللفظة ، لا يقدم
ولا يؤخر في الموازنة بين الكتاب والخطباء والشعراء ، فلا يمكن أن
تصبح الخطبة ، أو الرسالة ، أو القصيدة ، جيدة : لأن الفاظها جميعاً
مختارة ، ولا أن تسمى سقيمة : لأن فيها الفاظاً نائية ، وإن كان تخير اللفظ
من أهم ما يُعنى به الكاتب والشاعر والخطيب . وسأعود إلى هذا البحث
حين أشرح نظرية «الصور الشعرية» وحين أتكلم عن إعجاز القرآن
وارجو أن يكون القارئ اقتنع بما ينته من عقم تلك الطريقة التي
ترتكز على استقراء الأبيات المختارة في الموازنة بين الشعراء . فإن كان
في ريب مما أسلفناه فليجب على هذا السؤال : ارضيه ان اقول ان شوقي
اشعر الناس لقوله

وطنى لو شغلت بالخلد عنه نازعتني اليه في الخلد نفسي
ومطران أشعر الناس لقوله
بنات الدهر عوجى لاتهاى خلا الوادى من الأسد الغضاب
وحافظ اشعر الناس لقوله
علمتم على عز الجراد وذلنا فأغليتمو طيناً وارخصتمو دماً
انك أيها القارئ لا ترضى عن هذه الخطة المبهمة ، لأنها تبيح لمثل
في تخلفه ان يزعم أنه أشعر الناس لانه يقول
بقية من صباك الغض باقية وجذوة من غرامي وقدها باقى
تعال نخني شهيد اللهو ثانية ونصرع الهم بين الكاس والساقى
ولكن هيات !

البحث السادس

« الحاسة الفنية »

— ١ —

هذا تعبير حديث ، يقابل « سلامة الذوق » أو « الذوق السليم » في عرف المتقدمين. والحاسة الفنية في نظري أدق من سلامة الذوق. لأن فيها من معنى الفاعلية والإحاطة ما لا نجد في التعبير القديم. وهي ترجمة لكلمة *Sens* التي يراد بها في هذا المقام أن تؤدي معنى ملكة التمييز أو قوة الإدراك ، ومع أنها أدق فهي تشمل سائر الفنون ، بخلاف كلمة « الذوق » فإنها قد تكون بمعنى الشعور بالحسن وقد تكون عبارة عن الميل الخاص وقد يينا في البحث الأول أنه يجب أن يصل من يتصدّر للموازنة بين الشعراء الى درجة عليا في فهم الأدب ، وأن يصبح وله في النقد حاسة فنية تصرفه عند الحكم عن كل ما يفسده من الأهواء والغرائز ، وذكرنا أن من الناس من يطرب للشعر لا لأنه شعره ، بل لأنه طرق موضوعاً يحبه ، وكشف عن معنى تميل نفسه اليه . وقد لا يكون ماسمعه أو قرأه جيلاً من الوجهة الفنية ، ثم ضربنا لذلك الامثال والآن نعود الى « الحاسة الفنية » بشيء من التفصيل ، فنذكر كيف عوّل عليها المتقدمون من رجال البيان ، ونبين الوسيلة الى الظفر بهذه الموهبة العزيزة المنال ، ثم نُميط اللثام عن حقيقة هذه الحاسة ، التي لا تظهر ظهوراً جلياً الا حين تمنع في الخفاء

يرى صاحب المثل السائر « أن مدار علم البيان على حكم الذوق السليم،
الذي هو أنفع من ذوق التعليم، وإن الدُّربة والإِدْمان أجدي على القارىء
نفعاً، وأهدى بصراً وسمماً، وأنهما يُريانه الخير عياناً، ويجعلان عسره
من القول إمكاناً، وكل جارحة منه قلباً ولساناً » ويقول لقارىء كتابه
« نخذ من هذا الكتاب ما أعطاك، واستنبط بإدْمانك ما أخطاك، وما
مَثَلِي فيما مهدته لك من هذه الطريق إلا كمن طَبَعَ سيفاً ووضعهُ في يمينك
لتقاتل به، وليس عليه أن يخلق لك قلباً، فإن حمل النصال غير مباشرة
القتال » (١)

ومعنى هذا أن كتب القواعد لا تُورث القارىء « الذوق » ولا
تمنحه « الحاسة الفنية » وإنما يكسب ذلك بالدُّربة والإِدْمان على مطالعة
الكلام البليغ، والقواعد لا تنفع من لا ذوقَ له كما لا ينفع السيف
من لا قلب له

وإنما يبلغ الإنسان طاقته ما كل ما شية بالرَّحْلِ شِمْلَالٌ (٢)
ولكن لا تحسب أن ادْمان الاطلاع كاف لكسب الذوق، بل يجب
أن تكون المطالعات مصحوبة بالفهم، والتذوق لجمال القول وسحر البيان
أما إذا كان الغرض من القراءة حفظ الشواهد والأمثال — كما يفعل رجال
اللغة والرواية — فإنه يبعد أن يظفر القارىء بالحاسة الفنية، وهذا
أبو العباس المبرد كان في علمه وإطلاعه يذكر أنه كان يحتاج إلى اعتذار من
فلانة، أو التماس حاجة، فيجعل المعنى الذي قصده نصب عينيه، ثم لا

يُجد سبيلا الى التعبير عنه بيد ولا لسان .. ولا سبب لذلك فيما نرى الا
أن المبرد لم يُعن بدرس أسرار البلاغة ، وإنما انصرفت همته الى اللغة
والرواية والنحو والتصريف : ومن هنا لم يحسن الاختيار

قال الجاحظ طلبت علم الشعر عند الاصمعي فوجدته لا يحسن الا
غريبه ، فرجعت الى الاخفش فوجدته لا يتقن الا إعرابه ، فعطفت
على أبي عبيدة فوجدته لا ينقل الا ما اتصل بالاخبار ، وتعلق بالايام
والانساب ، فلم أظفر بما أردت الا عند أدباء الكتاب كالحسن بن وهب
ومحمد بن عبد الملك الزيات

ولم يبين الجاحظ سبب هذا ولا فسرهُ ابن رشيقي ، وقد بينت لك
أن تقدم الكتاب على الرواة في فهم البلاغة إنما يرجع الى كلف الكتاب
وشغفهم بالوقوف على سر البيان ، لانهم يزاولون البلاغة من طريق
الأداء ، لا من طريق النقل ، والفرق بين الوجهتين بعيد . ومن ثم كان
الكتاب « أرق الناس في الشعر طبعاً ، وأملحهم تصنيفاً ، وأحلام ألفاظاً
وألطفهم معاني ، وأقدرهم على التصرف ، وأبعدهم من التكلف » (١) وكانوا
يرونهم دهاقين الكلام ، ويستملحون ما يجودون به من حين الى حين ،
كقول ابراهيم بن العباس الصولي

ابتداءً بالتجنيِّ وأقتضاءً بالتظنيِّ
وأشتفاءً بتجنيِّك لا أعدائك مني
بأبي قل لي لكى أء — لم لم أعرضت عنى
قد تمنى ذاك أعدا — نى فقد نالوا التمنى

وَقَوْلُ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ الزِّيَّاتِ

قَامَ بِقَلْبِي وَقَعْدَ لَمَّا نَفَى عَنِّي الْجِلْدَ
يَا مَحَابِبَ الْقَصْرِ الَّذِي أَسْهَرَ عَيْنِي وَرَقْدَ
وَأَعْطَشْتَنِي إِلَى فَمٍ يَمِجُ خُمْرًا مِنْ بَرْدَ
إِنْ قُسِمَ النَّاسُ خُفْسَ بِي بِكَ مِنْ كُلِّ أَحَدَ

وَقَوْلُ ابْنِ رَشِيقٍ

قَدْ أَحْكَمْتَ مِنِّي التَّجَا رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ غَيْرُ جُودِي
أَبْدًا أَقُولُ لَنْ كَسْبَ تَلَأَقِبُضَنَ يَدِي شَدِيدِ
حَتَّى إِذَا أُثْرِيْتُ عُدَّ تِلْكَ إِلَى السَّامِحَةِ مِنْ جَدِيدِ
إِنْ الْمَقَامَ بِمَثَلِ حَا لِي لَا يَتِمُّ مَعَ الْقَعُودِ
لَا بَدَّ لِي مِنْ رَحْلَةٍ تُذْنِي مِنَ الْأَمْلِ الْبَعِيدِ

وَكَانَ أَسْتَاذُنَا الْمَرْحُومُ الشَّيْخُ مُحَمَّدُ الْمَهْدِيُّ بَكَ يَقُولُ « كَمَا أَنَّ اللِّسَانَ لَا يَمْرُنُ عَلَى النَّطْقِ بِالصَّوَابِ إِلَّا بِالْحَاكَاةِ ، كَذَلِكَ الذَّهْنُ لَا يَمْرُنُ عَلَى الْفَهْمِ الصَّحِيحِ ، وَلَا يَحُولُ فِي مِيدَانِ فُسَيْحٍ مِنَ الْمَعَانِي ، وَلَا يَقْدِرُ الْأَشْيَاءُ قَدْرَهَا ، إِلَّا بِالْمُقَارَنَاتِ الْكَثِيرَةِ ، الَّتِي تَمَثَّلُ فِي النَّفْسِ لِكُلِّ شَاعِرٍ صَوْرَةً وَتَقَرَّرُ لَهُ حَكْمًا غَيْرَ مَزْعُوعٍ وَلَا مَدَانِعٍ » وَمَا نَسَمِيهِ (الْحَاسَةِ الْفَنِيَّةِ) كَانَ يَسَمِيهِ (مَلَكَةَ الْأَدَبِ) وَكَانَتْ السَّبِيلُ عِنْدَهُ لِتَحْصِيلِ هَذِهِ الْمَلَكَةِ هِيَ الْمُقَابَلَةُ بَيْنَ الْمَعَانِي وَالْأَلْفَافِ ، وَالْمُقَارَنَةُ بَيْنَ الْمَفْرَدَاتِ وَالْأَسَالِيبِ ، وَتَعْلِيلُ كُلِّ تَحْسِينٍ وَتَقْبِيحٍ بِمَا يَقْنَعُ الْمُتَأَدِّبَ ، وَيَدْنِيهِ مِنَ الْفَهْمِ الصَّحِيحِ

وَأَعُودُ فَأَذْكُرُ أَنَّ الْحَاسَةَ الْفَنِيَّةَ عَزِيزَةُ الْمَنَالِ ، وَمَعَ هَذَا يَدْعِيهَا جَمِيعُ

الناس ، وإنما كانت عزيمة المنال لأننا نزن بها البيان ، والبيان كالجمال كثير التعقيد . ألا ترى أنك لا تعتدُّ برأي من يحسب البياض نصف الحسن ، ويرى تمام الصبابة في الجمع بين سواد الشعر وبياض الجبين ؟ وكان ذلك لأن الجمال نوعان : معقد وبسيط ، وأريد بالجمال البسيط ذلك النوع من الوسامة الذي يدركه أكثر الناس ، والذي يُعرف بتناسب الأعضاء ، وهذا النوع في سهولته وبساطته يشبه الألوان الأخاذة التي يَهْش لها صغار الأحلام من النساء والأطفال . أما الجمال المعقد ، وما أروع الجمال المعقد — فهو ذلك النوع الخطر الذي لا يفهمه إلا أصحاب الأذواق ، وهذا النوع من الصبابة لا يرجع إلى فتنة الحدود ، وسحر العيون ، وإنما يرجع إلى ما هو أخطر من ذلك ، يرجع إلى دقائق من الحسن ، وغرائب من الملاحظة ، لا يعرف تأويلها غير الراسخين في علم الجمال . حدثني بربك كم في هذه « الأعداد » التي تراها في طريقك ممن يتذوق جمال اللفظة ، والخطرة ، والمشية ، وكم فيهم ممن يتخطى سواد العين ، ثم يحاول فهم ما في العين من رموز والغاز ، وفي العين ما شئت وشاء السحر من اللبس والتعقيد !! وكم فيهم ممن يعذر أبا الأسود إذ يقول :

أبى القلب إلا أم عمرو وحبها عجوزاً ومن يُحبب عجوزاً يفند
كبرُذ اليماني قد تقادم عهده ورقعته ما شئت في العين واليد

وهذا الجمال المعقد هو الذي أسمعك صرخة الحكم الخضرى حين قال :

فوالله ما أدرى أزيدت ملاحه وحسنًا على النسوان أم ليس لي عقل
وهو الذي صدق في وصفه ابن الأحنف إذ قال :

يزيدك وجهه حسناً إذا ما زدته نظراً

وكذلك البيان يا صاح ، فيه معقد وبسيط . أما البيان البسيط فهو ذلك النوع السهل الذي يفهمه سواد الناس ، كقول طرفة بن العبد :
ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلاً ويأتيك بالأخبار من لم تزود
وكقول لييد :

ألا كلُّ شيء ما خلا الله باطلٌ وكل نعيم لا محالة زائلٌ
وكقول شوقي

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت فإن همو ذهبت أخلاقهم ذهبوا
ويكثر هذا النوع في القرآن حين تمس الحاجة إلى ترغيب الجماهير .
كقوله تعالى « إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلاً . خالدين فيها لا يبعثون عنها حولا » وكقوله عز شأنه « وما نرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين . فمن آمن واصلاح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون .
والذين كذبوا بآياتنا يمسه العذاب بما كانوا يفسقون » وكقوله تبارك اسمه « قل لا أملك لنفسي نفعا ولا ضرا إلا ما شاء الله ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسني السوء ، إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون » وهذا النوع من البيان هو المرجع في المعاملات ، وقد تجب فيه البساطة المطلقة حين يُستخدم في تحرير الاتفاقات والمعاهدات والعقود ، وما إلى ذلك مما تحدد به العلاقات بين الأمم والافراد ، وهذا النوع لا يحتاج إلى الحاسة الفنية ، وإنما يحتاج إليها البيان المعقد الذي قيل فيه « ان من البيان لسحراً » والذي قيل فيه « شيثان لا نهاية لهما : البيان والجمال » وفي الناس من يفتنه اشراق الديباجة ، وتخلبه رشاقة الاسلوب

كما يسحره الجبين المشرق ، ويضله القدر الرشيق
 والتعقيد الذي أعنيه غير التعقيد المعروف في علم المعاني ، فلست
 أريد اللبس والغموض حين أتحدث عن البيان المعقد ، كما لا أريد الوجوه
 المتلوية حين أتكلم عن الجمال المعقد ، وإنما أصف البيان والحسن بالتعقيد
 حين يكون للوجه الوسيم ، والاسلوب الجميل ، قوة في التأثير يحار في
 تحليلها اللبيب ، ومن هنا كان الأقدمون يظنون أن الشعر من وحي
 الشياطين ، ومن أقدر من الشيطان على العبث بالعقول !
 والقصة المشهورة التي جاء فيها أن أحد أقبال اليمن قدم الى دار
 الندوة فبصر فيها بالنبي عليه السلام وهو إذ ذاك غلام مُراهق ، فقال لمن
 حضر من القوم : ان هذا الغلام ينظر اليكم بعيني لبؤة وتارة بعيني
 عذراء خفيرة ، فلو أن نظرتة الاولى كانت سهماً لانتظمت أفئدتكم
 فؤاد أفؤاداً ، ولو أن نظرتة الثانية كانت نسيماً لانشرت أمواتكم ، هذه القصة
 فيها شيء من التعليل للجمال المعقد ، ولكن يظهر أننا انتقلنا الى عالم
 النفس ، ويظهر أيضاً أن الجمال لا يُعقد الا حين تعقد النفس ، والنفس لا
 تعقد إلا حين تصبح كالبحر تصطبغ فيه الأمواج ، أو كالليدان تشتجر
 فيه الرماح ، أو كالقلب تقتتل فيه الأشجان ، ومن يدرينا لعل جمال يوسف
 عليه السلام كان من هذا القبيل ، فما نظن أن صواحباته قطعن أيديهن ،
 وعذرن فيه امرأة العزيز ، لأسالة خده ، وسواد شعره ، وإشراق جبينه ،
 وإنما نحسب أن تلك النفس النبوية التي تضم ما تضم من دقائق الغيوب ، تلك
 النفس الجبارة ، السحارة ، القهارة ، تلك النفس المفردة في عالم النفوس ،
 هي التي جعلت لجمال يوسف ذلك السحر الذي تقطعت به الأيدي بعد

تمزيق القلوب . وسبحان من يعلم ما كان يحول بخاطر ذلك الغلام الجميل
محمد بن عبد الله وهو في دار الندوة حتى حار ذلك القيل في أمره ، فلم يدر
أيُنظر بعيني لبؤة ، أم بعيني عذراء خفرة ، وحسبنا ان نذكر أن الله كان
يُعده لحمل الرسالة ، ويرشحه لتبليغ تلك الدعوة التي لا يزال صداها يرن
في أجواز الوجود

ولبيان المعقد مثل هذا النصيب من بُعد الغور ، ودقة المدلول ،
فهو ذلك النوع المعجز الذي تسكن اليه القلوب ، وتحرار في تعليقه العقول ،
هو ذلك النوع الذي يقرؤه سواد الناس فيفهمونه ، ثم يقرؤه الخاصة
فيفتقنون به ، ويحارون في تحليل حسنه ، ثم لا يُحسن واصفهم إلا أن
يقول : هذا هو السحر الحلال !

على أنه يمكن الناقد أن يذكر بعض خواص هذا النوع من البيان :
فهو تارة يرتكز على سمو الخيال ، كقول بعض الحكماء « من غمَس يده
في مال السلطان فقد مشى بقدمه على دمه » ففي هذه الكلمة من روعة
التخييل ، وحسن التصوير ، ما يدهش العقول ، ويحير الالباب ،
وكقول أرطاة بن صهيب المري

فلو أن ما نُعطي من المال نبتغي به الحمد يعطي مثله زاهر البحر
لظلت قراقرم صياماً بظاهر من الضحل كانت قبل في لجج خضر^(١)

(١) القراقرم السفن ، والمفرد قرقر على وزن عصفور ، وصيام السفن ركودها
والضحل الماء القليل لا عمق له ، واللجج الحضر هي السوداء

فقد صور لك البحر الذي عجزت عن حربه الليالي بصورة بشعة
 مخيفة ، يهابها الوهم ، وتتحامها الظنون ، فهو يذكر أن البحر الزاخر ،
 الذي يُجنّ ما يُجنّ ، ويُظهر ما يُظهر ، والذي يروعك منظره ، ويهولك
 مخبره ، يذكر أن ذلك البحر لو بذل مثل ما يبذل هذا الجواد في سبيل
 الحمد لأصبحت السفن راكدة فوق صُبابات من الماء ، وقد كانت قبل
 في لجج رهيبة السواد . وهذه الصورة هي التي بررت مبالغة الشاعر في
 وصف قومه الأجواد ، وإن عز البحر عن النظائر وجلّ عن الأشباه
 ومن رائع الخيال قول أبي نواس

ألا لا أرى مثلي امتري اليوم في رسم

تفص به عيني ويلفظه وهي

أتت صور الأشياء بيني وبينه فظني كلا ظن وعلمي كلا علم
 فانت تراه وقد وقف أمام ذلك الرسم الذي نال منه العفاء ، وغيره
 الدروس ، حتى أرتاب فيه ، وغصت به عينه ، ولفظه وهمه ، ثم أغرقك
 في بحر من التخيل حين قال

أتت صور الأشياء بيني وبينه فظني كلا ظن وعلمي كلا علم
 وعليك أن تستوعب هذا المعنى ، فقد فتحت لك الباب

وكان الرشيد يعجب بقول صريع الغواني
 إذا ما علت منا ذؤابة شارب تمشت به مشي المقيد في الوحل
 وكان يقول : قاتله الله ! ما كفاه أن جعله مقيداً حتى جعله في وحل !
 وهذا كما ترى أبدع ما يُصور به النشوان

ولا تنس القرآن ، فانه غاية الغايات في روعة الخيال ، وانظر قوله

تعالى « أو كظلمات في بحر لجي يغشاه موج من فوقه موج من فوقه ، من فوقه
سحاب ، ظلمات بعضها فوق بعض » ولا يدرك هذا المعنى الفخيم الا
من ذاق بأس الحياة ، ورأى كيف يكون هَوَجُ الريح ، وجنون الموج ،
وعسف الظلام ، وكم في الحياة من أهوال !

وقد يرتكز البيان المعقد على بساطة الأداء ، وهذا أحسن تأويل
لكلمة « المطمع الممتنع » فقد تقرأ الكلام السهل البسيط فتحسب أنك
على مثله قدير ، حتى إذا حاولت أن تأتي بشيء من مثله عز عليك
وامتنع . واليك قول ابن الدمينه يوصي حبيبته بالقسوة على الوشاة ،
وبالصلافة حين يحور اللاثمون

وكوني على الواشين أداء شعبة كما أنا بالواشي الد شغوب
وكوني إذا مالوا عليك صليبة كما أنا ان مالوا علي صليب

فهذا كلام سهل ، يسكن اليه القلب ، وتخلد اليه النفس ، ولكنه
يعز على من يرومه ، ويطول على من يسمو إلى محاكاته . ومثله في بساطته
ودقته قول بعض الاعراب

إذا اجتمع الجوع المبرح والهوى على الرجل المسكين كاد يموت
وهي فكاها رقيقة يسم لها ثغر الحزين . وأظرف منه قول الآخر
وقد تمردت عليه امرأته ، وضربت على إيدائه

يارب إن قتلها فعذ لها فلن تموت أو تجيد قتلها
فقد مثلها بالحية النضناض ، التي يقتلها المرء تقتيلا ، ثم لا تزال تبدو
لعينيه وكأنها تسمى !

وقد يرجع تعقيد البيان ودقته وسحره الى نفس المبين : من شاعر
أو كاتب أو خطيب . فان هناك نفوساً خطيرة ، قد تُضِلُّك وقد تهديك
حين يكتب أصحابها وحين يتكلمون . وانظر قول موسى بن جابر
وقد رأى تجمع الأعداء وتوثبهم

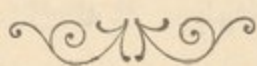
قلت لزيد لا تُترتر فأنهم يرون المنايا دون قتلك أو قتلي
فان وضعوا حرباً فضعها وإن أبوا فعرضة عض الحرب مثلك أو مثلي
وإن رفعوا الحرب العوان التي ترى فشب وقود الحرب بالخطب الجزل
فهذه النفس المعقدة في اغراضها وراميتها هي التي وقفتك موقف
الحيرة امام هذه الايات ، فأنت ترى فتى شجاعاً مقداماً لم تنسه
شجاعته ولا اقدمه ما يحيط به من عظام الاخطار ، فهو ينصح لرفيقه
ويوصيه بالحذر والرفق ، ويدعوه الى وضع الحرب إن وضعها الأعداء ،
والى شب وقودها بالخطب الجزل إن أبوا القتال ، وهذا هو الجمع
بين الحزم والشجاعة ، وقل من يجمع بينهما من أفذاذ الرجال

وانظر قول الآخر يتوجع من الوحدة والغربة في بلاد الأعداء
وقلت لغلاق بعمرنان ما ترى فما كاد لي عن ظهر واضحة يدي
تبسم كرهاً وأستبنت الذي به من الحزن البادي ومن شدة الوجد
إذا المرء أعرأه الصديق بدت له بأرض الأعادي بعض ألوانها الربد

وتلك أيها القارىء خواص يُراد بها التقريب لا التحديد ، فإن المرجع
إلى الحاسة الفنية ، وهي قد تدق حتى يعجز صاحبها عن تعليل ما يستجده

من الكلام البليغ ، والآمدى يضرب المثل بالفرسَيْن السليمين من كل عيب ، وفيهما جميع علامات العتق والجودة والنجابة ، ويكون أحدهما أفضل من الآخر بفرق لا يعلمه إلا أهل الخبرة والدراية ، وبالجاريتين البارعتين في الجمال ، السليمتين من كل عيب ، يفرق بينهما العالم بالرقيق حتى يجعل في الثمن بينهما فضلاً كبيراً ، بدون أن يقدر على عبارة توضيح وجه ذلك الفرق ، وإنما يعرفه بطبعه وكثرة درُوبته وطول ملابسته ، وكذلك الشعر ، كما يقول الآمدى ، قد يتقارب اليتان الجيدان النادران فيعلم أهل العلم بصناعة الشعر أيهما أجود إن كان معناهما واحداً ، وأيهما أجود في معناه إن كان معناهما مختلفاً

وحكى إسحق الموصلي قال : سألتني محمد الأمين عن شعرين متقاربين وقال : اختر أحدهما . فاخترت . فقال : من أين فضلت هذا على هذا ، وهما متقاربان ؟ فقلت : لو تفاوتتا لامكنتني التبيين ، ولكنهما تقاربا ففاضلت بينهما بشيء تشهد به الطبيعة ولا يعبرُ عنه اللسان والطبيعة في كلام إسحق هي ما نريده من الحاسة الفنية ، وفي هذا القدر كفاية فقد طال بنا الحديث



البحث السابع

خطر الابهام والغموض

- ١ -

ومن شروط الموازنة أن يكون النقد مؤسساً على قواعد واضحة صريحة ، لا إبهام فيها ولا غموض ، يظفر الناقد باقتناع القارئ ، وليكون نقده مادة جديدة في عالم البيان

وأخطر ما يعرض للنقد والمائلة أن يعتمد الموازن على التعابير المصبوبة في قوالب المجاز ، فانها بئس الاداة في الفصل بين الشعراء ، كأن تقول « هذا شعر أبدت صدوره متونه ، وزهت في وجوهه عيونه . وانتادت كواهل لهواديه ، وأشبه الروض في وشي ألوانه وإشراق أنواره ، وابتهاج أنجاده وأغواره ، وأشبه الوشي في اتفاق رُقومه ، واتساع رُسومه ، وتسطير كفوفه ، وتحبير حروفه ، وحكى العقد في التثام فصوله ، وانتظام وصوله ، وازديان ياقوته بدره ، وفريده بشذره ، قد كشف الإيجاز موارد ، وصقلت مداوس الدربة مناصله ، وشحذت مدارس الأدب فواصله » ، وهذه التعابير المجازية المهمة مأخوذة من فصل لأبي العباس الناشي ، في وصف الشعر الجميل . وهو صاحب هذه المنظومة :

الشعر ما قومت زيف صدوره	وشددت بالتهذيب أسر متونه
ورأيت بالأطناب شعب صدوعه	وفتحت بالايجاز غور عيونه
وجمعت بين قريه وبعيده	ووصلت بين جُمه ومعينه
وعهدت منه لكل أمر يقتضي	شبهاً به فقرنته بقرينه

وهي منظومة طويلة عني بها المتقدمون ، كما عُنُوا بمنظومته الأخرى
التي يقول فيها :

إنما الشعر ما تناسب في النظر — وإن كان في الصفات فنونا
فأني بعضه يُشاكل بعضاً قد أقامت له الصدور المتونا
كل معنى أتاك منه على ما تمنى لو لم يكن أن يكونا
فتناهى من البيان إلى أن كاد حسناً يبين للناظرينا
فكأن الألفاظ فيه وجوه والمعاني رُكَّبت فيه عيوننا
وعيب هذا الضرب من الوصف أنه لا يعني في تحديد الموصوف
بل يلقى عليه أستاراً من اللبس والغموض ، فانه لا قيمة لمدح الشعر
بتقويم زَيْغ صدوره ، وشد أسر متونه ، واجمع بين قريبه وبعيده ،
والوصل بين جمه ومعينه ، وما إلى ذلك من الصفات المبهمة التي يغرم
بها المتكلفون

ومن أمثلة هذا النوع ما ذكره بديع الزمان في مقاماته إذ قال
« جلسنا يوماً نتذاكر الشعرَ والشعراء ، وتلقانا شابٌ قد جلس غير بعيد
ينصت وكأنه يفهم ، ويسكت وكأنه لا يعلم ، حتى إذا مال الكلام بنا
ميله ، وجر الجدل فينا ذيله ، قال أصبتم عذيقه ، ووافيتم جذيله ، ولو
شئت للفظت ، ولو أردت لسردت ، وجلوت الحق في معرض بيان
يسمع الصم ، ويردى المصم ، فقلت يا فاضل ادن فقد منيت ، وهات
فقد أثنت ، فدنا وقال : سلوني أجيبكم ، واستمعوا أعجبكم ، قلنا فما تقول
في أمرى القيس ؟ قال : هو أول من وقف بالديار وعرصاتها ، وأغتدى

والطير في وكناتها ، ووصف الخيل بصفاتها ، ولم يقل الشعر كاسباً ،
 ولم يجد القول راغباً ، ففضل من تفتق للحيلة لسانه ، وأنتجع للرغبة
 بنانه . قلنا وما تقول في النابغة ؟ قال ينسب إذا عشق ، ويثلب إذا حنق
 ويمدح إذا رغب ، ويعتذر إذا رهب ، فلا يرني الا صائباً . قلنا فما تقول
 في طرفه ؟ قال هو ماء الاشعار وطينتها ، وكنز القوافي ومدينتها ، مات
 ولم تظهر أسرار دفائنه ، ولم تطلق عتاق خزائنه . قلنا فما تقول في جرير
 والفرزدق ؟ قال : جرير أرق شعراً وأغزر غُدراً ، والفرزدق أمتن صخراً ،
 وأكثر نخرًا ، وجرير أوجع هجواً ، وأشرف يوماً ، والفرزدق أكثر
 رَوماً وأكرم قومًا ، وجرير إذا نسب أشجى ، وإذا ثلب أردى ، وإذا
 مدح أسنى ، والفرزدق إذا وصف أوفى ، وإذا احتقر ازرى . قلنا فما تقول
 في المحدثين من الشعراء والمتقدمين منهم ؟ قال : المتقدمون أشرف لفظًا ،
 وأكثر في المعاني حظًا ، والمتأخرون ألطف صنعاً ، وأرق نسجاً ،
 ولو عدنا لهذه الموازنة لوجدناها جملة من الصفات الفضفاضة التي
 تصلح لبوساً لكل موصوف ، فكل شاعر فيما أظن « ينسب إذا عشق ،
 ويثلب إذا حنق ، ويمدح إذا رغب ، ويعتذر إذا رهب » ومن اللبس
 أن تقول في وصف شاعر « هو ماء الاشعار وطينتها ، وكنز القوافي
 ومدينتها » أو أن تقول « إنه أمتن صخراً وأكثر روماً » ومن المجازفة
 أن تقول « المتقدمون أشرف لفظًا ، وأكثر في المعاني حظًا » وقد
 ظُرف من لاحظ أن الاغتداء والطير في وكناتها من خواص اللصوص
 وهذا بالطبع لا يقدح في سمو تلك العبارة إلا حين تُرسل بلا تقييد ،
 وقد قيدها امرؤ القيس حين قال :

وقد اغتدى والطير في وكناتها بمنجرد قيد الأوابد هيكل
على أن هذا البيت لا يدل على أن صاحبه « أول من اغتدى والطير
في وكناتها » كما قال بديع الزمان

وقال ابن دريد : سألت أبا حاتم عن أبي نواس فقال : إن جدّ
أحسن ، وإن هزل ظرف ، وإن وصف بالغ ، يلقى الكلام على عواهنه
لا يبالي من أين أخذه . قلت فبشار بن برد ؟ قال : نظار غواص ، مطيل
مجيد ، يصف ما لم يره كأنه رآه ، على أن في شعره خللاً كبيراً . قلت
فروان ابن أبي حفصة ؟ قال : شاعر راض عن نفسه ، يستحسن كل ما جاء
منه ، مُعْجِب لا يرى أن أحداً يتقدمه ، كثير الصواب ، كثير الخطأ ،
ليس لشعره صنعة . قلت فسلم ابن الوليد ؟ قال : خليج صاف ينزع من
بحر كدر ، كالزند يورى تارة ويصلد أخرى . قلت فابو العتاهية ؟ قال
غناء جم ، واقتدار سهل ، وشعر كخرز الزجاج ، وربما أشبه الياقوت
والزبرجد . قلت فعباس ابن الأحنف ؟ قال : يلقى دلوه في الدلاء فيغترف
الصفو أحياناً والحماة أحياناً ، على أن كدره أكثر من صفوه . قلت
فسلم الخاسر ؟ قال : مقل مدّاح ، شعره ديباج وعهن ، يموه الردى ، حتى
يشبه الجيد . قلت فابو الشيص ؟ قال : جده كله فيه حلاوة وبشاعة ،
كالسدرّة التي نفضت فيها المستعذب والمستبشع . قلت فلي بن جبلة ؟
قال : بحاث عن الكلام الفخم ، والمعنى الرائع ، لا ينال مرتبة القدماء ،
ويجلى عن منزلة النظراء . قلت فابو تمام ؟ قال : مسيل كثير الغناء ،
غزير الغمار ، جم النطاف . فاذا صفا فهو السلاف بالماء الزلال . قلت فعبد

الصمد ابن المعتدل؟ قال: خراج ولاج. يعتسف تارة ويهتدي أخرى.
قلت فعلي بن الجهم؟ قال: كلام رصين، ومسلكت وعر، عقله أغلب على
شعره من طبعه. قلت فبكر بن النطاح؟ قال: تشبه بالاعراب فأفرط،
وتجاوز حد المولدين فأسهب، فهو الساقط بين القريتين «

ولا تنكر ان في هذا الضرب من القول بياناً لبعض خصائص
الشعراء، ولكننا نستنكر ان تحدد شاعرية شاعر بأنه «خراج ولاج»،
يعتسف تارة ويهتدي أخرى أو بأنه «خليج صاف ينزع من بحر كدر»
أو بأنه «لا ينال مرتبة القدماء، ويجل عن منزلة النظراء» «

ومما يؤسف له ان الميل الى الإيهام كان يغلب على المتقدمين، ولم
يسلم منه الجاحظ على بصّره بالبيان والتبيين، فقد كان يصف شعر أبي
العتاهية بأنه «أملس المتون، ليس له عيون» وهي عبارة مجازية لا
تؤدي الى معنى محدود

ويُضاف الى هذا إغفالهم ضرب الأمثال، وإطلاقهم الحكم بلا
بينة ولا دليل، في حين أن الموازنة لا يُراد بها غير التمييز والفصل بين
ما قال الشعراء في مختلف الأغراض

وقد سرت هذه العدوى الى شعراء العصر وكتّابه، فنجد مصطفى
الرافعي يقول في وصف الشعر «لو كان طيراً يتغرد لكان الطبع لسانه،
والرأس عشه، والقلب روضته، ولكان غناؤه ما نسمعه من أفواه
المجيدين من الشعراء» ونجد محمد السباعي يصف شكسبير بأنه «منحة

الطبيعة وجائزة الدهر» ونجد حافظ ابراهيم يصف شعر فيكتور هيجو فتكون غايته أن يقول :

ما ثغور الزهر في أكامها ضاحكات من بكاء السحب
نظم الوسمي فيها لؤلؤاً كثنايا الغيد أو كالجب
عند من يقضى بأبهى منظرًا من معانيه التي تلعب بي
بسمت للذهن فاستهوت نهى مغرم الفضل وصب الأدب
ولا يزال الأدباء يذكرون قول المنفلوطي في الاستاذ الشيخ عبد العزيز جاويز «لولا مقامه في اللواء، ومذهبه في الهجاء، لكان هو وفريد وجدى سواء» وقوله في المرحوم قاسم أمين «ما رأيت باطلاً أشبه بالحق من باطله» — وتلك كلها عبارات مبهمة لا تقنع طلاب البيان

— ٥ —

إنما يجب على الناقد الذي استوفى ما أسلفناه من الصفات :
١ — أن يذكر حياة من يُوازن بينهم من الشعراء، وأن يُعين ما في حياة كل شاعر من ألوان الشدة، أو صنوف الرخاء
٢ — وأن يُبين الحالة الصحية لكل شاعر ليعرف ما قد يعرض لمزاجه من الاعتلال

٣ — وأن يقدر السن التي قيل فيها ما يُريد وزنه ونقده
٤ — وأن يُحدد الصفات التي اشترك فيها من يُوازن بينهم، والصفات التي انفرد بها كل واحد منهم، ثم يتغلغل في تحليل المعاني والألفاظ والأساليب، ويوازن بين القصائد والمقطوعات والابيات اليتيمة
٥ — وأن يدقق النظر في تمييز المعاني المبتدعة من المعاني المسبوقة،

ويبين كيف تناول الشاعر المعنى الذى سبق اليه ، وكيف هذب به ، وكيف
بَسَطَهُ ، حين يَجُودُ أَخْذُهُ وتَلَطَّفُ سرقة ، وكم في الشعراء من
سارق لطيف !

٦ - وان يعدّ ما برز فيه الشاعر من المطالع والمقاطع ، وما أجاد
أخذه ، وما ابتكره ، وما انفرد به ، فقد يبتكر الشاعر المعنى ثم يُغلب
عليه حين يقصر في تأديته ، وقد يبتكر المعنى ثم ينفرد به حين يبلغ
الغاية في الأداء

٧ - وان يبين الفرق بين الشاعرين حين يشتركان في الإبانة عن
غرض واحد ، وحين يختلفان في ذلك

٨ - وأن يبين أسباب السبق ، وأسباب التخلف ، مع التعمق في
استقراء ما لكل شاعر من خطرات النفس ، ولفقات القلب ، ونوازع
الوجدان

٩ - وأن يعدّ ما لكل شاعر من المعاني الموضوعية ، التي اقتضاها
زمانه ومكانه ، والمعاني الإنسانية ، التي تصلح لجميع الناس ، على تباين
الأمكنة واختلاف العصور

١٠ - وأن يذكر بعد ذلك كله ما لكل واحد من « الصور
الشعرية » - وسنعود الى هذا المعنى الأخير بالبسط والبيان



البحث الثامن

الصور الشعرية

- ١ -

هذا فن جديد في نقد الشعر والموازنة بين الشعراء ، أقيمت عنه محاضرة في الجامعة المصرية في سنة ١٩٢١ ، ثم اخترته للمناقشة العلنية في امتحان الدكتوراه ، فساعدني ذلك على تحديده ، وضبط المراد منه ، وكشف ما يعتوره من الغموض . وإلى القارئ البيان

الصورة الشعرية هي أثر الشاعر المفلق الذي يصف « المراثيات » وصفاً يجعل قارئ شعره ما يدري أيقراً قصيدة مسطورة ، أم يشاهد منظراً من مناظر الوجود ، والذي يصف « الوجدانيات » وصفاً يخيل للقارئ أنه يُناجي نفسه ، ويحاور منميره ، لا أنه يقرأ قطعة مختارة لشاعر مجيد

والصورة الشعرية لا تكمل إلا حين يحيط الوصف بجميع أنحاء الموصوف ، فليس منها قول أبي نواس في وصف الراح

صهباً تبني حباًباً كلما مرّجت	كأنه أولو يتلوه عقيان
كانت على عهد نوح في سفينته	من حرّ شحنتها والارض طوفان
فلم تزل تعجم الدنيا وتعجمها	حتى تخيرها للخبء دهقان
فصانها في مغار الارض فاختلفت	على الدفينة أزمان وأزمان
ببلدة لم تصل كلبها طنباً	ولا خباء ولا عبس وذبيان

ليست لذهل ولا شيبانها وطناً
أرض تبتى بها كسرى دساكره
وما بها من هشيم العرب عرفة
لكن بها جلتار قد تفرعه
لو عرُضت هذه القصيدة على رجل من أدباء العصر ، أو لو أنها
عُرِضت على رجل من الأدباء في الأعراس الخالية ، لو صُفّت على الأقل
بأنها رشيقة الأسلوب ، متينة التركيب ، ولـكـنـنا سنـبين أنها قصيدة
جوفاء ، لا حظ لها من الروعة ولا نصيب لها من الجمال

أراد أبو نواس أن يصف الخمر . ولكن هل وضع صورة شعرية
تنتظم ما للخمر من اللون والعبير ، وما لها من العبث بالعقول ، واللعب
بالنفوس ؟ كلا ! لم يصنع شيئاً من ذلك ، ولكنه ذكر فقط أنها كلما
مزجت تبني حباباً كأنه لؤلؤ يتلوه عقيان ، ثم اندفع يذكر أنها عتيقة
وأن عهداً بالوجود قديم ، وقد جره ذلك إلى الإغراب في الكذب
فذكر أنها كانت خير ما شحن في سفينة نوح ، وأنها ما زالت تغالب
الدهر ، وتصانع الحداث ، حتى ظفر بها دهقان ماكر دفنها في مغار
الأرض ، وأخفاها عن عيني الزمان . ولم يكفه ذلك ، بل ذكر أن
الأرض التي دفنت فيها هذه الخمر أرض كسروية ، لم ينصب فيها خباء
لعبس ولا ذبيان ، ولم ينبت بها عرفج ولا خطبان ، بل زينها الجلتار ،
والورد ، والآس ، والسوسان

إذاً أخطأ أبو نواس ، حين غلا في الإشادة بعشق الصبهاء ، لأن
عشاقها لا يشعرون بالحاجة إلى إقامة البيئة على أنها من عهد الطوفان ،

مهما أحبوا أن تكون قديمة العهد بالوجود ، فقد يكفيهم أن توصف
بالقديم ، وأن تكون لقدمها كما قال ابن الرومي

لطفت فقد كادت تصير مُشاعة في الجو مثل شعاعها ونسيمها
أو كما قال ابن المعتز

جرت حركات الدهر فوق سكونها فذابت كذوب التبرأخلصه السبكُ
فقد خفيت من صفوها فكانها بقايا يقين كاد يدركه الشكُ

ويكاد القساريء لقصيدة أبي نواس يتوهم أنه يقرأ شيئاً غير
وصف الخمر ، ويكاد يحسب أنه يقرأ موازنة بين ما تنبت البلاد العربية
وما تنبت البلاد الفارسية ، إذ يرى الشاعر يشيد بما بنى كسرى من
دساكر ، وما بأرض الفرس من ورد وآس ، ويسخر مما للعرب من طنب
وخباء وما بارضهم من عرفج وخطبان

ولو لم يمثل في بيداء هذا الفضول لكان للغلو في وصف الخمر
بالقدم شيء من الروعة ، أو كان على الأقل مما تسيغه النفوس ، فما نظن
أحداً يستنكر قول البحتري في وصف الشمول

بِكُرْتَه تَقَدَّمَت الزمان بغرسها إن كان قبل الدهر شيء يغرسُ
ولنفرض أن أبانواس أجاد في وصف الخمر بالقدم ، وأنه في ذلك غير
مسبق ، أفيمكن أن يوصف الشيء من ناحية واحدة مهما كان وصفها
سابقاً ليصبح الموصوف وهو ممثل من جميع الجوانب ؟ إن هذا لبعيد !
ولا تذكر أن الصفة الغالبة لشيء من الأشياء قد تصرف الشاعر عما
عداها من الصفات ، وليس قدم الخمر من ذلك في كثير ولا قليل ، فقد

تكون الراح جبارة قهارة ، وهي في مَبْعَةِ الصبا وعنفوان الشباب ، وغيري
عنده الخبر اليقين

ولننظر قول أبي نواس من كلمة ثانية

دع عنك لومي فإن اللوم إغراء وداوني بالتي كانت هي الداء
صفراء لا تنزل الأحزان ساحتها لو مسحها حجر مسته سراء
قامت بإبريقها والليل معتكره فلاح من وجهها في البيت لألاء
فأرسلت من فم الإبريق صافية كأنما أخذها بالعين إغفاء
جفت عن الماء حتى ما يلائما اطافة وجفأ عن شكاها الماء
فلو مزجت بها نوراً لمازجها حتى تولد أنواراً وأضواء

وهذه صورة شعرية للراح ، ألم فيها الشاعر بصفات المختلفة أو بأشهر
ما لها من الصفات ، وقد ابتدأ ذلك بنبذ ملامة اللاتين ، بل جعل اللوم نوعاً
من الإغراء ، واستصرخ الساقى ليسعفه بالتي كانت الدواء ، لما أورثت من
داء ، ثم اندفع يذكر أنها صفراء اللون ، وأن الحزن لا يحل لها ساحة ،
وأن الحجر لو مسحها مسته السراء ، وأنها حين قامت بإبريقها هتكت الظلماء ،
بما لوجهها من لألاء ، وأنها حين أرسلت صافية من فم الإبريق أخذت
تلعب بالعيون كأنها الإغفاء ، وأنها لطفت حتى ما تلائم الماء ، ولا يشاكلها
الماء ، فلا سبيل إلى أن تشعشع بالعذب الفرات ، فإن عجز المصطبغ أو المغتبق
عن شربها صرفة فليمزجها بالنور ، فإنه لها مزاج ، وهي له لباس ، ومنهما
تتولد الأنوار والأضواء

وقد يلاحظ أن هذا الوصف بعيد عن متناول العقول، ونجيب بأنه لا جمال للشعر إلا إذا أُضيف إلى الحقيقة شيء من الخيال، وقد يكون هذا الخيال حقيقة ثانية لا فرق بينها وبين الأولى إلا أن أحدهما في الوصف وأخرهما في الموصوف، ولأن الشاعر لا يصف شيئاً إلا متأثراً بحسنة أو قبيحة فهو حين يذكر الشيء الدميم يذكر بجانبه نقرته من الدمامة، وحين يصف الشيء الجميل يصف بجانبه غرامه بالجمال. وربما خضع الشاعر لعاطفته، فانتقل من وصف إلى وصف، كأن يترك الحديث عن الراح وينحدر إلى وصف الساقى مثلاً. وهنا لا مندوحة من أن ينتقل الناقد مع الشاعر ليعرف أقصر في وصف ما انتقل إليه أم أجاد، وتكون الصورة الشعرية للموصوف الثاني، مثال ذلك قول ابن عنين:

ومدّامة لم يبق طول ثوائها في خدرها الا وميض شعاع
من كف مصقول العوارض أنس يرنو بمقلة جؤذر مرتاع
وقفت عوارض صدغه في خده حيرى وباتت في القلوب سواهي
راضت خلائقة العمار وبدلت نزع الصبأ بموقر مطواع
وعلماء الأدب يذكرون هذه القطعة في وصف الخمر، وليست من ذلك في شيء، إنما هي تشبيب، ومثلها قول البحري وقد صرعت نديمة الصهباء

ونديم حلو الشمائل كالدي — نار محض النجار عذب المصفي
بت أسقيه صفوة الراح حتي وضع الكأس مائلاً يتكفأ

قلت عبد العزيز تفديك نفسي ! قال لبيك ! قلت لبيك ألفا !
 ها کہا ! قال هاتها ! قلت خذها قال : لا أستطيعها ، ثم أنفي
 وهذا النوع من الحوار يسمى عند علماء البديع بالمراجعة ، وليس
 جمال هذه الأبيات في ترديد القول كما يظنون ، ولكن جمالها في هذه
 الصورة الشعرية البديعة التي تمثل لك رفق النديم ، وجناية الكأس عليه ،
 واستسلامه للإغفاء بعد هذا الحوار الرقيق

— ٤ —

وفضل الصورة الشعرية هو تمكين المعنى في نفس القاريء والسامع ،
 ألا ترى أن قول بعض الاندلسيين
 أخاف عليك من عيني رقيبى ومن عيني وعينك والزمان
 ولو أنني وضعتك في عيوني إلى يوم القيامة ما كفاني
 أقل تأثيراً في النفس من قول ابن الرومي
 أعانقه والنفس بعد مشوقة إليه وهل بعد العناق تدان
 وأثم فاه كي تزول حرارتي فيشتد ما ألقى من الهيمان
 ولم يك مقدار الذي بي من الجوى ليرويه ما تلثم الشفتان
 كأن فؤادي ليس يروى غليله سوى أن يرى الروح حين يمتزجان
 لأن ابن الرومي وضع لكافة صورة شعرية تامة الاجزاء ، وتنقل
 بالقاريء والسامع من حال الى حال ، وذكر أموراً فطرية يشمر بمثلها كل
 متيم مشغوف ، ثم عال شرهه في صبوته بخاطر لوعته وفرط جواه .
 وتحليل المعنى وتعليله من أقرب الوسائل الى تمكينه في النفوس ، وفي
 تحليل المعاني وتعليلها تتفاوت أقدار الكتاب والخطباء والشعراء

البحث التاسع

اهمية الصور الشعرية

عرف القارىء شيئاً عما أريده من الصور الشعرية ، ولكنه شيء ، يسير لا يغني في إمطة اللثام عن هذا الفن الجديد ، وسأعود بعد قليل الى تحقيق الفرق بين الصورة الشعرية والتمثيل المعروف في علم البيان ، فقد ظن بعضهم أن الصورة الشعرية هي الاستعارة التمثيلية وهو خطأ مبين

والآن أرجع الى توضيح ما ذكرته في الكلمة الماضية من أن فضل الصورة الشعرية إنما هو تمكين المعنى في النفس ، لأن غاية الكلام البليغ من نثر أو شعر إنما هي التأثير ، والصورة الشعرية لما فيها من تحليل المعنى وتعليقه كافية في تحقيق غاية البيان ، ولنضرب لذلك الامثال

- ١ -

من الحسك الماثورة قول أبي الدرداء « مَنْ لَكَ بِأَخِيكَ كُلُّهُ » يريد أن الصديق لن يكون من كل نواحيه منسكاً لآخيه . هذا هو أصل المعنى ، وتلك هي صورته الأصلية ، فلننظر كيف بسطه بشار بن برد حين قال :

إذا كنت في كل الامور معاتباً	صديقك لم تلق الذي لا تُعَاتِبُهُ
فَمِشْ واحداً أو صل أخاك فإنه	مُقَارِفُ ذَنْبٍ مرةً ومُجَانِبُهُ
إذا أنت لم تشرب مراراً على القذى	ظَمِئْتَ وأَيُّ النَّاسِ تَصْفُو مشاربه

فاذا وازنت بين هذه الايات وكلمة أبي الدرداء رأيت ان كلمة «من لك بأخيك كله» كلمة مبهمّة لا تقر في النفس إلا بعد التأمل والترديد، ورأيت صاحب هذه الايات الثلاثة يخاطب عقلك ووجدانك، إذ يذكر أنك ان عاتبت صديقك في كل الامور فلن تلقى الصديق الذي لا تعاتبه، لانه يندر أن يخلو صديق من العيوب، وانك مضطر الى إحدى اثنتين: إما أن ترضى الوحده، وإما أن تصل أخاك، فقد يقارف الذنب مرة ويجانبه مرة أخرى، وإذا لم تشرب «مراراً» على القذى ظمئت، وأى الناس تصفو مشاربه في هذا الوجرد؟

فانت ترى أن كلمة بشار أوقع في النفس، وأملأ للقلب، من كلمة أبي الدرداء، واليك كلمة الشريف الرضي في نفس المعنى:

وكم صاحب كالرمح زاغت كعوبه	أبى بعد طول الغمز أن يتقوما
تقبلت منه ظاهراً متباجاً	وأدج دوني باطناً متجهماً
فأبدى كروض الحزن رقت غروعه	وأضر كالليل الخداري مظلماً
ولو أنني كشفته عن ضميره	أقت على ما بيننا اليوم ماتماً
فلا بأسطاً بالسوء إن ساءني يداً	ولا فاغراً بالذم إن رابني قفا
كعضو رمت فيه الليالي بقادح	ومن حمل العضو الأليم تألماً
إذا أمر الطب اللبيب بقطعه	أقول عسى ضناً به ولعلماً
صبرت على إيلا م خوف نقصه	ومن لام من لا يرعوي كان ألوما
هي السكف مض تركها بعد دانها	وإن قطعت شانت ذراعاً ومعضماً
أراك على قلبي وان كنت عاصياً	أعز من القلب المطيع وأكرماً
حملتك حمل العين لج بها القدى	فلا تنجلي يوماً ولا تبلغ العمى

دع المرء مطويًا على ما ذمته ولا تنشر الداء العضال فتندما
إذا العضو لم يؤلمك إلا قطعته على مضض لم تبق لحماً ولا دماً
ومن لم يوطن للصغير من الأذى تعرض أن يلقى أجلاً وأعظما
فهذه صورة شعرية يندر أن تجد مثلها في هذا المعنى لغير الشريف
الرضي، وانظر كيف حدثك عن صديقه الذي صبر عليه، وكيف شبهه
بالرح الذي زاغت كعوبه، وأبى بعد طول الغمز أن يتقوم، وكيف تقبل
من ذلك الصديق ظاهره المتباج، وتغافل عن باطنه المتجهم، وكيف
مثل ما أبداه بروض الحزن رقت فروعه، وما أضمره بظلمة الليل، وانظر
كيف راعك حين ذكر أنه لو كشف صديقه عن ضميره لأقام على ما بينهما
مأتماً أي مأتم، ومع ذلك لا يبسط يده بالسوء إن ساءه، ولا يفتح فاه
بالذم إن رابه، ثم انظر كيف صور هذا الصديق الذي كثر دغله وساءت
طويته بصورة العضو الذي رمته الليالي بقادح، والذي يؤلم حمله ولكن
مع هذا مرجو البرء مأمول الشفاء، ومن ذا الذي يجهل أن داء الكف
مض بغيض، ولكن من ذا الذي يرضى أن يشين بقطعها المعصم والذراع؟
ولم يقف الشريف الرضي عند ذلك، بل مثل صديقه بالعين لج بها
القذى، وهو أفضل من العمى على كل حال، ثم أرسل هذه الحكمة الرائعة
دع المرء مطويًا على ما ذمته ولا تنشر الداء العضال فتندما
إذا العضو لم يؤلمك إلا قطعته على مضض لم تبق لحماً ولا دماً
وهل ينكر أحد بعد هذا التفصيل أن كلمة بشار أولاً، وكلمة الشريف
الرضي ثانياً، أدعى لتمكين المعنى في النفس من كلمة أبي الدرداء، لما فيهما
من تحليل المعنى وتعليقه، وذلك داعية التأثير، وهو ثمرة الكلام البليغ

رئي مؤيلك المزموم امرأته أم العلاء فقال :

امرؤ على الجذث الذي حلت به أم العلاء فنادها لو تسمع
أني حلت وكنت جد فروقة بلداً يمر به الشجاع فيفزع
صلى عليك الله من مفقودة إذ لا يلائمك المكان البلفع
فلقد تركت صغيرة مرحومة لم تدر ما جزع عليك فتجزع
فقدت شمائل من لزامك حلوة فنبئت تسهر أهلها وتفجع
وإذا سمعت أئينها في ليلاها طفقت عليك شئون عيني تدمع

وهذه قطعة مختارة في بكاء المرأة تخلي طفلها وتروح الى عالم الفناء ، وهي بعد التحليل ترجع الى فكرتين : الأولى التعجب من قرار هذه المرأة الهيوب في ذلك المكان البلفع ، والثانية الأسف على ما لقيت طفلها من فقد شمائلها الحلوة ، وقد سرد الشاعر هاتين الفكرتين بشيء من الجفاف ، وكان في مقدوره أن يزيد الفكرة الأولى شيئاً من الوضوح ، وأن يعمد في الفكرة الثانية الى أن يشرك معه القارئ في حزنه وبشده لأن الغرض من الشعر انما هو التأثير

والى القارئ ما يقوله في هذا المعنى محمد بن عبد الملك الزيات

ألا من رأى الطفل المفارق أمه بُعيد الكرى عيناه تبتدران
رأى كل أم وابنها غير أمه يبيتان تحت الليل ينتحمان
وبات وحيداً في الفراش تحته بلابل قلب دائم الخفقان
ألا إن سَجَلًا واحدًا قد أرقته من الدمع أو سَجَلين قد شفياني
فلا تلحني ان بكيت فانما أداوى بهذا الدمع ما تريان

وان مكاناً في الثرى خُطَّ لحدُّه لمن كان في قلبي بكل مكان
أحق مكان بالزيارة والهوى فهل أنما ان نُجِيتُ منتظران
فهيئي عزميت الصبر عنها لاني جليده فمن بالصبر لابن ثمان
ضعيف القوى لا يعرف الاجر حسبةً

ولا يأتسي بالناس في الحدان

* * *

ألا من أمنيهِ المنى فأعدُّه لعثرة أيامي وصرف زمني
ألا من اذا ما جئت اكرم مجلسي وان غبت عنه حاطني ورعاني
فلم أر كالأقدار كيف يُصِبنني ولا مثل هذا الدهر كيف رماني
فاذا وازناً بين هذه القطعة وبين تلك وجدنا في الاخيرة صورة
شعرية بديعة ، تمثل الطفل المفجع في امه ، والرجل المفجع في زوجه ،
وانظر كيف صور الطفل اليتيم بقوله

رأى كل أم وابنها غير أمه يبيتان تحت الليل ينتجيان
وبات وحيداً في الفراش تحته بلابل قلب دائم الخفقان
وانظر كيف علل جزع الطفل بضعف قواه ، وجهله بالاجر والتأسي
وتأمل كيف فهم قدر الحليّة ، وكيف تغلغل في وصف ما للحلائل من
الرفق ، وما للرجل من الأُنس بزوجه حين يطارحها الاحاديث بالليل ،
وكيف اعتمد عليها فأعدها لعثرة أيامه وصرف زمانه ، وكم في الايام
من عثرات ، وكم في الدهر من صروف !

وأى كلام أبلغ في وصف الحليّة الرفيعة ، الأمانة ، من قوله في
تلك الفقيدة الغالية

أَلَا مَنْ إِذَا مَا جِئْتُ أَكْرَمَ مَجْلِسِي وَانْ غَبَتْ عَنْهُ حَاطِنِي وَرَعَانِي
وَأَحَبُّ لَوْ أَعَادَ الْقَارِي، النَّظَرَ فِي هَذَيْنِ الْبَيْتَيْنِ
وَإِنْ مَكَانًا فِي الثَّرَى خُطَّ لِحْدُهُ لَمَنْ كَانَ فِي قَلْبِي بِكُلِّ مَكَانٍ
أَحَقُّ مَكَانٍ بِالزِّيَارَةِ وَالْهَوَى فَهَلْ أَنْتُمْ إِنْ عَجَبْتُمْ مُنْتَظَرَانِ
فَإِنَّهُمَا غَايَةٌ فِي تَمْثِيلِ الْحَنُوِّ عَلَى الْقَبْرِ الْمَأْهُولِ بِرَفَاتِ الْحَبِيبِ، وَسَقَى
اللَّهُ كُلَّ بَقْعَةٍ مِنْ هَذَا الْقَبِيلِ!

أَرَادَ الطُّغْرَانِيُّ أَنْ يَسْتَعِظَ أَحِبَّابَهُ وَانْ يَذْكُرَهُمْ بَانَ فِي صُرُوفِ
الدَّهْرِ مَا يَغْنِي عَنْ الْقَطِيعَةِ، وَذَلِكَ قَوْلُهُ

وَيَارْفَقَةُ مَرَّتْ بِمَجْرَاءِ مَالِكٍ تَوْمُ الْحُمَى أَنْضَاؤُهَا وَالْمَطَالِيَا
نَشْدَتِكُمْ بِاللَّهِ إِلَّا نَشْدَتُمُو بِهِ شُعْبَةٌ أَضْلَلَتْهَا مِنْ فَوَادِيَا
وَفَلْتُمْ لِحْيَ نَازِلِينَ بِقَرَبِهِ أَقَامُوا بِهَا وَاسْتَبَدَّلُوا بِجَوَارِيَا
رَوَيْدِكُمْ لَا تَسْبِقُوا بِقَطِيعَتِي صُرُوفُ اللَّيَالِي إِنْ فِي الدَّهْرِ كَافِيَا

وَأَصْلُ هَذَا الْمَعْنَى لِإِيَّاسِ بْنِ الْقَائِفِ إِذْ يَقُولُ

فَأَكْرَمَ أَخَاكَ الدَّهْرَ مَا عَشْتُمْ مَعًا كَفَى بِالْمَمَاتِ فَرْقَةً وَتَنَائِيَا
إِذَا زَرْتُمْ أَرْضًا بَعْدَ طَوْلِ اجْتِنَابِهَا فَقَدْتُمْ صَدِيقِي وَالْبِلَادَ كَمَا هِيَا
وَلَنَنْظُرَ كَيْفَ تَنَاولَ سَعِيدُ بْنُ حُمَيْدٍ هَذَا الْمَعْنَى حِينَ قَالَ

أَقْلَلُ عِتَابَكَ فَالْبَقَاءُ قَلِيلُ وَالدَّهْرُ يَعْدِلُ تَارَةً وَيَمِيلُ
لَمْ أَبُكْ مِنْ زَمَنِ ذَمَّتْ صُرُوفُهُ إِلَّا بِكَيْتٍ عَلَيْهِ حِينَ يَزُولُ
وَلِكُلِّ نَائِبَةٍ أُلِّتْ مَدَّةُ وَلِكُلِّ حَالٍ أَقْبَلْتُ تَحْوِيلُ
وَالْمُنْتَمِعُونَ إِلَى الْإِخَاءِ جَمَاعَةٌ إِنْ حِصَّلُوا أَفْنَاهُمْ التَّحْصِيلُ

ولعل أحداث المنية والردى يوماً ستصدع بيننا وتحول
فلئن سبقت لتبكين بحسرة وليكثرن عليّ منك عويل
ولتفجعن بمخلص لك وامق حبل الوفاء بحبله موصول
ولئن سبقت ولا سبقت ليمضين من لا يشاكله لدى خليل
وليذهبن بهاء كل مروءة وليفقدن جاهها المأهول
وأراك تكلف بالعتاب وودنا صاف عليه من الوفاء دليل
ودّ بدا لذوى الاخاء جماله وبدت عليه بهجة وقبول
ولعل أيام الحياة قصيرة فعلام يكتر عتبنا ويطول
وهذا غاية في تحليل المعنى وتعليقه ، فإننا نراه ابتداء بشكوى الزمان ،

ونصح صديقه بانتهاب الفرص السوانح ، ثم أخذ يقنع صديقه بأن
الحرف في الدنيا قليل ، وبأن من الحزم ان لا يتجنى المرء على صديق لا ذنب
له ، فقد تصدع بينهما أحداث المنية ، أو عاديات الليالي

وقد بلغ غاية الرفق حين شرع يذكر لصديقه أنه ان سبقه الى
الموت فسيكثر عويله عليه ، وستعظم خبيثته فيه . وهذا اعتراف منه
لصديقه بالوفاء ، وهذا الاعتراف نفسه نوع من التألف والأستعطاف ،
وانظر كيف دق ولطف في قوله

ولئن سبقت - ولا سبقت - ليمضين من لا يشاكله لدى خليل
ولعل الجملة الاعتراضية لم تقع موقفاً أدق من هذا ولا أظرف ، وهذه
القصيدة من الصور الشعرية البديعة ، وهي بلا شك أوفى من ابيات ابن
القائف ، وابرع من ابيات الطغرائي ، وهي فوق ذلك نص فيما قصد الشاعر
اليه : من ردّ صديقه الى شرعة الألفة ، وصرفه عن موارد الصدود

اراد العباس بن مرداس السلمي أن ينصف أعداءه ، وهو يفخر
بقومه ، ويذكر صبرهم على الجلاد ، وصدقهم في اللقاء ، فقال :

ولم أر مثل الحي حياً مصباحاً ولا مثلنا يوم التقينا فوارسا
أكرراً وأحمى للحقيقة منهمو وأضرب منابالسيوف القوانسا
إذا ما شددنا شدة نصبوا لنا صدور المذاكي والرماح المداعسا
إذا الخيل جالت عن صريع نكرتها عليهم فما يرجعن إلا عوابسا
ولهذه الأبيات قيمة أي قيمة . ولكن أترأها تبلغ في تقرير المعنى

وتمكينه في النفس ما يبلغه قول عبد الشارق بن عبد العزى الجهمي

ألا حيميت عنا يارديننا نحيتها وان كرمت علينا
ردينة لو رأيت غداة جثنا على أضماننا وقد اختويننا
فأرسلنا أبا عمرو ريثنا فقال ألا أنعموا بالقوم عينا
ودسوا فارساً منهم عشاء فلم تغدر بفارسهم لدينا
جاءوا عارصاً برداً وجثنا كمثل السيل نركب وازعيننا
تنادوا يالبهشة إذ رأونا فقلنا أحسنى ضرباً جهينا
سمعنا دعوة عن ظهر غيب فجلنا جولة ثم أرعويننا
فلما أن . تواقفنا قليلاً أنحننا للكلاكل فارتميننا
فلما لم نزع قوساً وسهماً مشينا نحوهم ومشوا إلينا
تلاؤمزة برقت لاخرى إذا جحلوا بأسياف رديننا
شددنا شدة فقتلت منهم ثلاثة فتية وقتلت قينا
وشدوا شدة أخرى فجرؤوا بأرجل مثلهم ورموا جويننا

وكان أخى جوين^م ذا حفاظٍ وكان القتل للفتيان زينا
فأبوا بالرماح مكسرات وأبنا بالسيوف قد أنحنينا
وباتوا بالصعيد لهم أحاح^م ولو خفت لنا الكلامى سرينا
فهذه صورة شعرية مثل الشاعر بها الموقعة أحسن تمثيل . وانك
لتراه ينتقل من وصف الى وصف فى سهولة ورفق ، وتراه فى الوقت
نفسه صادقاً فيما يقول ، إذ لم يرد فى قصيدته ما يحمل القارىء على تكذيبه
أو رميته بالغلو والإسراف ، وانظر كيف اكتفى فى رثاء أخيه حين
صرع بهذا البيت السهل المقبول

وكان أخى جوين^م ذا حفاظٍ وكان القتل للفتيان زينا
وأى فتى لا يتمنى أن يرمى بنفسه فى سعي تلك الحرب التى يقول
فيها هذا الفتى النبيل ، وهو فيما يقول غير ظنين

تنادوا يالْبَهْثَةَ إِذْ رَأَوْنا فقلنا أحسنى ضرباً جُهَيْنَا
سمعنا دعوة عن ظهر غيب فجلنا جولة ثم أرعونا
فلما أن تواقفنا قليلاً أنحننا للدكلا كل فارتميننا
فلما لم ندع قوساً وسهماً مشينا نحوهم ومشوا إلينا
تلاؤ مزنة برقت لأخرى اذا حجلوا بأسياف ردينا

والشاعر الواحد قد يكلف بتريد معنى من المعانى فلا يزال يبدى
ويعيد حتى يضع له صورة شعرية يصل بها الى ما يريد ، كالعباس بن
الاحنف فى ولوعه بكتمان الوجد ، ووجود الحب ، فقد أفتن^م فى هذا
المعنى ووضع له صوراً عديدة ، فتارة يعتذر عن هجره فيقول

الله يعلم ما أردت بهجركم إلا مُصانعة العدو الكاشح
وعلمت أن تباعدى وتستري أدنى لوصلك من دنو فاضح
وأحلى من هذا قوله في تعيين نوع الصدود

سأهجر إليّ وهجرانها إذا ما التقينا صدود الخدود
كلانا محبٌ ولسكننا ندافع عن حبنا بالصدود
وتارةً يُعلّل السكتان فيقول

سأستر والستر من شيمتي هوى من أحب بمن لا أحب
ولا بد من كذب في الهوى إذا كان دفع الأذى بالكذب

وحيثما يصف اضطراب الناس في الحديث عن وجده فيقول
قد سحّب الناس أذيال الظنون بنا وفرّق الناس فينا قولهم غرقا
بجاهل قدرنى بالظن غيركمو وصادق ليس يدرى أنه صدقا
وأظنه لم يبلغ من البيان ما أراد إلا حين قال

كذبت على نفسي فحدثت انى سلوت لكما ينكروا حين أصدق
وما من قلبى منى ولا عن ملالة ولسكنني أبقى عليك وأشفق
عطففت على أسراركم فكسوتها قيصاً من السكتان لا يتخرق

وللقارىء أن يحلل هذا المعنى فقد مهّدت له السبيل (١)

(١) ارجع الى هذه المعاني الوجدانية في كتاب (مدامع العشاق)



البحث العاشر

اختلاف الصور الشعرية

- ١ -

وقد نجد للموصوف الواحد صورتين مختلفتين ، لاختلاف العاطفة عند شاعرين . فمن ذلك قول ابن الزيات في برذون أشهب كان المعتصم أخذه منه ، وكان أحمد بن خالد ذكره له ، ووشى به إليه

قالوا جزعت فقلت إن ^(١) مصيبة	جلت رزيتها وضاق المذهب
كيف العزاء وقد مضى لسبيله	عنا فودعنا الأحم ^١ الأشهب
دب ^١ الوشاة فأبعدوه وربما	بعد الفتى وهو الحبيب الأقرب
لله يوم غدوت عني ظاعنا	وسلبت قربك أي ^١ علق أسلب
الآن اذ كملت أداتك كلها	ودعا العيون اليك لون معجب
واختير من سر ^١ الحدائد خيرها	لك خالصا ومن الحلي ^١ الأغرب
وغدوت طنان ^١ اللجام كأنما	في كل عضو منك صنم يضرب
وكان سرجك اذ علاك غمامة ^١	وكانما تحت الغمامة كوكب
ورأى علي ^١ بك الصديق مهابة	وغدا العدو وصدره يتلهب
أنساك ^١ ؟ لا برحت اذا منسية	نفسى ولا زالت بمثلك تنكب

وهذه صورة شعرية لفرس انتزع من صاحبه، فلندكر صورة شعرية

لفرس لم يفجع صاحبه فيه ، كقول البحري

(١) ان - هنا - حرف جواب بمعنى نعم، ولها شواهد كثيرة ذكرها النحويون

وأغرّ في الزمن البهيم محجل
 كالهيكل المبني الآ أنه
 وافي الضلوع يشد عقد حزامه
 أخواله للرستمين بفارس
 يهوي كما تهوي العقاب وقد رأت
 ذنباً كما سحب الرشاء يذب عن
 ذهب الأعالى حيث تذهب مقلة
 صافي الأديم كأنما عنيت به
 وتراه يسطع في الغبار لهيبه
 هزج الصهيل كأن في نغماته
 ملك العيون فان بدا أعطينه
 والموازنة بين هاتين القصيدتين تتوقف على معرفة السبب الذي قيلت

فيه القصيدة الأولى والسبب الذي قيلت فيه القصيدة الثانية ، ومتى عرفنا
 أن الشاعر الأول وصف حصانه وهو جازع محزون ، وأن الشاعر الثاني
 وصف حصانه وهو فرح مختال ، استطعنا أن نعرف السبب فيما بين
 القصيدتين من الفروق ، فقد ابتداء ابن الزيات فشرح حزنه على ذلك
 الحصان المسلوب بما يشبه أن يكون مرثية لغلام نكب به ، وهذا الجزء
 من القصيدة اقتضته «ظروف» ابن الزيات ، فهو في الوصف غير محسوب
 ثم انتقل الى وصف الفرس فابتدأه بأبيات هي أنموذج في الرثاء ، ألا
 تراه يقول :

الآن اذ كملت أداتك كلها ودعا العيون اليك لون معجب

واختير من سر الحدائد خيرها لك خالصاً ومن الحلي الاغرب
وغدوت طنان اللجام كأنما في كل عضو منك صنج يضرب
وهذا النمط في التعبير كان شائعاً في الرثاء ، لذلك العهد ، ومنه قول
بعض الشعراء

الآن لما صرت أكل من مشى واقترب نأبك عن شباة القارح
وتكاملت فيك الشماثل كلها وغدوت رباً مدائح ومنايح
ويدلك على أن ابن الزيات إنما يصف حزنه على ذلك الجواد أنك
تراه يطنب في وصف المظاهر الأخاذة التي تبهر الناظرين ، ليكشف
عن سر النسيمة التي رزاه بها ابن خالد عدوه اللدود ، وإلا فما معنى قوله
وكان سرجك اذ علاك غمامة وكأنما تحت الغمامة كوكب
ورأي علي بك الصديق مهابة وغدا العدو وصدده يتلهب
وكان ذلك لأن ابن الزيات محقق مغيظ لا يفكر في عتق فرسه
أكثر مما يفكر في نكبته بذلك العدو الذي سد عليه طريق الخيلاء
حين أغري المعتصم بأخذ برذونه الجميل

وجملة ما وصف به ابن الزيات برذونه أنه كامل الأداة ، وأنه يروق
العيون ، وأنه اختار له من الحديد سره ومن الحلي أغربه ، وأنه طنان
اللجام ، وأن سرجه كالغمامة وهو من تحته كالسكوكب ، وأنه يكبت
العدو ويسر الصديق

وهذه أوصاف لا تماثل ولا توازن بأوصاف البحري لجواده ،
فقد ذكر أنه أغر محجل ، وأنه في تكوينه

كالهيكل المبني إلا أنه في الحسن جاء كصورة في هيكل

وأنه وافي الضلوع ، وأنه أصيل : أخواله في بلاد الأكَسرة ،
وأجداده في بلاد التبابعة ، وانه يهوى هُويَّ العقاب حين ترى الصيد ،
ثم ينتصب أُنْتصاب الاجدل ، وأنه برّاق الجوانب : تتوهم في جبينه
البدر ، وفي أرساغه الجوزاء ، وأن ذنبه لطوله كالرداء المسحوب ، وأنه
صافي الأديم كأنما سهرت على لونه الصياقل ، وأنتك تحسب بريق سنا بكة
في الغبار ناراً يعلوها دُخان ، وأنه هَزَج الصهيل حتى لتحسب في نغماته
نبرات معبد في صوته الرخيم ، وأنه ملك العيون ، حتى لتتنظر إليه نظر
المحب الى الحبيب المقبل

وليس عجباً أن يجيد البحري هذه الاجادة في وصف جواد كان
يَهْتِك بغرته ظُلمة الليل ، وينحدر به في الفضاء ، كما تنحدر الصخرة
الصماء ، عن القمة الشماء . أما ابن الزيات فهو حَرِيب سَلِيب ، لم يذ كر
من جواده غير شياته الظاهرة ، التي أُجبت في صدر حسوده نار
العداوة والبغضاء

ذلك هو اختلاف الصورة الشعرية ، وفي مقدور الناقد أن يتبين
الصورة الموحدة عند شاعرَيْن ، ثم يوازن بين براعتهما في التصوير ،
ولنضرب المثل بوصف الحمامة الباكية ، فقد أكثر منه الشعراء ، فنجد
قول أبي محم الشيباني من قصيدة اقترحها عليه طاهر بن الحسين ،
وقد كبرت سنه ، وطالت غربته :

وأزقني بالرّى نوح حمامة فنُحت وذوالشجو الغريب يُنوحُ
على أنها ناحت ولم تذر دمة ونُحت وأسراب الدموع سُفوح

وناحت وفرخاها بحيث تراها
ونجد قول ابن الدُمينة

ألا يا حمامات اللوى عدن عودةً
فعدن فلما عدن كدن يمتنني
فلم تر عيني مثلهن بواكياً
ونجد قول ديك الجن

حمامٌ ورُقٌ في حمى ورَقٍ خضرٍ
تكلفن إسعاد الغريبة ان بكت
لها حرَقٌ لو أن خنساء أعولت
فقلت لنفسي ها هنا طلب الأسي
ونحن اذا تأملنا أبيات أبي محم وأبيات ابن الدُمينة وأبيات ديك
الجن لم نجد فيها صورة شعرية ، ويظهر الفرق واضحاً اذا قابلناها بقول
الطغرائي من قصيدة طويلة

أيكئة صدحت شجواً على فَنٍ
ناحت وما فقدت إلهاً ولا فجعت
طليقةً من إيسار الهم ناعمة
تشبهت بي في وجدي وفي طربي
ما في حشاها ولا في جفنها أثرٌ
ياربّة البانة الغناء تحضنها
ان كان نوحك اسعاداً لمقربٍ
فقارضيني اذا ما اعتادني طربٌ

فأشعلت ما خبا من نار أشجاني
فذكرتني أوطاري وأوطاني
أضحت تجدد وجد الموثق العاني
هيات ما نحن في الحالين سيان
من نار قلبي ولا من ماء أجفاني
خضراء تلتف أغصاناً بأغصان
ناءً عن الامل ممنوّ بهجراني
وجداً بوجد وسلواناً بسلوان

أولا فقصرَكَ حتى أستعين بمن يعنيه شأني ويأسو كَلَمَ أحزاني
 ما أنت مني ولا يعنيك ما أخذت مني الهموم ولا تدرين ما شاني
 كلي إلى الغيم إسعادي فإن له دمعاً كدمعي وإرنا ناكاً كإرنا ناني
 وهذه صورة شعرية بديعة تمثل حال المومنين الحزين ، وقد هاجته
 الحمامة الباكية ، وإنك لترى الشاعر يوازن بين حاله وبين حال تلك
 الايكية الساجدة موازنة دقيقة تروع القلب ، وتهيج الوجدان ، وانظر
 كيف يقول:

طليقة من إيسار الهم ناعمةً اصحّت تجدد وجد الموثق العاني
 وهذا غاية في وصف الحزن ، واليأس من السلوان ، فان وصف
 الحمامة بالتصنع في بثها وشجاها أدل على لوعة الشاعر وأساها ، ولا كذلك
 الاقتناع بحزن الحمام الشاديات ، فان فيه شيئاً من الراحة لأنس
 الحزين بالحزين

ولك أن تذكر أن هنا شيئاً من اختلاف الصورة : فان أبا محلم
 يأسى لغربته ، ويتفجع لبعده اطفاله . في حين أن الحمامة تبكي وقد جمع
 بينها وبين أفراخها غصن واحد ، فماذا تبغى وقد وقاها الله تبديد الشمل
 وفرقة الاحباب !

وابن الدمينية يراجع حمامات اللوى ، ويسألهن العودة ، ثم يذكر
 انه كاد يفصح عن أسرارهِ حين بكين بجانبه ، وان لم تذرف لهن عيون ،
 وديك الجن يردد معنى قريباً من معنى ابن الدمينية ، أما الطغرائي فقد
 أتى بفكرة طريفة ، وسلك مسلكاً يدل على عنايته بتحديد ما يقول
 وأريد بهذا الفصل الوجيز أن الفت نظر الناقد الى ما يجب عليه

من اختبار الصور الشعرية وادراك ما بينها من دقائق الاختلاف والائتلاف . فان الموازنة نوع من الوصف وبيان ما بين الصور من مختلف الفروق

البحث الحادي عشر

الصور الشعرية في القرآن

ولقد رأيت من رجال الأدب من يحسب الصورة الشعرية نوعاً من الاستعارة التمثيلية ، وفي تصحيح ذلك الخطأ نسوق هذا الحديث

— ١ —

الاستعارة التمثيلية هي ضرب من التشبيه يكون فيه المشبه والمشبه به هيئة منتزعة من عدة أمور متحققة أو متخيلة ، ومن هذه الاستعارة يتكون أكثر الأمثال السائرة ، فيكون لبعضها موارد حقيقية ، ولا أكثرها موارد خيالية

والأمثال كما قال المرحوم استاذنا المهدي أربعة ضروب :

الاول - ما له مورد حقيقى كمواعيد عُرُوب في قول كعب بن زهير كانت مواعيدُ عُرُوب لها مثلاً وما مواعيدها إلا الأباطيل
الثانى - الخيالى الممكن ، وهو ما نُسب الكلام والعمل فيه إلى عاقل كما جاء في أمثال لقمان ان صبياً كان يستحم في نهر ، ولم يكن يحسن السباحة ، فأشرف على الغرق ، فاستغاث برجل عابر في الطريق ، فأقبل عليه وجعل يلومه على نزوله الى النهر ، فقال الصبي «يا هذا ! خلّصني من الموت ثم لمني !»

الثالث — اخیالی المستحیل ، وهو ماجاء علی السنة الحیوان والجماد
للاعتبار به ، كما فعل نصر بن منیع ، وكان خارجاً علی المأمون ، فسیر الیه
جیشاً ظفر به ، فلما مثل بین یدی المأمون أمر بضرب عنقه ، فقال :
یا أمیر المؤمنین ! أسمع مثلاً خطر علی بالی ؟ فقال قل ، فانشأ یقول
زعموا بأن الصقر صادف مرة عصفور برّ ساقه التقدير
فتكلم العصفور تحت جناحه والصقر منقضّ علیه یطیر
انی لمثلک لا أتمم لقمة ولئن شویت فانی لحقیر
فتهاون الصقر المدلّ بصیده کرماً وأفلت ذلك العصفور

الرابع — اخیالی المختلط من الممكن والمستحیل ، وهو ما جمع بین
الناطق وغيره ، كحديث الحیة والأخوين ، فقد زعموا أن أخوين هبطا
بغنمهما وادیا فیہ حیة تحمیه ، وینما كان أحدهما یرعی غنمه إذ نهشته الحیة
فقتلته ، فقال أخوه : والله ما فی الحیة خیرٌ بعده ، ولا طلبن الحیة ! فلما
لقیها وهمّ بقتلها قالت : ألا ترى انی قتلته وندمت علی ما كان منی ! فهل
لك فی الصلح ، فأدعک فی هذا الوادی آمناً ، وأعطیک دية أخیک کل
یوم دیناراً ؟ فصالحها علی ذلك ، وحلفت له وحلف لها ، وما زالت تعطیه
حتى کثر ماله . فلما أحس الغنى قال : کیف ینفعنی هذا العیش ، وأنا
أرى قاتل أخی ! فعمد الی فأس فأحدّها ثم انتظر . فلما مرت به ضربها
فشجّبها وأخطأ مقتلها . فقطعت عنه الدینار وتوعدّته بخاف شرّها وقال :
هل لك أن تتعاهد علی المودة كما کنا ؟ فقالت : لا ! لأنک کما نظرت
الی قبر أخیک وجدت علی . وكما ذكرت الشجة الی فی رأسی وجدت
علیک ! وفی ذلك یقول النابغة الذبیانی من قصیده یعاتب بها بنی مرة

وانى لألقى من ذوى الضغن منهمو

وما أصبحت تشكو من الوجد ساهرة

كما لقيت ذات الصفا من حليفها	وما أنفكت الأمثال في الناس سائرة
فقلت له أدعوك للعقل وافيًا	ولا تغشيني منك بالظلم بادره
فوائقها بالله حين تراضيًا	فكانت تدين المال غبًا وظاهره
فلما توفى العقل إلا أقله	وجارت به نفس عن الحق جائرة
تذكر أنى يجعل الله فرصة	فيصبح ذا مال ويقتل واتره
فلما رأى أن ثمر الله ماله	وأثل موجوداً وسد مفارقة
أكب على فأس يحد غرابها	مذكرة متن المعاول بآرة
فقام لها من فوق حجر مشيد	ليقتلها أو تخطف الكف بادره
فلما وقاها الله ضربة فأسه	وللبر عين لا تغمض ناظره
فقال تعالى نجعل الله بيننا	على مالنا أو تنجزني في آخره
فقلت يمين الله أفعل اني	رأيتك نذاراً يمينك فاجره
أبي لي قبره لا يزال مقابلي	وضربة فأس فوق رأسي فاقره

— ٢ —

وفي القرآن أمثال كثيرة لها موارد خيالية ، من ذلك قوله تعالى « ووصينا الإنسان بوالديه إحساناً ، حملته أمه كرهاً ووضعته كرهاً ، وحمله وفصاله ثلاثون شهراً ، حتى إذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنة ، قال رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي ، وأن أعمل صالحاً ترضاه ، وأصلح لي في ذريتي ، إني تبنت إليك وإني من المسلمين ، أولئك الذين نتقبل عنهم أحسن ما عملوا وتتجاوز عن سيئاتهم

في أصحاب الجنة وعد الصدق الذي كانوا يوعدون ، والذي قال لو ائذيه
أف لكما أتعاداني أن أخرج وقد خلت القرون من قبلي ، وهما يستغيثان
الله ويلك آمن إن وعد الله حق فيقول ما هذا إلا أساطير الاولين ،
أولئك الذين حق عليهم القول في أمم قد خلت من قبلهم من الجن
والانس إنهم كانوا خاسرين » فان هذا تشبيه وتمثيل يراد به تصوير
حال الأبرار والفجار ، وما لهؤلاء من الخزي ، وما لأئلك من النعيم
وأصرح من هذا قوله تعالى « إنا عرضنا الأمانة على السموات
والارض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الانسان انه كان
ظلوماً جهولاً » فانه لم يحصل عرض ولا إباء ولا إشفاق ، وإنما المراد
تصوير التكليف وما فيها من المشقة ، وتصوير الانسان وما يغلب عليه
من الغرور والجهل بحقائق الاشياء

وكذلك قوله عز شأنه (قل أنتم لتكفرون بالذي خلق الارض
في يومين وتعملون له أنداداً . ذلك رب العالمين . وجعل فيها رواسي
من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام سواء للسائلين . ثم
استوى الى السماء وهي دخان فقال لها وللارض إئتيا طوعاً أو كرهاً
قالتا أتينا طائعين) فان الغرض تصوير القدرة الإلهية وما لها من
السلطان المطلق في الارض والسماء

وتظهر قيمة هذا التصوير إذا نظرنا في الآيات التي قصد بها
الترغيب والترهيب كقوله تبارك اسمه (ونفخ في الصور فصعق من في
السموات ومن في الارض إلا من شاء الله ثم نفخ فيه أخرى فاذا هم
قيام ينظرون . وأشرقت الارض بنور ربها ووُضع الكتاب وجي .

بالنبيين والشهداء وقُضيَ بينهم بالحق وهم لا يظلمون . ووفيت كل نفس ما عملت وهو أعلم بما يفعلون) فانك تراه يصور ما سيكون بصورة الواقع الخفيف ، ثم تراه يُتبع ذلك بقوله (وسيق الذين كفروا الى جهنم زمراً حتى اذا جاءوها فتحت ابوابها وقال لهم خزنتها ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم وينذرونكم لقاء يومكم هذا قالوا بلى ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين . قيل ادخلوا ابواب جهنم خالدين فيها فبنس مثوى المتكبرين)

هذا في الترهيب ، ثم انظر قوله في التشويق الى دار النعيم (وسيق الذين اتقوا ربهم الى الجنة زمراً حتى اذا جاءوها وفتحت ابوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين . وقالوا الحمد لله الذي صدقنا وعده وأورثنا الارض نتبوء من الجنة حيث نشاء فنعم أجر العاملين) قال صاحب الطراز : ومن التمثيل الرائق قوله تعالى (وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه) وقوله (وجعلنا من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً فأغشيناهم فهم لا يبصرون) فهم لا عراضهم عن الدين ، وإصرارهم على المخالفة لما جاء به الرسول ، وبلوغ الغاية في الصد والنكوص ، ممثلون بحال من جعل على قلبه كنان فهو لا يفقه ما يقال له ولا يرعوي لقبوله ، وبحال من ضرب بينه وبين مراده بسد من بين يديه ومن خلفه فهو لا يهتدي اليه ، ولا يمكنه الوصول الى بغيته بحال

والتمثيل تشبيه حالة بحالة كقوله تعالى (مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا) فان الشبه كما قال عبد القاهر الجرجاني منتزع من أحوال الحمار وهو أنه يحمل الاسفار التي هي أوعية العلوم

ومستودع ثمر العقول ، ثم لا يُحس بما فيها ولا يشعر بمضمونها ، ولا يفرق بينها وبين سائر الأعمال التي ليست من العلم في شيء ، ولا من الدلالة عليه بسبيل ، فليس له مما يحمل حظ سوى أنه يثقل عليه ويكد جبينه ، فهو كما ترى مقتضى أمور مجموعة ونتيجة لأشياء ألفت وقرن بعضها الى بعض - (راجع أسرار البلاغة)

ولعلماء البيان كلام كثير في الفرق بين الاستعارة والسكناية والتمثيل وإنما يعني أن يعرف القارئ أن هذا النوع من التعبير ليس من الصور الشعرية التي أسلفت عنها الحديث ، وإن كان في ذاته نوعاً من التصوير لما فيه من روعة الخيال

ويمكن أن يقال إن الاستعارة التمثيلية صورة للمعنى ، أما الصورة الشعرية فهي مثال للغرض ، فقله تعالى « والسماء مطوياتٌ بيمينه » تمثيل يراد به تقرير معنى خاص : هو قدرة الله ، أما تصوير الغرض بصورة شعرية فقله تعالى في آخر سورة المائدة

« وإذ قال الله : يا عيسى بن مريم ! أنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله ؟ قال : سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق ! إن كنت قلته فقد علمته ، تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك ، إنك أنت علام الغيوب ، ما قلت لهم إلا ما أمرتني به أن اعبدوا الله ربي وربكم ، وكنت عليهم شهيداً ما دمت فيهم ، فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم ، وأنت على كل شيء شهيد ، إن تعذبهم فإنهم عبادك ، وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم »

فانه لا شك في أن هذا تصوير للغرض ، لا للمعنى ، والمعنى جزء من الغرض ، فان هذا الحوار البديع الذي جرى بين رب العزة وبين عبده ورسوله عيسى عليه السلام يمثل غرضاً كلياً يشتمل على طائفة من المعاني الجزئية ، فتصوير المعنى الجزئي هو الاستعارة أو التمثيل ، وتصوير الغرض الكلي هو الصورة الشعرية التي يراد بها الوصول إلى أقصى ما يمكن الوصول اليه من التأثير الذي هو غاية البيان

— ٤ —

ومن الصور الشعرية قوله تعالى في تحديد موقف المسلمين أمام أعدائهم من المشركين

« وأذان من الله ورسوله إلى الناس يوم الحج الأكبر أن الله بريء من المشركين ورسوله ، فان تبتم فهو خير لكم ، وان توليتم فاعلموا أنكم غير معجزي الله ، وبشر الذين كفروا بعذاب أليم ، إلا الذين عاهدتكم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئاً ولم يظاهروا عليكم أحداً ، فاتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم إن الله يحب المتقين . فاذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذلهم واجسروهم واقعدوا لهم كل مرصد ، فان تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم ، ان الله غفور رحيم ، وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه ، ذلك بأنهم قوم لا يعلمون . كيف يكون المشركين عهد عند الله وعند رسوله إلا الذين عاهدتكم عند المسجد الحرام ، فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم ، إن الله يحب المتقين . كيف وإن يظهروا عليكم لا يرقبوا فيكم إلا ولا ذمة ، يرضونكم بأفواههم وتأبى قلوبهم ، وأكثرهم فاسقون .

اشتروا بآيات الله ثمناً قليلاً فصدّوا عن سبيله أنهم ساء ما كانوا يعملون، لا يرقبون في مؤمن إلاّ ولا ذمة وأولئك هم المعتدون، فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فإخوانكم في الدين ونفصل الآيات لقوم يعلمون وإن نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم وطعنوا في دينكم فقاتلوا أئمة الكفر إنهم لا أيمان لهم لعلهم ينتهون . ألا تقاتلون قوماً نكثوا أيمانهم وهموا بإخراج الرسول وهم بدءكم أول مرة ، أتخشونهم فالله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين . قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين . ويذهب غيظ قلوبهم ويتوب الله على من يشاء ، والله عليم حكيم . أم حسبكم أن تتركوا ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ولم يتخذوا من دون الله ولا رسوله ولا المؤمنين وليجة ، والله خير بما تعملون »

وأحب أن يذكر القارىء أني أتكلم عن القرآن من الوجهة الأدبية بغض النظر عما في مثل هذه الآيات من احكام القتال ، وما قد ينظر فيه الفقيه من وجوه النسخ وضروب التأويل ، وأقرر أن هذه الصورة تكاد تكون خطبة في الدعوة الى الجهاد

وتمتاز الصور الشعرية في القرآن بتثبيت المعنى وتأكيده حين يقتضي المقام ذلك ، والقرآن لا يرى غضاظة في التكرار حين يحتاج اليه ، بل يراه واجباً محتوماً الأداء ، وإنك لتجده في هذه الآيات يُبدى ، ويعيد في لعن المشركين وتحقيرهم ، والدعوة الى تعذيبهم ، وإذلالهم ، وتقتيلهم ، إذ كان ذلك من أغراضه الأساسية . ألا تراه يُوصي بالرفق حين يقول « وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم

أبلغه مأمنه ، ذلك بأنهم قوم لا يعلمون » ثم يصرخ صرخة الغضب
تتفجر من جوانبه الدماء ، فيقول « كيف يكون للمشركين عهد عند الله
وعند رسوله إلا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام فما استقاموا لكم
فاستقيموا لهم ان الله يحب المتقين . كيف وإن يظهروا عليكم لا يرقبوا
فيكم إلا ولا ذمة ، يرضونكم بأفواههم وتأبى قلوبهم ، وأكثرتهم فاسقون »
ثم لا يكفيه هذا بل يقول « اشتروا بآيات الله ثمناً قليلاً فصعدوا عن سبيله
إنهم ساء ما كانوا يعملون » ثم لا يكفيه هذا بل يقول « لا يرقبون في
مؤمن إلا ولا ذمة ، وأولئك هم المعتدون » ثم يعود فيقول « ألا
تقاتلون قوماً نكثوا أيمانهم وهموا باخراج الرسول وهم بدءوكم أول مرة
أتخشونهم فالله أحق أن تخشوه ان كنتم مؤمنين » ثم يثور فيقول
« قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم
مؤمنين . ويذهب غيظ قلوبهم ويتوب الله على من يشاء والله عليم حكيم »
وأود أن يذكر القارىء أن العهد الذي نزل فيه القرآن كان عهد
فتنة وعماية وضلال ، وكانت هذه الغضبة التي تفيض بها جوانب القرآن
غضبة طبيعية ، لا إثم فيها ولا عدوان ، أقول ذلك ليعرف القارىء السر
في أنني أجعل من القرآن صوراً شعرية ، وإن لم يكن النبي عليه السلام
من الشعراء ، فليس القرآن من الكتب التي يراد بها التشريع المحض ،
وإنما هو يذكر القوانين في بساطة وسهولة ، ثم يدعو الى تأييدها
وتنفيذها بالقوة والجبروت

ومن الصور الشعرية البديعة التي وردت في القرآن قوله عز شأنه
« واتل عليهم نبأ إبراهيم : اذ قال لأبيه وقومه ما تعبدون ؟ قالوا
نعبد أصناماً فنظّل لها أكفينا قال هل يسمعونكم اذ تدعون ، أو ينفعونكم
أو يضرون ؟ قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون ، قال أفأنتم ما كنتم
تعبدون أنتم وآباؤكم الاقدمون ، فانهم عدوا لي إلا رب العالمين ، الذي
خلقني فهو يهدين ، والذي هو يطعمني ويسقين ، واذا مرضت فهو يشفين
والذي يمتيني ثم يحيين ، والذي أطعم أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين ،
رب هب لي حكماً وألحقني بالصالحين ، وأجعل لي لسان صدق في
الآخرين ، وأجعلني من ورثة جنة النعيم ، واغفر لأبي انه كان من
الضالين ، ولا تحزني يوم يبعثون ، يوم لا ينفع مال ولا بنون ، إلا من
أتى الله بقلب سليم »

اتل هذا أيها القاري ، مرة وثانية وثالثة ، وحدثني أتجد أعذب من
هذا الحديث الممتع ، وهل تجد أخف منه على السمع ، وأحب منه الى
القلب . وأرفق منه بالنفس ، ألا ترى الحسن يجري في هذا الحديث كما
يجري السحر في الطرف الكحيل ، ويتغلغل الايمان في قلب قارئه كما
يتغلغل الحب في صدر الوالد يرفق به أبنه الوحيد ؟

ومن الصور الشعرية الرائعة قوله تبارك اسمه :
« كذبت عاد المرسلين : اذ قال لهم أخوهم هودم ألا تتقون ، إني
لكم رسول أمين ، فاتقوا الله واطيعون . وما أسألكم عليه من أجر

ان أجريَ الا على رب العالمين ، أتبنون بكل ريع آية تعبثون ، وتتخذون
مصانع لعلكم تخلدون ، واذا بطشتهم بطشتهم جبارين ، فاتقوا الله واطيعون ،
واتقوا الذي امدكم بما تعلمون : امدكم باعام وبنين ، وجنات وعيون ،
إني اخاف عليكم عذاب يوم عظيم ، قالوا سواء علينا أوعظت أم لم تكن
من الواعظين ، إن هذا إلا خلق الأولين ، وما نحن بمعتدين ، فكذبوه
فاهلكناهم ، ان في ذلك لآية ، وما كان أكثرهم مؤمنين ، وان ربك
لهو العزيز الرحيم »

*
* *

وانا استطيع ايراد المثبات من الصور الشعرية في القرآن ، لو سمح
الوقت ، ولكن هيهات ! فليكتف القاريء بذلك ، وليعلم ان في هذا
المنهج غناء اي غناء ، لمن يريد الموازنة بين الكتاب والخطباء ، فان
التأثير يرتكز على ما في الخطب والرسائل من الصور الشعرية التي تفعل
ما تفعل بالعقول والقلوب ، وكم في خطب علي ابن أبي طالب ورسائل
الجاحظ من الصور الفتانة ، التي تسكن اليها شوارد النفوس



البحث الثاني عشر

المعاني والأغراض

قد رأيت حين حدثناك عن الصور الشعرية في القرآن أننا فرقنا بين المعنى والغرض . والآن نعود الى إيضاح هذا الرأي ، الذي نرجو أن يكون له شيء من النفع في عالم البيان

- ١ -

كان النقد يرتكز على وحدة البيت ، في نقد الشعر ، وعلى وحدة الفقرة في نقد النثر ، بغض النظر عن وحدة الغرض الذي سيق من أجله الكلام ، وكانوا يقولون فيمن يندر له بيت : لو قال هذا وسكت لكان أشعر الناس !

ونحن في تعويلنا على « الصور الشعرية » التي تمثل الأغراض ، لا ننكر أهمية الألفاظ المختارة ، والأخيلة الرائعة ، التي تأتي في تضاعيف المنظوم والمنثور فتمثل المعاني اصدق تمثيل
أما اللفظ المختار فكقول كثير

بأبي وأمي أنت من مظلومة طبن العدو لها فغير حالها (١)
لو أن عزة خاصمت شمس الضحى في الحسن عند موفق لقضى لها
وسعى إليّ بصرم عزة نسوة جعل المليك خدودهن نعالها
وهذه أبيات عادية ، ولكن كلمة « موفق » في قوله

(١) طبن بمعنى فطن

لو أن عزة خاصمت شمس الضحى في الحسن عند موفق لقضى لها
كلمة دقيقة بارعة تمثل مراد الشاعر أصدق تمثيل، لأنه يريد أن يخيل
إليك أن عزة كالشمس في الحسن والإشراق، وأنها لو خاصمت الشمس
في الحسن لاشتبه الأمر على من يفصل في هذه الخصومة، وأنه لا بد
من التوفيق ليحكم بتفوق هذه المحبوبة على الشمس، ولا يحتاج الحكم
إلى التوفيق إلا حين يلتبس الحق ويتعذر الفصل، وحسب هذه الحسنة
أن تفتن الناظر، وأن تكون في نفس المنصف أولى من الشمس بالجمال
وأما الخيال الرائع فكقول النابغة الذبياني في وصف الليل

تطاول حتى قلت ليس بمنقض وليس الذي يرعى النجوم بأب
فقد صور النجوم بصورة الإبل تسرح وتمرح في أديم السماء،
وصور الصبح بالراعي الغائب الذي يخشى أن لا يثوب، وفي أوبته صرف
هذه النجوم

اذكر هذا ثم تعال ننظر أهذا هو الغرض الذي سيق من أجله
الحديث؟ كلا! فإن الغرض أوسع من ذلك، وغرض النابغة أن يشكو
إلى محبوبته هجوم الهم على صدره في ظلمة الليل، وقد أفصح عن هذا
الغرض في هذه الأبيات

كـلـيـنـي لـهـم يا أميمة ناصب وليل أقاسيه بطيء الكواكب
تطاول حتى قلت ليس بمنقض وليس الذي يرعى النجوم بأب
وصدر أراح الليل عازبهم تضاعف فيه الحزن من كل جانب
وهذه صورة شعرية لتمثيل الغرض الذي قصد إليه الشاعر في مطلع
قصيدته، فقد تحدث عن هم الممض الموضع، وليله الذي طال بطوله بثه

وشجاء ، وصدره الذي أراح الليل ما عذب من همه ، وهذا أيضاً خيال رائع : فقد صور الهموم بصورة الإبل تسرح نهاراً ثم تُراح ليلاً إلى الحظيرة ، وكذلك يشغل المرء عن همومه بالنهار ، فإذا انقطعت شواغله بالليل دبت الهموم إلى صدره فاحتلته من جديد

وهذا المعنى أروع من قول أمريء القيس

الا ايها الليل الطويل الا انجلِ بصبح وما الا صباح منك بأمثل
وإن قال العتيبي بغير ذلك في الحديث الذي ذكره صاحب زهر
الآداب (ص ١٦٦ ج ٣)

وفي مثل هذا الغرض الذي افصح عنه النابغة يقول حندج بن

حندج المري

في ليل صول تناهى العَرَضُ والطولُ	كأنما ليله بالليل موصولُ
لا فارق الصبح كفى ان ظفرت به	وان بدت غرة منه وتحجيل
لساهر طال في صول تَمَلَّمْهُ	كأنه حية بالسوط مقتولُ
متى أرى الصبح قد لاحت غايه	والليل قد مَزَّقَتْ عنه السرايلُ
ليلٌ تحير ما ينحط في جهة	كأنه فوق متن الارض مشكولُ
بنجومه ركّد ليست بزائلة	كأنما هنّ في الجو القناديلُ
ما أقدر الله أن يدني على شحط	من داره الحزن ممن داره صولُ
الله يطوى بساط الأرض بينهما	حتى يرى الربع منه وهو مأهول

وفي هذه القصيدة يظهر الفرق واضحاً بين المعنى والغرض ، ففي كل

بيت معنى خاص ، ومن مجموع هذه المعاني يتكون الغرض ، فليس هناك

ريب في ان قوله

لا فارق الصبح كفي إن ظفرت به وإن بدت غرة منه وتحجّل
فيه معنى جميل ، وخيال رائع ، ولكنه لا يمثل الغرض الذي قيلت
من أجله القصيدة ، وكذلك قوله :
ليلٌ تحيّر ما ينحطّ في جهة كأنه فوق متن الأرض مشكول
فيه خيال يخلّب العقول ، وأيّ خيال أروع من حيرة الليل ،
وتقييده فوق متن الأرض بشكّل ؛ ولكن هب الشاعر قال هذا
البيت مفرداً لا سابق له ولا لاحق ، فأى تأثير يكون له في النفس ،
وهو في ذلّة اليتيم !

وكذلك قول أشجع بن عمرو السلمي في رثاء محمد بن منصور بن زياد
أنمي فتى الجود إلى الجود ما مثل من أنمي بموجود
أنمي فتى مصّ الثرى بعده بقية الماء من العود
وانثلم المجد به ثلثة جانبها ليس بمسدود
فالآن تخشى عثرات الندى وصوله البخل على الجود
ففي كل بيت معنى جميل ، وفي كل بيت خيال رائع ، ولكن الصورة
لشعرية لا تتم إلا بضم هذه المعاني بعضها إلى بعض ، ومنها يتكون
الغرض ، وهو ذهاب المجد بفقد هذا الجواد

على أن الغرض قد يتشعب حين يوجد ما يقتضي ذلك ، فقد ذهب
الشكل برشد طريف ابن أبي وهب العبسي فقال يرثي أبنه بهذه الكلمات
لموجة التي أصبحت لذهوله كثيرة الأغراض
أرابع مهلاً بعض هذا وأجلى ففي اليأس ناهٍ والعزاء جميل

فان الذي تبكين قد حال دونه تراب وزوراء المقام دَحُولُ
 نحاه للحد زبرقانٌ وخالدٌ وفي الأرض للاقوام قبلك غولُ
 وأي فتى واروه نمت أقبلت أكفهو تحشو معاً وتهيل
 وظلت بي الأرض الفضاء كأنما تصعد بي أركانها وتجول
 وشدَّ الي الطرف من كان طرفه بهد عبيد الله وهو كليل
 لأن كان عبد الله خلي مكانه على حين شبي بالشباب بديل
 لقد بقيت مني قناة صليبة وإن مس جلدي نهكة وذبول
 وما حالة إلا ستصرف حالها إلى حالة أخرى وسوف تزول
 فقد تنقل الشاعر من معنى الى معنى . ومن غرض الى غرض ، تحت
 وطأة الحزن الذي مشى به من العزاء الى الجزع ، ومن الجزع الى العزاء ،
 فانك تراه يروض نفسه على الصبر حين يقول
 أرباع مهلا بعض هذا وأجملي في اليأس ناهٍ والعزاء جميل
 ثم تراه يغري بنفسه ثائرة الحزن حين يقول
 وشدَّ الي الطرف من كان طرفه بهد عبيد الله وهو كليل
 ثم يعود فيقول
 وما حالة الا ستصرف حالها الى حالة أخرى وسوف تزول
 وكذلك يضطرب المحزون فلا يستقر على حال

والنثر كالشعر في المعاني والأغراض ، وعندنا كتاب بديع الزمان
 الهمداني ، الى القاضي أبي القاسم علي بن أحمد في شكوى أبي بكر الحيري ،

وفيه طائفة من الصور الشعرية بقدر ما فيه من الاغراض ، وانظر قوله
في وصف العلم :

« والعلم اطال الله بقاء القاضي شيئا كما تعرفه بعيد المرام ، لا يصاد
بالسهام ، ولا يقسم بالأزلام ، ولا يرى في المنام ، ولا يضبط باللجام ،
ولا يورث عن الأعمام ، ولا يكتب للثام ، وزرع لا يزكو في كل ارض
حتى يصادف من الحرص ترى طيبا ، ومن التوفيق مطرا صيبا ، ومن
الطبع جوا صافيا ، ومن الجهد روحا دائما ، ومن الصبر سقيا نافعا ،
والعلم علق لا يباع ممن زاد ، وصيد لا يألف الا وغانا ، وشيء لا يدرك
الا بنزع الروح ، وغرض لا يصاب الا باقتراش المدر ، واستناد الحجز
ورد الضجر ، وركوب الخطر ، وادمان السهر ، واصطحاب السفر ،
وكثرة النظر ، واعمال الفكر ، ثم هو معتاص على من زكا ذرعه ، وكرم
أصله وفرعه ، ووعى بصره وسمعه ، وصفا ذهنه وطبعه ، فكيف يناله
من أنفق صباه على الفحشاء ، وشغل سلوته بالغنى وخلوته بالغناء ، وافرغ
جده على الكيسر وهزله على الكاس ؟ والعلم ثمر لا يصالح الا للغرس ، ولا
يفرس الا في النفس ، وصيد لا يقع الا في البذر ، ثم لا ينشب الا في
الصدر ، وطائر لا يخذعه الا قفص اللفظ ، ثم لا يعقله الا شرك الحفظ ،
وبحر لا يخوضه الملاح ، ولا تطيقه الألواح ، ولا تهيجه الرياح ، وجبل
لا يتسّم الا بخط الفكر ، وسما لا يصعد الا بمعراج الفهم ، ونجم لا يلمس
الا بيد المجد ، أيكفي ان يصبح المرء بين الزق والعود ، ويمسى بين
موجبات الحدود ، حتى يتم شبابه ، ويشيب اترابه ، ثم يلبس دينته ، ليخلع
دينينه ، ويسوى طيلسانه ، ليحرف يده واسانه ، ويقصر سبيله ، ليطيل

حباله، ويبدى شقاشقه، ليفطى مخارقه، ويبيض لحيته، ليسود صحيفته
ويظهر ورعه، ليخفي طمعه، ويفشي محرابه، ليملا جرابه، ويكثر دعاءه
ليحشو وعاءه، ويرجو ان يخرج من بين هذه الاحوال طالما، ويقعد
حاكماً !!! هذا اذا المجد كآله بقفزان !!!

فهذه طائفة من المعاني ترجع الى غرض واحد : هو أن العلم شيء
عزیز لا يناله بعد الجهد الا كرام النفوس^(١)

ويمكن للناقد ان يجد في بعض هذه المعاني شيئاً من الضعف، ولكنه
لن ينكر على الكاتب انه افصح عن غرضه وبلغ دعوته، بل وصل بها
الى قرار القلوب، واهمية الصور الشعرية كما اسلفنا القول ترجع الى تمكين
المعاني في النفس، والوصول الى التأثير الذي هو غاية البيان

وانظر قول بديع الزمان في وصف هذا القاضي ووصف قومه :
« وأقسم لو ان اليتيم وقع في انياب الأُسود، بل الحيات السُّود،
لكانت سلامته منهما أحسن من سلامته إذا وقع بين غيايات هذا
القاضي وأقاربه، وما ظنك بقوم يحملون الامانة على متونهم، ويأكلون
النار في بطونهم، حتى تغلظ قصراتهم من مال اليتامى، وتسمن أكفاهم
من مال الايامي، وما ظنك بدار عمارتها خراب الدُّور، وعطلة القدور،
وخلاء البيوت، من الكسوة والقوت؟ وما قولك في رجل يعادي الله
في الفلَس، ويبيع الدين بالثمن البخس، ومن حاكم يبرز في ظاهر اهل
السمت، وباطن اصحاب السبت، فعله الظلم البحت، واكله الحرام السحت
وما رأيك في سوس لا يقع الا في صُوف الايتام، وجراد لا يسقط الا

(١) وهذا لا ينافي ان غرض الكاتب هو التحريض على كبت عدوه الحيري

على الزرع الحرام، ولص لا ينقب الا خزانة الاوقاف، وكردى لا يُغير
الا على الضعاف، وذئب لا يفترس عباد الله الا بين الركوع والسجود،
ومحارب لا ينهب مال الله الا بين اليهود والشهود، وما زلت ابغض حال
القضاة طبعاً وجبلاً، حتى ابغضتهم ديناً وملة، والعنهم دُرْبة، حتى
لعنهم قُرْبة، بما شاهدت من هذا الحيرى وقاسيت، وعانيت من
خطبه وخبطه ما عانيت

وهذه صورة شعرية تمثل الظالمين من القضاة في جميع الأقطار،
وفي جميع العصور، لأن نزعات الانسانية واحدة، أو كأنها واحدة، في
الخير والشر، والوصف الصادق يعذب ويُستمتع في كل قطروفي كل جيل

-- ٤ --

ولك أن تتخطى النثر المحبّر الى الكلمات الماثورة التي جاءت بها
البديهة، لترى كيف تكون المعاني والأغراض

فمن ذلك ما ذكره الجاحظ عن تمني يزيد الرقاشي، وقد تمنى بمحضرة
قوم فقال: أتمنى كما تمنيتم؟ قالوا: تمنّة! قال « ليتنا لم نُخلق، وليتنا إذ
خلقنا لم نعص، وليتنا إذ عصينا لم نمت، وليتنا إذ متنا لم نبعث، وليتنا
إذ بعثنا لم نحاسب، وليتنا إذ حوسبنا لم نعتب، وليتنا إذ عذبنا لم نخلد »
وفي مثل هذا المعنى يقول الحجاج « ليت الله إذ خلقنا الآخرة
كفانا أمر الدنيا، فرفع عنا الهم بالما كل والمشرب والملبس والمنكح،
أوليته إذ اوقعنا في هذه الدار كفانا أمر الآخرة، فرفع عنا الاهتمام
بما ينجي من عذابه »

وفي هاتين الأُمْنيتين وصف دقيق لحيرة النفس الانسانية التي

ما زالت تسكد وتسكدح في استكناه أسرار الغيب ، ثم سَقَطَتْ صريعة
الإِعياء ، بعد مرارة الإِخفاق !

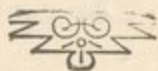
وأحب أن لا يغفل القارئ عن دقة الترتيب في هذه الصورة
الشعرية ، وأريد بالترتيب السير مع حركات النفس ، فقد ابتدأ الرقشي
بهذه الصرخة : « ليتنا لم نخلق ! » وهي أول نفثة يجود بها المكروب ، ثم
أخذ يحيل نظر الحيرة ، ويتمنى إذ خُلِقَ لو وقاه الله المعصية ، ويتمنى إذ
عصا لو نجا من الموت ، الى آخر ما قال

وقيل لبعض العرب : أي شيء تتمنى وأي شيء أحب اليك ،
فقال : لوائه منشور ، والجلوسُ على السرير ، والسلام عليك أيها الأمير !
وهذه صورة يبسم لها القارئ ، واسكنها على ذلك صورة صادقة
لكثير من النفوس . وأدق منها قول الآخر وقد قيل له : أجزعت
من الموت وقد صلي ركعتين فأطال ، وكان أمر بقتله ، فأجاب « إن
أجزع فقد أرى كفنًا منشورًا ، وسيفًا مشهورًا ، وقبرًا محفورًا » وهذه
صورة دقيقة لذلك الموقف الرهيب !

وقال أعرابي لسليمان بن عبد الملك : إني أكلمك يا أمير المؤمنين
بكلام فاحتمله ، فإن وراءه إن قبلته مات به . قال : هاته يا أعرابي فنحن
نجد بسعة الاحتمال على من لا نأمن غيبته ولا نرجو نصيحته ، وأنت
المأمون غيبًا ، الناصح جيبًا . قال : فاني سأطلق لساني بما خرست عنه
الأسن تأديةً لحق الله تعالى : انه قد أكتنفتك رجالٌ أساءوا الاختيار
لأنفسهم ، وابتاعوا دنياك بدينهم ، ورضاك بسخط ربهم ، وخافوك في الله
ولم يخافوا الله فيك ، فهم حربٌ للآخرة ، وسليمٌ للدنيا ، فلا تأمنهم على ما

اثبتك الله عليه ، فانهم لم يأثروا الامانة تضديعاً ، والامة كسفاً وخسفاً
وأنت مسئول عما أجتزموا وليسوا مسئولين عما اجتزمت ، فلا تصلح
دنياهم بفساد آخرتك ، فان أعظم الناس عند الله غبناً من باع آخرته بدنيا
غيره ؛ فقال سليمان : أما انت يا أعرابي فقد سللت لسانك وهو سيفك
قال : أجل يا أمير المؤمنين ، لك لا عليك ؛

وفي هذا الحوار كما يرى القارئ طائفة من المعاني يتكون منها غرض
واحد . وكذلك نستطيع حين نوازن بين الكتاب والخطباء والشعراء
أن نفرق بين المعاني والأغراض
وارجو أن أوفق في الابحاث الآتية الى مراعاة ما وضعته من
القواعد الاصول



البحث الثالث عشر

الحصري وشوقي

بيننا في الأبحاث الماضية ما يجب أن يتوفر في الناقد الموازن من الشروط، وبسطنا القول في نظرية الصور الشعرية التي نعتمد عليها في النقد بعد مراعاة ما عني به الأقدمون من اختيار الألفاظ والأساليب، والآن ندخل في بحث جديد لم يسلكه أحد من قبل: وهو الموازنة بين القصائد المشهورة التي جرت مجرى المعارضة والمماثلة، كما فعل ابن المعتز في معارضة الحسين بن الضحاك، وابن عبد ربه في معارضة مسلم بن الوليد، وابن درّاج في معارضة أبي نواس، والبارودي في معارضة أبي فراس. الخ ولهذا البحث أهمية كبيرة، لأنه سيمكننا من دراسة عرائس الشعر دراسة منظمة دقيقة، وسيرينا كيف تتصاول العقول، وكيف تتسابق القرائح، إذ كانت معارضة الشاعر للشاعر نوعاً من السباق في عالم البيان

ولنبداً بالموازنة بين دالية الحصري «يا ليل الصب متى غده» ودالية شوقي «مضناك جفاه مرقده» فان لهاتين القصيدتين أثرًا في أندية الأدب ومجالس الغناء، ومن الخير أن نميط اللثام عما فيهما من مواطن الحسن، ومظان الضعف، وأن نبين أي الشاعرين أبرع لفظًا، وأشرف معنيًا، وأسمى خيالًا

والحصري - يضم الحاء المهملة وسكون الصاد المهملة وبعدها راء

مهملة - هو أبو الحسن علي بن عبد الغني الفهري المقرئ، الضرير القيرواني وهو ابن خالة أبي اسحق الحصري صاحب كتاب زهر الآداب. وقد ذكر ابن بسام في الذخيرة أن أبا الحسن الحصري كان بحر براعة، ورأس صناعة، وزعيم جماعة، وأنه طرأ على الأندلس منتصف المائة الخامسة من الهجرة بعد خراب وطنه من القيروان، والآداب بأفق الأندلس يومئذ نافق السوق، معمور الطريق، فتهاداه ملوك الطوائف تهادي الرياض بالنسيم، وتنافسوا فيه تنافس الديار بالأانس المقيم

ولكنه فيما نقل لم يطمئن هناك، فاحتمل على مضض بين زمانه، وبعد قطره، ثم اشتملت عليه مدينة طنجة بعد خلع ملوك الطوائف وتوفي بها رحمه الله، سنة ٤٨٨ هجرية

وله قصيدة طويلة في قراءات نافع، وله ديوان شعر، (١) وهو القائل
أقول له وقد حياً بكأس لها من مسك رقتة ختام
أمن خديك تعصر؟ قال كلاً متى عصرت من الورد المدام
ويقول ابن بسام في وصفه «على أنه كان فيما بلغني ضيق العطن، مشهور اللسن، يتلفت إلى الهجاء، تلفت الظمان إلى الماء» وكنا نود لو حفظ لنا التاريخ صورة مضبوطة لأخلاق هذا الشاعر المجيد، فان كلمة ابن بسام لا تفيد غير الظن، وأين الظن من اليقين!

ويمكن الحكم بأنه كان خبيراً بأسرار اللغة العربية، فان التأليف في علم القراءات يدل على ذلك، ويمكن الحكم أيضاً بأنه كان بصيراً بشئون الحياة، فان في الاغتراب وصحبة الملوك عوناً على فهم دقائق الوجود

أما شوقي فشاعر معروف في مصر والشرق ، وله كلف بمعارضة
القدماء ، وهو كذلك خبير بأسرار اللغة العربية ، وبصير بشئون الحياة ،
وهو كالحصري افتتح قصيدته بالنسيب ، واختتمها بالمديح ، ولكنني سأقتصر
في الموازنة على صدر القصيدتين إذ كان النسيب هو السبب فيما يرجي
لهما من الخلود ، فإن كان لهذا العالم حظ من الخلود

(قصيدة الحصري)

يا ليل الصب متى غده	أقيام الساعة موعده
رقد السَّمار وأرقه	أسفٌ للبين يردده
فبكاه النجم ورق له	مما يرعاه ويرصده
كَلِفٌ بغزال ذي هَيْف	خوف الواشين يشردُه
نصبت عيناى له شركا	في النوم فعزَّ تصيده
وكفي عجباً أني قنصُ	للسَّرب سباني أغيده
صنم للفتنة منتصبُ	أهواه ولا أتعبده
صاحٍ والخمر جنى فيه	سكران اللحظ معرَّبه
ينضو من مقلته سيفاً	وكأنَّ نَعاساً يُغمده
فُريق دم العشاق به	والويل لمن يتقلده
كلا لا ذنب لمن قتلت	عيناه ولم تقتل يده

* *

يا من جحدت عيناه دمي	وعلى خديهِ تورَّده
خداك قد اعترفا بدمي	فعلام جفونك تجحده
انى لأعيذك من قتلي	وأظنك لا تتعمده

بالله هب المشتاق كرى فلعل خيالك يسعده
ماضرك لو داويت ضني صب يدنيك وتبعده
لم يبق هواك له رَمَقاً فليبك عليه عوده
وغداً يقضي أو بعد غد هل من نظر يزوده

* *

يا أهل الشوق لنا شرق بالدمع يفيض مورده
يهوى المشتاق لقاءكو وصروف الدهر تبعده
ما أحلى الوصل وأعذبه لولا الأيام تنكده
بالبين وبالهجران فيا لفؤادي كيف تجلده

(قصيدة شوق)

مضناك جفاه مرقده وبكاه ورحم عوده
حيران القلب معذبة مقروح الجفن مسهده
أودى حرقاً إلا رَمَقاً يبقيه عليك وتنفده
يستهوى الورق تأوّه ويذيب الصخر تنهده
ويناجي النجم ويتبعه ويقم الليل ويقعده
ويعلم كل مطوقة شجناً في الدوح ترده
كم مدّ لطيفك من شرك وتأدّب لا يتصيده
فعساك بغمض مسعفه ولعل خيالك مسعده
الحسن حلفت ييوسفه والسورة أنك مفرده
قد ودّ جمالك أو قبساً حوراء الخلد وأمرده
وتمنت كل مقطعة يدها لو تبعث تشهده

جحدت عيناك زكي دي	أكذلك خدك يحجده
قد عز شهودي اذرمنا	فأشرت لخدك اشهد
وهمت بجيدك أشركه	فاني واستكبر أصيد
وهزرت قوامك أعطفه	فنبأ وتمنع أملده
سبب لرضاك أمهده	ما بال الخصر يعقده
يبي في الحب وبينك ما	لا يقدر واش يفسده
ما بال العاذل يفتح لي	باب السلوان وأوصده
ويقول تكاد تجن به	فاقول وأوشك أعبد
مولاي وروحي في يده	قد ضيعها سامت يده
ناقوس القلب يدق له	وحنايا الا ضلع معبده
حسادى فيه أعذرهم	وأحق بعذرى حسده

*
* *

قسما بئنايا لؤلؤها	قسم الياقوت منضده
ورضاب يوعد كثره	مقتول العشق ومشهد
وبخال كاد يحج له	لو كان يقبل أسوده
وقوام يروى الغصن له	نسباً والرجح يفنده
وبخصر أوهن من جلدى	وعوادي الهجر تبدده
ماخنت هواك ولا خطرت	سلوى بالقلب تبرده

(الموازنة)

ولنذكر أولاً ما في القصيدتين من الأغراض ، وانا لنجد الحصرى
تكلّم عن طول الليل ، وطيف الخيال ، وخر الرضاب ، وسيف المقلّة ،

وجناية العين ، وحمرة الخد ، واستعطاف الحبيب ، وفناء المحب ، ونجد
 شوقي تكلم عن لوعة المضي ، وطيف الخيال ، وجمال المحبوب ، وجناية العين
 وحسن القد والجيد ، ودقة الخصر ، والصبر على الوشاة ، وتفدية الحبيب
 والرفق بالحساد ، والحرص على الحب ، والبراءة من السلوان ، فقصيدة
 شوقي اذاً أحفل بالاغراض

(مواطن الحسن)

ولنوازن بين المطالع . وانا لنجد الحصري يقول
 ياليل الصب متى غدهُ أقيام الساعة موعدهُ
 رقد السمار وأرقهُ أسفٌ للبين يردده
 فبكاه النجم ورق لهُ مما يرهاه ويرصده
 ونجد شوقي يقول

مضناك جفاه مرقدهُ وبكاه ورحم عؤده
 حيران القلب معذبةُ مقروح الجفن مسهده
 أودي حرقاً إلا رمقاً يبقيه عليك وتنفده
 يستهوي الورق تأوههُ ويذيب الصخر تهده
 ويناجي النجم ويتبعهُ ويُقيم الليل ويُقعه
 ويعلم كل مطوقة شجنًا في الدوح تردده

والمطلع في رأينا هو أول صورة شعرية ، لا أول بيت ، ومطلع
 شوقي أوفى وأروع من مطلع الحصري ، وخطاب الحبيب في قول شوقي

مضناك جفاه مرقده وبكاه ورحم عؤده

أرق من خطاب الليل في قول الحصري

يا ليل الصب متى غدهُ أقيام الساعة موعده
وقول شوقي في حيرة الحب وعذابه وفنائه
حيران القلب معذبةُ مقروح الجفن مسهده
أودى حرقا الارمقا يبقيه عليك وتنفده
يستهوى الورق تأوّهه ويذيب الصخر تنهده
هذه الايات أو في وأمتع من قول الحصري
رقد السمار وأرقه أسف للبين يردده
وقول شوقي

ويناجي النجم ويتبعه ويقيم الليل ويقعده
أقرب في صدره الى الواقع من قول الحصري
فبكاه النجم ورق له مما يرعاه ويرصده
وقول الحصري في تصيّد الطيف
نصبت عيناي له شركاً في النوم فعزّ تصيّد
وكفي عجباً اني قنصٌ للسرّ سباني اغيده
أبرع من قول شوقي

كم مد لطيفك من شرك وتادب لا يتصيّد
فعساك بغمض مسعفه ولعل خيالك مسعده

لان الحصري حدثنا عن حقيقة صادقة وهي تمنع الطيف : فليس
في طوق الحب ان يظفر بطيف حبيبته كلما مد له الاشراك

ولا يعجبني « تادب » شوقي في قوله

كم مد لطيفك من شرك وتادب لا يتصيّد

لان التأدب هنا ضعف ، ولو ذكر أنه يهاب أن يتصيد له لمدنا له
هيبة الحسن ، وإن الحسن لمهيب الجنب ؛

ويروني قول شوقي

مولاي وروحي في يده قد ضيعها سلّمت يده
ناقوس القلب يدق له وحنايا الأضلع معبده
حسادى فيه أعذرهم وأحق بعذرى حسّده

فان فيه صورة للوعة المحب يشفق بمحبوبه ويحنو عليه ، في ظلمه
وعُدوانه ، ولم يعرض الحصرى لمثل هذا المعنى البديع ، وأخلق بهذه
الايات ان تكون صلالةً للحسن ، ان قضي الله ان نصلى له ، كما يصلى
فريق للشمس عند الشروق ، والهوى كما قيل إله معبود ، وما أرفق
شوقي وأرقه حين يقول

قد ودّ جمالك أو قدساً حوراء الخلد وأمرده

فان الحسن لا يُعبد بأرق من هذا الوصف ، وهل العبادة الا وصف
المعبود بالتفرد والجلال

وقول الحصرى

صاح والخمر جنى فيه سكران اللحظ معرّبه
أروع وأبدع من قول شوقي
ورضاب يوعد كثره مقتول العشق ومشهده

وأرى من الظلم أن نوازن بين هذين البيتين ، فان بيت الحصرى
بيت فذّ نادر المثال ، وفيه وحده صورة شعريّة رائعة ، وما رددته الاقتنت

به فتنة جديدة ، وظهر لي منه معنى جديد ، كالوجه المشرق لانهاية حسنه ،
ولا حد لقدرته على تصريف القلوب

ولك أن تتأمل كلمة « جني » في قوله

صاحٍ والخمر جنى فيه سكران اللحظ معربد

وما هذه العربة يا صاح ؛ انها الأشرار التي يقيدك بها اللحظ ،
وأنت تنهل من ورده العذب الجميل !

وقول شوقي

جججت عيناك زكي دمي اكدلك خدك يجججده

قد عز شهودي اذ رميت فأشرت لخدك أشهدده

أرق من قول الحصري

يا من جججت عيناه دمي وعلى خديه توردده

خدك قد اعترفا بدمي فعلام جفونك تجججده

لأن الاستفهام في قول شوقي أعطى المعنى شيئاً من الحسن ، وزاده
تمكيناً في النفس ، على ما فيه من الابتذال

وقد أجاد الحصري في استمطاف الحبيب اذ يقول

لم يبق هواك له رمقاً فليبك عليه عودده

وغداً يقضي أو بعد غد هل من نظر يتزوده

ولا نجد هذه النعمة المحزنة في قصيدة شوقي ، وانها لتذكرنا بهذا

البيت الحزين

وأرى الأيام لا تدني الذي أرتجي منك وتدني أجلي

(مظان الضعف)

واني لأستثقل الصنم المنتصب في قول الحصري

صنم للفتنة منتصب أهواه ولا أتعبده

لان كلمة «الصنم» كلمة غير شعرية ، والعرب تستملح «الدمية»

في وصف المرأة الجميلة ، والدمية هي الصورة المنقشة من الرخام ، والجمع

دُمى ، قال بعض الاعراب

واني لأهدي بالأوانس كالدمى واني باطراف القنا للمعوب

واني على ما كان من عنجبيتي ولوثة أعرابيتي لأديب

وكذلك أستضعف قول الحصري

ما أحلى الوصل واعذبه لولا الأيام تنكده

بالبين وبالهجران فيا لفؤادي كيف تجلده

وأضعف منه قول شوقي

يني في الحب وبينك ما لا يقدر واش يفسده

ما بال العاذل يفتح لي باب السلوان وأوصده

ولا أدري ما قيمة التعجب في البيت الثاني من هذين البيتين ،

وهو لا يزيد شيئاً عن الصوت العامي المشهور «كيد العواذل كيدني ،

بس اسمع شوف» وكذلك لا قيمة لقوله

وبخصر أوهن من جلدي وعوادي الهجر تبدده

وهي مبالغة مردودة ، لأن الذي يستملح الخصر الدقيق لا يرضيه

أن يكون أوهن من صبر الحب تعدو عليه عوادي الصدود

وقد ظلم شوقي نفسه حين قال

وقوام يروي الغصن له نسباً والرحم يفنده
كما أساء الحصرى الى شعره إذ قال
اني لا عيذك من قتلي وأظنك لا تتعمده
فان هذا خيال فقهاء ، لا خيال شعراء !
(روعة الخيال)

وانه ليجميل بنا بعد هذا أن نوازن بين ما للحصري وشوقي من الخيال
الرائع ، وانا لنستجيد قول الحصري

ينضو من مقلته سيفاً وكان نعاساً يغمده
فيريق دم العشاق به والويل لمن يتقلده
كلا لا ذنب لمن قتلت عيناه ولم تقتل يده

وان البيت الاول لمن وثبات الخيال ، وفي البيت الثاني ضعف
والثالث مع ضعفه مستملح مقبول . ونستجيد كذلك قول شوقي

ناقوس القلب يدق له وحنايا الاضلع معبده

وللقارىء أن يلو منا في استجادة هذا البيت وان يذكر أن هذا
ايضاً خيال فقهاء ، لا خيال شعراء ، ولنا أن نذكر القارىء بأن المعابد
والنواقيس من الالفاظ التي استملحها العرب ، لكثرة ما تحدث عنها
الشعراء وهم يتغنون بعالم اللهو وملاعب الشباب ، ولهم في الاديار شعر
ممتع عنيت بتفصيله في غير هذا الحديث ^(١) وكذلك ظرف شوقي حين
تحدث عن المعبد والناقوس ، وكان خياله قريباً في الحسن من خيال
الحصري ، إذ توهم اللحظ سيفاً يكاد يغمده النعاس ، واني لمفتون بهذا الخيال

(١) تجد هذا البحث في كتاب « أثر الشعر في ربط الشعوب »

(البراعة في تناول المعاني)

وانا اترى شوقي أبرع من الحصري في تناول المعاني ، ومن السهل ان نعلل هذا ، فان الحصري لم يجر في قصيدته إلا على الفطرة ، وكان من ذلك أن رَضِيَ بعفو الخاطر ، أما شوقي فعارض من هم أنه يظفر بالسبق ، وكان من ذلك أن عَيَّ بترتيب المعاني ، واختيار الالفاظ ، وتنوع الاغراض . على ان هذا التكلف لم يعض بلا عيوب ، فانه لا معنى لقول شوقي
وبخال كاد يحج له لو كان يقبل أسوده
ولا رونق لقوله :

وتمنت كل مقطعة يدها لو تبعت تشهده

(الحكم)

وللقارىء - إن شاء الحكم - ان يرجع الى ما أسلفنا القول عنه من مواطن الحسن ، ومظان الضعف ، ومواقع الخيال ، ليرى أى الشاعرين أولى بالسبق ، وأيهما أرجح في الميزان ، وحسبه أن دللناه على ما في القصيدتين من المحاسن والعيوب ، فاننا لا نعني بالاشخاص ، وإنما يعيننا ان ندرس الشعر وان نقف على ما فيه من القوة والضعف ، والحسن والقبح ، وكذلك ندرس البيان ونحن نوازن بين الشعراء



البحث الرابع عشر

(البحتري وشوقي)

قلنا إن لشوقي كلفاً بمعارضة المتقدمين من الشعراء ، ووازننا بين داليتيه ودالية البحتري في الكلمة السابقة ، والآآن نوازن بينه وبين البحتري ، فقد عارض سينيته في وصف إيوان كسرى بقصيدة سينية وصف بها قصر الحمراء ، ولهايتين القصيدتين قيمة كبيرة ، ومن الخير أن نوازن بينهما موازنة دقيقة ، ليقف القاري على ما فيهما من براعة الوصف وحسن البيان

ولنذكر أولاً أن شوقي يتأثر البحتري منذ بعيد ، ويود لو ظفر شعره بتلك الديباجة البحترية ، التي ضربت بها الأمثال

ولننظر كيف يقول في خطاب « أم المحسنين »

النيل تجر مشرعين وعيلاً وتفجرت يملك خمسة أبحر
أحييت في فضل الملوك وعزهم مامات من أم الخليفة جعفر
إن الذي قد ردّها وأعادها في بردتيك أعاد في البحتري
وسنرى كيف يقول وهو يطوف بقصر الحمراء

وعظ البحتري إيوان كسرى وشفطني القصور من عبد شمس

(حياة البحتري)

وُلد أبو عبادة الوليد بن عبيد البحتري في سنة ٢٠٦ هـ بمنبج بين

حلب والفرات

ومنبج - بالفتح ثم السكون وباء موحدة مكسورة وجيم -
بلد قديم طيب الهواء ، ولد فيه جماعة من فرسان البلاغة : منهم
البُحْثري وأبو فراس ، ومن قبلهما عبد الملك بن صالح الذي قال له الرشيد
لما دخل منبج : أهذا منزلك ؟ قال : هو لك ، ولي بك يا أمير المؤمنين
قال : كيف بناؤه ، قال دون منازل أهلي ، وفوق منازل الناس ، قال :
وكيف ذلك ، وقدرك فوق أقدارهم ؟ قال ذلك خلُقُ أمير المؤمنين .
أتأتى به ، وأقفو أثره ، وأخذو حذوه ، قال : فكيف طيب منبج ؟
قال عذبة الماء ، طيبة الهواء ، قليلة الادواء ، قال : فكيف ليها ؟ قال :
سَحَرٌ كله !

وفي التشويق إلى منبج يقول ابراهيم بن المدبر وقد خلى بها شعبة
من فؤاده

وليلة عين المرج زار خياله فهبَّج لي شوقاً وجدد أحزاني
فأشرفت أعلى الدبر أنظر طامحاً بألمح آفاق وأنظر إنسان
لعل أرى آيات منبج رؤية

تسكن من وجدي وتكشف أشجاني

فقصر طرفي واستهلّ بعبرة وفديت من لو كان يدري لعداني
ومثله شوقي اليه مقابلي ونجاه عني بالضمير وناجاني
وانما ذكرنا لك هذه الكلمات عن منبج لتدرك بعض السر في رقة
البُحْثري وجمال شعره ، ، فان للبلد الطيب الهواء ، العذب الماء ، القليل
الأدواء ، أثراً كبيراً في تكوين نفس الشاعر ، والكاتب ، والخطيب ، ولأن
البُحْثري كان كثير الحنين إلى منبج ، وكان كثيراً ما يشيد بها في شعره ،

ولننظر كيف يقول في خطاب أبي جعفر محمد بن حميد الطوسي
 لا أنسين زمننا لديك مهذباً وظلال عيش كان عندك سرجسج
 في نعمة أوطنتها وسكنت في أفيائها فكانني في منبج
 (بداية حياته)

شَبَّ البَحْتَرى وترعرع في منبج ، وكان يمدح بها فيما يقولون أصحاب
 البصل والبادنجان !! قالوا « وكان منه ما كان في علوة التي شَبَّ بها في
 كثير من أشعاره ، وهي بنت زريقة الحلبية ، وزريقة أمها ، ويظهر
 من هذه الحكمة أن زريقة الحلبية أم علوة كان لها شأن في عالم الجمال ،
 وأن البَحْتَرى حين أُغرم بعلوة لم يرم فؤاده إلا بين يدي فتاة لعوب ،
 نشأت في مهد المراح ، وتقلبت فوق أعطاف الدلال . ولو أن العرب
 لم ينصرفوا عن التصوير خلفوا لنا دُمِيةً لعلوة ، وأرونا كيف كانت هذه
 الفتاة التي أضرمت نار الوجد في صدر الوليد ، وعلمته كيف تكون
 الشكوى ، وكيف يكون الانين ! وإن الشعر لمدين لهذه الإلهة التي
 أوحى إلى البَحْتَرى أن يقول بعد أن خلاها بالشام وسكن العراق

أعيدي في نظرة مُستثيب	توخي الأجر أو كره الأثاما
تري كبدًا محرقة وعينًا	مؤرقة وقلبًا مستهاما
ألام على هوائك وليس عدلاً	إذا احببت مثلك ان ألاما
لقد حرمت من وصلي حلالا	وقد حلت من هجري حراما
تناءت دار علوة بعد قرب	فهل ركب يبلغها السلاما
وجدد طيفها عتبًا علينا	فما يعتادنا إلا لماما
وربَّت ليلة قد بت أسقى	بعينها وكفها المداما

قطعنا الليل لئلا واعتناقاً وأفنيناه ضماً والتزاماً
 لئن أضحت محلتنا عراقاً مشرقة وحلتها شاماً
 فلم أحدث لها إلا وداداً ولم أزد بها إلا غراماً
 وهناك نفس ثانية كان لها على قلب البحترى سلطان . ومن الوقار
 أن لا نعرض لها في هذا الحديث ، وقد بسطنا عنها القول في كتاب
 « مدامع العشاق » ويكفي أن نذكر أنموذجاً من شعره في وصف تلك
 النفس ، وإياه ليقول

هل لي سبيل إلى الظهران من حلب ونشوة بين ذاك الورد والآس
 أمد كفي لأخذ الكاس من رشاً وحاجتي كلها في حامل الكاس
 بقرب أنفاسه أشفى الغليل اذا دنا فتربها من حر أنفاسي
 (اتصاله بأبي تمام)

ولعل أظهر حادث نقل البحترى من عهد إلى عهد ، هو اتصاله
 بأبي تمام أمير الشعراء في ذلك الحين ، فقد صار إليه وهو بمحضر وعرض
 عليه شعره ، وكان أبو تمام يجلس فلا يبقى شاعر إلا قصده ، وعرض عليه
 شعره ، فلما سمع شعر البحترى أقبل عليه ، وترك سائر الناس ، فلما تفرقوا
 قال له : أنت أشعر من أنشدني ، فكيف حالك ؟ فشكا إليه خلة ، فكتب
 إلى أهل معرة النعمان يشهد له بالحق ويوصيهم بإكرامه . قال البحترى
 « فأكرموني بكتابته . ووظفوا لي أربعة آلاف درهم ، فكانت أول
 مال أصبته » وقال البحترى : أنشدت أبا تمام شيئاً من شعري ، فأنشدني بيت
 أوس بن حجر

إذا مقررٌ منا ذرّى حدّ نابه تخمط فينا ناب آخر مقرر

وقال : نعيث إلى نفسي ! فقلت : أعيذك بالله من هذا ! فقال
ان عمري ليس يطول وقد نشأ لطيء مثلك . أما علمت أن خالد بن صفوان
المنقري رأى شبيب بن شبة وهو يتكلم ، وهو من رهطه ، فقال يا بني ،
نعي نفسي إلى إحسانك في كلامك ، لأننا أهل بيت ما نشأ فينا خطيب
إلا مات من قبله ، قال : فمات أبو تمام بعد سنة من هذا

وهذه بالطبع وسوسة من أبي تمام ، ولكنها شاهد على حسن رأيه
في شعر البحتري ، وقد كان أبو تمام من أعلم الناس بالشعر ، حتى قالوا إنه
في اختياره أبلغ منه في شعره

وقال البحتري : أنشدت أبا تمام شعراً لي في بعض بني حميد وصلت
به إلى مال له خطر ، فقال لي « أحسنت ، أنت أمير الشعراء بعدي »
فكان قوله أحب إلي من جميع ما حويته

ولا يفرتما أن نذكر وصية أبي تمام للبحتري ، فقد نوّه بها ابن رشيق ،
وساقها صاحب زهر الآداب ، وهي تدلنا على رأي أبي تمام في نظم الشعر
وذوقه في اختيار الأوقات ، وتدلنا كذلك على أسلوب البحتري في حياته
الأدبية ، فقد ساس نفسه بما أوصاه به أستاذه ، وفيها أيضاً نوع من
التربية نحب أن نسجله في هذا الحديث

قال البحتري : كنت في حدائقي أروم الشعر ، وكنت أرجع فيه
إلى طبعي ، ولم أكن أقف على تسهيل مأخذه ، ووجوه اقتضابه ، حتى
قصدت أبا تمام ، وانقطعت فيه إليه ، واتكلت في تعريفه عليه ، فكان
أول ما قال لي : يا أبا عبادة ، تخير الأوقات ، وأنت قليل الغموم ، صفر
من الغموم ، واعلم أن العادة جرت في الأوقات أن يقصد الإنسان

لتأليف شيء، أو حفظه في وقت السحر، وذلك أن النفس قد أخذت حظها من الراحة، وقسطها من النوم. وإن أردت التشبيب فاجعل اللفظ رقيقاً، والمعنى رقيقاً، وأكثر فيه من بيان الصبابة، وتوَجُّع الكآبة، وقلق الأَشواق، ولوعة الفراق، فإذا أخذت في مديح سيد ذي أياذ، فأشهر مناقبه، وأظهر مناسبه، وأبن معاملته، وشرف مقامه، ونصَّد المعاني، واحذر المجهول منها، وإياك أن تشين شعرك بالألفاظ الرديئة، ولتكن كأنك خياط يقطع الثياب على مقادير الأجساد، وإذا عارضك الضجر فأرح نفسك، ولا تعمل شعرك إلا وأنت فارغ القلب، واجعل شهوتك إلى الشعر الذريعة إلى حسن نظمه، فإن الشهوة نعم المعين، وجملة الحال أن تعتبر شعرك بما سلف من شعر الماضين، فما استحسن العلماء فاقصده، وما تركوه فاجتنبه، ترشد إن شاء الله

قال البحري: فأعملت نفسي فيما قال فوقفت على السياسة (١) ولهذه الوصية أغراض، يرجع بعضها إلى رياضة النفس، تأهباً للقريض، ويرجع بعضها إلى جوهر الفن، أما فيما يرجع إلى رياضة النفس فأبو تمام مسبوق بطائفة من الشعراء والخطباء، أوصوا باختيار الأوقات التي تصفو فيها النفس، ويلطف الحس، ويستيقظ الوجدان، ومنهم من دعا إلى الاستنجاد بالمياه الجارية، والرياض الحالية، والأما كن الحالية، إلا أن أبا تمام - مع أنه مسبوق - وفقَّ كل التوفيق حين قال «واجعل شهوتك إلى الشعر الذريعة إلى حسن نظمه، فإن الشهوة نعم المعين» وهذه كلمة فاصلة في حياة الفنانين على الإطلاق، سواء أكانوا شعراء أم

كتاباً أم مصورين أو مثالين ، لأن الاجادة في الفنون تتوقف على الشهوة ، وأكاد أحكم بأن الفنان لا يبدع ولا يجيد ، إلا إن كان له من فنه معبود جديد

وأما فيما يرجع الى جوهر الفن فأبو تمام قصر وصيته على العناية بالنسيب والمدح ، وسكت عن بقية الأغراض التي يهتم بها الشعراء ، فلم يتكلم عن الرثاء ، ولا الهجاء ، ولا الفخر ، ولا الوصف ، مع أن الوصف من أهم ما يعني به الشعراء ، ولعله اكتفى بهذه الكلمة العامة التي تنطبق على كل موضوع اذ قال « ولتكن كأنك خياط يقطع الثياب على مقادير الأجساد » وهي كلمة دقيقة على ما فيها من الابتذال

ولا يحسن القاري ، أن في إقبال البحري على ما أوصاه به استاذه دليلاً على أن شعر أبي تمام وشعر البحري من نمط واحد . . كلا ! فان أبا تمام في وصيته يمثل الاستاذ ، ولا يمثل الشاعر ، لأننا لو حاكمنا شعره الى وصيته لراعنا ما بين المنزعين من الفرق البعيد ، ولا سيما فيما يتعلق بالتشبيب فان أبا تمام لم يتغن بالحسن الا قليلاً ، وحظه من صدق اللوعة ضئيل

ومهما يكن من شيء — كما يعبر استاذنا الدكتور طه حسين —

فان في عناية البحري بوصية استاذه بياناً لاسلوبه في رياضة نفسه وتهذيب شعره ، فلننظر بهذه المناسبة ، كيف يروض شوقي نفسه ، وكيف يهذب شعره ، وكيف يتناول ما يقصد الى نظمه من شتى الأغراض ، فقد صحبنا شوقي وعاصرناه ، وهو بحمد الله يعيش معنا في مدينة واحدة ، وقد نقرأ عليه سينيته في قصر الحمراء قبل أن نضعها في الميزان ، واءنا لنزن بالقسطاس

المستقيم ! —

صاحب شوقي ، إن شئت ، فستراه قليل الحديث ، وستعجب كيف يكون هذا الصيت الذائع ، لهذا الرجل الصموت ، وقد تصفه بالتواضع كما وصفه كثير من المتأدين ، ولكنني وقد عرفت شوقي ، أحكم بأن هذا الرجل مجنون جديد من مجانين ليلي . وليلاه هي الشعر ، وهو بالشعر مجنون ، لا مغرم ولا مفتون ، فان الغرام والفتنة من أيسر ما يعرض لأرباب القلوب

يحدثك شوقي حديثاً عادياً لا روعة له ، ولكنه لا ينفك يدور بنظرته الحائرة ، وكأنه يبحث عن شيء في لفائف قلبه ، وحنايا نفسه : وأعماق ضميره - دخلت عليه وهو يتأهب لرثاء الصوفاني بك ، فأخذ يحدثني عن الجامعة المصرية ونظامها الجديد ، ثم بغتني بهذه الكلمة : « الصوفاني بك معضلة من المعضلات ، هو تمثال اخلاص ، ولكن هل له عقل الفلاسفة والزعماء » فعرفت أن الرجل في واد آخر غير الحديث عن الجامعة المصرية ، وأن قلبه ، ونفسه ، وحسه ، ووجدانه ، في شغل بما يعده لرثاء الصوفاني بك « تمثال الاخلاص » وعرفت أنه لا بد أن يقول شيئاً في تحديد تلك الشخصية ، ثم انتظرت يوم التأين فاذا هو يقول عن أثر الفقيد في المجالس النيابية

ما كان قساً ولا زياداً ولا بسحر البيان جاء

لكن إذا قام قال صدقاً وجانب الزور والرياء

وقد وصفه الاستاذ خليل مطران وصفاً صادقا حين قال « ينظم بين اصحابه فيكون معهم وليس معهم ، وينظم في المركبة ، وفي السكة الحديدية وفي المجتمع الرسمي ، وحين يشاء وحيث يشاء ، ولا يعرف جليسه أنه

ينظم الا إذا سمع منه باديء بدء غمغمة تشبه النغم الصادر من غور بعيد، ثم رأى ناظره وقد برقا وتواترت فيهما حركة المحجرين، ثم بصّر به وقد رفع يده إلى جبينه، وأمرها عليه إمراراً خفيفاً هنيهة بعد هنيهة — فاذا قوطع في خلال النظم انتقل إلى أي بحث يباحث فيه حاضر الذهن صافيه، جميل البادرة، كعادته في الحديث — ثم إذا استأنف ذلك المنظوم ولو بعد أيام طوال عاد إليه كأنه لم ينقطع عنه مستظهِراً ما تم منه حافظاً لبقية المعنى الذي يضمه، يكتب القصيدة بعد تمامها وربما تمت ونسيها شهراً، ثم ذكرها فكتبها في جلسة واحدة — يكلف أحياناً بمعارضة المتقدمين ولا يندر عليه أن يبرهن — لا يجهد فكره ولا يكده في معني أو مبنى، فأما المعنى فيجيبه على مرامه أو على أبعد من مرامه، ولا ينضب عنده لأنه يستخلصه من عقل فوار الذكاء، ومعارف جامعة إلى أفانين الآداب في لغات الأفرنج والأعراب، فلسفة الحقوق وحقائق التاريخ، وغرائب السير التي يحفظ منها غير يسير، إلى مشاركات علمية، وتنبيهات فنية، استقفاها من مطالعته في صنوف الكتب، واتخذها من ملحوظاته ومسموعاته في جولاته بين بلاد الشرق والغرب. وأما المبنى فله فيه أذواق متعددة بتعدد مقامات القول، ترى فيه من نسج البحتری، ومن صياغة أبي تمام، ومن وثبات المتنبي، ومن مفاجآت الشريف، ومن مسلسلات مهبّار، وفي المجموع تجد صفة عامة للنظم وهي أنه نظم شوقي، ذلك شعر العبقرية والتفوق »

وإذ ذكرنا عادة البحتری وشوقي في قرض الشعر، فلندكر كذلك أنهما يشتركان في العناية بالآداب العربية، فقد ترك البحتری كتاباً سماه

«معاني الشعر» وترك كتاباً آخر في الحماسة كالذي تركه أبو تمام، ولكنه
يمتاز عنه بسهولة اللغة وتنوع الموضوعات. وشوقي: وإن لم يصنف كتباً
في الآداب، يقرأ ويدرس بشراهة تفوق الوصف، ويتعقب الحركة
الأدبية بنشاط عجيب. ويختلفان في انشاد الشعر والإشادة به، فقد
كان البحري يحتفي بانشاد شعره، ويسلك في ذلك مسلك التلحين والتطريب
كان يطيل النظر في وجوه الحاضرين، ليرى مبلغ إعجابهم به، وإكبارهم
له، حتى نفر الناس منه، وعبت به أهل السفه وأصحاب المجون. أما
شوقي: فقلما يتحدث عن شعره، وقلما ينشده، وإنما يوكل بانشاده من
يتوسم فيه حسن الفهم، وحسن الأداء. وهذا المسلك، مع ما فيه من
دلائل الحياء، أو الشعم، غير مأمون العواقب، وكثيراً ما أذى الشاعر
وعاد عليه بالضرر البالغ، وعفا الله عن فلان وفلان؛
(وفاء البحري وشوقي)

ولقد كانت الشاعرية، ولا تزال، دالة على سمو النفس، وبقظة
الوجدان، والحوادث هي التي تميز عناصر النفوس، وقد وقع للبحري
وشوقي من كبار الحوادث ما ظهر معه ما لهما من قوة النفس، ومتانة
الخلق، وكرم العنصر، ولم يحن الوقت لتدوين ما وقع لشوقي؛ فلنكتف
بهذا التلميح، ولنذكر ما صير البحري مثلاً في الوفاء.

كان المتوكل - كما ذكر صاحب زهر الآداب - عقد لولده المنتصر
والمعز والمؤيد ولاية العهد، ثم تغير على المنتصر دون أخويه، وكان
يسميه المنتظر، ويقول له: أنت تتمنى موتي، وتنتظر وقتي؛ ويأمر الندماء
أن يعبثوا به، إلى أن أوغر صدره، وأقل صبره، فلما كانت ليلة الأربعاء،

لثلاث خلون من شوال سنة سبع وأربعين ومائتين ، كان المتوكل يشرب مع الفتح في قصره المعروف بالجعفري ، ومعه جماعة من الندماء والمغنين ، وكان المنتصر معهم ، فلما انصرف ثلاث ساعات من الليل ، قال لزرافة التركي : ألا تسمعي ساعة حتى أشكو اليك ما يمر بي ؟ قال بلى . وجعل يماطله ويطاوله ، وغلق بغي الشرابي الأبواب كلها إلا باب الماء ، ومنه دخل الذين قتلوا المتوكل ، وقد ضربوه ضربة قطع بها حبل عاتقه ، وتلقاه الفتح بنفسه فأكب عليه ، فقتلا جميعاً ، وبويع المنتصر من ساعته ، قال الحصري « وكانت مدة المنتصر في الخلافة مدة شيرويه بن كسرى حين قتل أباه ستة أشهر » — وللظالم الويل !

كانت هذه القتلة الشنيعة التي تردى بها خليفة من خلفاء المسلمين وكان هذا الخليفة ولي نعمة البحري ، وكان استبداد المنتصر اذ ذاك كافياً في ردعه عن رثاء مولاه ، ولكنه رثاه بقصيدة وصفها أبو العباس ثعلب بقوله « ما قيلت هاشمية أحسن منها ! وقد صرح فيها تصريح من أذهلت المصائب ، عن تخوف العواقب » وفيها يقول :

تغير حسن الجعفري وأنسه	وقوض بادي الجعفري وحاضره
تحمل عنه ساكنوه فجاءه	فأضت سواء دوره ومقابره
ولم أر مثل القصر اذ ريع سر به	واذ ذعرت أطلاؤه وجآذره
واذ صيح فيه بالرحيل فهتكت	على عجل أستاره وستاره
إذا نحن زرناه أجد لنا الأسي	وقد كان قبل اليوم يهيج زائره
فأين عميد الناس في كل نوبة	تنوب وناهي الدهر فيهم وأمره
تخفي له مقتاله تحت غرة	وأولى لمن يغتاله لو يجاهره

صريع تقاضاه السيوف حُشاشةً
 يجود بها والموتُ مُحرَّمٌ أظافره
 حرام عليّ الراح بعدك أو أرى
 دماً بدم يجري على الأرض مائره
 وهل يُرتجى أن يطالب الدم طالبٌ
 مدى الدهر والموتور بالدم واتره
 فلا مَلِيّ الباقي تراث الذي مضى
 ولا حملت ذاك الدعاء منابره
 ونظرة واحدة إلى ما كان يجري في تلك العصور من الظلم والاضطهاد
 تريك أن البحتري كان من أشجع الناس وأوفاهم بهذه القصيدة ، على أنه
 لم يقف عند هذا الحد ، بل كان يرتاح في كثير من شعره إلى ذكر
 المتوكل والفتح بن خاقان ، وانظر كيف يفيض شعره بالأسى وهو يقول
 لبعض من يمدحه :

تداركني الإحسان منك ونالني
 على فاقة ذاك الندى والتطوُّلُ
 ودافعت عني حين لا الفتح يُرتجى
 لدفع الأذى عني ولا المتوكل
 وما أوجع ما يقول من كلمة ثانية

مضى جعفر والفتح بين مؤسَّد
 وبين قتيل في الدماء مضرَّج
 أطلب أنصاراً على الدهر بعدما
 ثوى منهما في التراب أوسي وخزرجي
 وانظر كيف يقول وقد بان بعض من يهوى

عسى آيس من رجعة الوصل يوصلُ
 ودهرٌ تولى بالأحبة يُقبلُ
 أيا سكننا فأت الفراق بنفسه
 وحال التعادي دونه والتزِيلُ
 أتعجب لما لم يفعل جسمي الضنا
 ولم يخترم نفسي الحمام المعجل
 فقبلك بان الفتح عني مودعاً
 وفارقني شفعاً له المتوكل
 فما بلغ الدمع الذي كنت أرتجي
 ولا فعل الوجد الذي خلت يفعل
 وما كل نيران الجوى تقتل الحشا
 وما كل أدواء الصبابة تقتل

تلك هي نفس البحري ، الذي عذبتة علوة في بداية حياته ، وصهره
الحزن على المتوكل في أخريات أيامه ، وقد عرف انقارىء عنه شيئاً فيه
بعض الغناء ، وعرف كذلك ما بينه وبين شوقي من الاختلاف والائتلاف
ومن الواجب أن يعرف منهج هذين الشاعرين في بكاء الممالك ، والتفجع
لنكبات الشعوب ، قبل أن يرى كيف وصف البحري ايوان كسرى ،
وكيف وصف شوقي قصر الحمراء

البحث الخامس عشر

« بكاء الممالك عند البحري وشوقي »

كانت عواطف الشعراء عواطف فردية ، لا اجتماعية ، فكان
الشاعر يبكي وجده ونعيمه ، وهو يندب الرسوم ويتوجع للطلول ، ولم
يهتم العرب ببكاء الممالك ، والتفجع للشعوب ، إذ كانوا في بداية الحياة ،
وكان الرجل منهم قلما يُعنى بغير نفسه ، وأهله ، وذويه ، فكانوا في شغل
بأنفسهم عن بلايا الإنسانية ، التي تصرخ من حولهم وهم عنها غافلون
ثم جاء القرآن فسلك في الحديث عن الممالك البائدة ، مسلك التخوين
والترهيب ، فلم يعطف عليها بكلمة ، ولم يستر لها عورة ، لأن القرآن
لم يكن كتاب شعر ، يرمي إلى روعة الفن وجل الخيال ، وإنما كان
كتاب حكمة وعظة ، فكان من حقه أن يقول بحزم ورزانة « أولم
يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم ؟
كانوا هم أشد منهم قوة وآثارا في الأرض فأخذهم الله بذنوبهم ، وما كان
لهم من الله من واق ، ذلك بأنهم كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فكفروا

فأخذهم الله ، إنه قوى شديد العقاب « ولو لم يكن الزجر والردع من أغراض القرآن الأساسية ، لكان له شأن غير هذا الشأن ، وهو يتحدث عن فرعون وإبليس ، ومن اليهم من الجبابة والطغاة ، فقد جرى حديثه عنهم مجرى السماتة ، وكانوا ينبوع سحر لا ينضب ولا يفيض ، لو كان القرآن كتاب فن وكتاب خيال

على أن العرب لم يغفلوا عن الإشادة بما طوى الدهر لهم من حضارة ولم يفتهم التغني بما كان لأسلافهم من ضخامة المدينة ، وإن شابوا ذلك بالتحسر على ما درس من معالم اللهو ، وانتحزن لما عفا من ملاعب الشباب ، فمن ذلك قول الأسود بن يعفر النهشلي :

نام الخلي وما أحس رقادي	والهم محتضر لدى وسادي
من غير ما سقم وليسكن شفني	هم أراه قد أصاب فؤادي
ومن الحوادث لا أبالك اني	ضربت على الأرض بالأسداد
لا أهتدى فيها لموضع تلمة	بين العراق وبين أرض مراد
ولقد علمت سوى الذي نبأني	ان السبيل سبيل ذي الأعواد
إن المنية والختوف كلاهما	يوفي المخارم يرقبان سوادى
لن يرضيا مني وفاء رهينة	من دون نفسي طارفي وتلادى

ثم يقول في بكاء من ساد من الذاهبين :

ما ذا أوئل بعد آل محرق	تركوا منازلهم وبعد إباد
أهل الخورنق والسدير وبارق	والقصر ذي الشرفات من سنداد
أرض تخيرها لطيب مقيلا	كعب بن مامة وابن أم دؤاد
جرت الرياح على مكاف ديارهم	فكانما كانوا على ميعاد

ولقد غَنَوْا فيها بأنعم عيشة
نزلوا بأنقرة يسيل عليهمو
فإذا النعم وكل ما يلهمي به
ثم عاد الى بكاء شبابه فقال :

إما تريني قد بليت وغازني
وعصيت أصحاب الصباية والصبا
فلقد أروح على التجار رجلاً
ولقد لهوت وللشباب لداذة
من خمر ذى نطف أغنّ منطق
يسعى بها ذو تومتين مشمر
والبيض يرمين القلوب كأنها
ينطقن معروفاً وهنّ نواعم

ونحا هذا المنحى متم بنويرة في عينيته التي يقول فيها :

ولقد علمت ولا محالة أنى
أفنين عاداً ثم آل محرق
ولهن كان الحارثان كلاهما
لا بد من تلف مصيب فانتظر
وليأتين عليك يوم مرة
وكذلك نجد في خطب العرب وأشعارهم شذرات في التوجع لما
أقرض من الممالك والشعوب ، ولكنها لا تمثل الوقفات الفنية التي تشد

اليها الرحال ، كوقفة البحترى عند رسوم الايوان ، ووقفة شوقي عند
أطلال الحمراء.

(ايوان كسرى)

وقد يجمل أن نذكر أن ايوان كسرى ، الذي استلم البحترى أحجاره ،
وطاف بأركانه ، كان مضرب المثل عند الأعراب ، فقد قيل لأعرابي :
كيف تصنع بالبادية إذا انتصف النهار ، وانتعل كل شيء ظلّه ؟ فأجاب
وهل العيش إلا ذاك ؟ يمشي أحدنا ميلا فيرفض عرقا كأنه الجمان ،
ثم ينصب عصاه ، ويلقي عليها كساءه ، وتقبل الرياح من كل جانب فكأنه
في ايوان كسرى ! وقد حكى فيما نقل ياقوت أن المنصور لما أراد بناء
بغداد استشار خالد بن برمك في هدم الايوان وإدخال آتته في عمارة
بغداد ، فقال له : لا تفعل يا أمير المؤمنين ! فقال : أبيت إلا التعصب
للفرس ! فقال ما الأمر كما ظن أمير المؤمنين ، ولكنه أثر عظيم يدل
على أن ملة ودينا وقوما أذهبوا ملك بانيه ، لدين ومملك عظيم ، فلم
يصنع إلى رأيه وأمر بهدمه ، فوجد النفقة عليه أكثر من الفائدة بنقضه
قتركه. فقال خالد: الآن أرى يا أمير المؤمنين أن تهدمه ، لئلا يقال إنك
عجزت عن خراب ما عمره غيرك ، ومعلوم ما بين الخراب ، والعمارة !
وقد تكون هذه الحساية صحيحة وقد تكون خرافة تناقلها الناس ،
ولكنها على كل حال دليل على منزلة الايوان في صدور العرب لذلك العهد
أما قصر الحمراء الذي بكاه شوقي فهو من قصور الأندلس ، والأندلس
هي الفردوس المفقود ، الذي يبكيه المسلمون ، ولنتظر فسيحدثنا شوقي
عنه أصدق الحديث

(نفسية البحري)

وأريد بنفسية البحري ذلك الخاطر الذي استولى عليه حين هم بوصف
الايوان ، وقد رأيناه يذكر لذلك علتين : إحداها في بداية القصيدة ،
والثانية في النهاية ، أما الأولى فهي الهرب من الهموم ، ومن ظلم الاقارب ،
بالفرع إلى طول الايوان ، ينسى في أكنافها حزنه وبثه ، ويستودعها
أساه وشجاءه ، وذلك حيث يقول :

صُنْتُ نَفْسِي عَمَّا يَدْنُسُ نَفْسِي	وترفعت عن جدا كل جنس ^(١)
وَتَمَاسَكْتُ حَيْثُ زَعَزَعَنِي الدَّهْرُ	والتماساً منه لتعسي ونكسي
بُلُغْتُ مِنْ صُبَابَةِ الْعَيْشِ عِنْدِي	طففتها الأيام تطفيفَ بحس
وَبَعِيدٌ مَا بَيْنَ وَارِدِ رِفَةٍ	علل شربه ووارد خمس ^(٢)
وَكَأَنَّ الزَّمَانَ أَصْبَحَ مَحْمُومًا	لأهواه مع الأخس الأخر
وَاشْتَرَايَ الْعِرَاقَ خُطَّةَ غَبَنِ	بعد بيعي الشام بيعة وكس
لَا تَرُزْنِي مَزَاوِلًا لَاخْتِبَارِي	عند هذى البلوى فتنكر مسي ^(٣)
وَقَدِيمًا عَهْدَتِي ذَا هَنَاتٍ	آيات على الدينثا شمس
وَلَقَدْ رَابَنِي نُبُوَّ ابْنِ عَمِي	بعد لين من جانبيه وأنس
وَإِذَا مَا جُفِيتَ كُنْتَ حَرِيًّا	أن أرى غير مُصْبِح حيث أمسي

ثم انتقل إلى الموضوع مباشرة فقال :

حضرت رحلي الهموم فوجه — ت إلى أبيض المدائن عَنَسِي
أَتَسْلَى عَنْ الْحُظُوظِ وَأَسِي لِحُلٍّ مِنْ آلِ سَاسَانَ دَرَسِي
ذَكَرْتَنِيهِمُ الْخُطُوبُ التَّوَالِي وَلَقَدْ تَذَكَّرُ الْخُطُوبُ وَتُنْسِي

(١) الجيس : هو الدنيا الجيان (٢) الخمس : شر الاطماء (٣) لا ترزني : لا تمتحنني

وزاه في نهاية القصيدة يذكر أنه بكى الايوان وليست الدار داره
ولا الجنس جنسه ، لأن لأهله نعمى عند أهله ، ولأنهم أيدوا مملكتهم
وشدوا قواه ، بما أمدوهم به من الكتاب في أيام القتال ، ذلك حيث يقول
عُمِّرَتَ للسرور دهرًا وصارت للتعزى رباعهم والتأسي
فلها أن أعينها بدموع موقوفات على الصمابة حبس
ذاك عندي وليست الدار دارى باقتراب منها ولا الجنس جنسي
غير نعمى لأهلها عند أهلى غرسوا من ذكائها خير غرس
أيدوا مملكتنا وشدوا قواه بكماة تحت السنور خمس (١)
وأعانوا على كتاب أريا ط بطعن على النحور ودغس
وأراني من بعد أكلف بالاشرا ف طرا من كل سنخ وأس
وفي هذا البيت الأخير يذكر أنه يكلف بالاشراف من كل جنس ،
ويكي المجد الذاهب وإن تقطعت بينه وبين أهله الأسباب

(نفسية شوقي)

أما شوقي فقد حدثنا عن خاطره حين هم بوصف الحمراء ، فترك لنا
قطعة منشورة تصف لنا حسه ووجدانه وهو يطوف بذلك البيت . وقد
سلك شوقي هذا المسلك في مرة ، فانا نراه تقدم قصيدته في وصف رومة
برسالة بعث بها الى أستاذنا الجليل اسماعيل بك رأفت ، ونجده فعل مثل
ذلك حين قدم للاستاذ مرجليوث قصيدته في وصف النيل . وإلى القاريء
كلته عن رحلته إلى وطن ابن خفاجة وابن زيدون

« لما وضعت الحرب الشؤمي أوزارها ، وفضحها الله بين خلقه

وهتك إزارها ، ورم لهم ربوع السلم وجدد مزارها ، أصبحت وإذا
العوادي مقصرة ، والدواعي غير مقصرة ، وإذا الشوق الى الاندلس
أغلب ، والنفس بحق زيارته أطلب ، فقصدته من برشلونة ، وبينهما
مسيرة يومين بالقطار المجد ، والبخار المشتد ، أو بالسفن الكبرى
الخارجة من المحيط ، الطاوية القديم نحو الجديد من هذا البسيط ، فبلغت
النفس بمرآة الأرب ، وكملت العين في ثراه بآثار العرب ، وانها لشتى
المواقع ، متفرقة المطالع ، في ذلك الفلك الجامع ، يسرى زائرهما من حرم
الى حرم ، كمن يمسي بالسكر نك ويصبح بالهرم ، فلا تقارب غير العتق
والكرم ، طليطة تطل على جسرهما البالي ، واشبيلية تشبل على قصرها
الخالي ، وقرطبة منتبذة ناحية بالبيعة الغراء ، وغرناطة بعيدة مزار الحمراء ،
وكان البحترى رحمه الله رفيقي في هذا النرحال ، وسميري في الرحال ،
والأحوال تصلح على الرجال ، كل رجل لحال ، فإنه أبلغ من جلتي الاثر
وحياً الحجر ، ونشر الخبر ، وحشر العبر ، ومن قام في مأتم على الدول
الكبر ، والملوك البهايل الفرر ، عطف على الجعفري حين تحمل عنه
الملا ، وعطل من الحلي ، ووكل بعد المتوكل للبلي ، فرفع قواعده في السير ،
وبني ركنه في الخبر ، وجمع معالنه في الفكر ، حتى عاد كقصور الخلد
امتلات منها البصيرة وان خلا البصر ، وتكفل بعد ذلك لكسرى
بايوانه ، حتى زال عن الأرض الى ديوانه . وسينيته المشهورة في وصفه ،
ليست دونة وهو تحت كسرى في رصه ووصفه ، وهي تريك حسن قيام
الشعر على الآثار ، وكيف تتجدد الديار في بيوته بعد الاندثار . قال
صاحب الفيح القسي في الفتح القدسي ، بعد كلام « فانظروا الى ايوان

كسرى وسينية البحتری في وصفه ، تجدوا الايوان قد خرت شعفاته ،
وعفرت شرفاته ، وتجدوا سينية البحتری قد بقي بها كسرى في ديوانه ،
أضعاف ما بقي شخصه في ايوانه » ومذه السينية هي التي يقول في مطامها :

صنت نفسي عما يدنس نفسي وترفعت عن جدا كل جبس
والتي اتفقوا على أن البديع الفرد من أبياتها قوله :
والمنايا موائل وأنوشر

وان يزجي الصفوف تحت الدرفس (١)

فكنت كلما وقفت بحجر ، أو طفت بأثر ، تمثلت بأبياتها ، واسترحت
من موائل العبر إلى آياتها ، وأنشدت غيا بيني وبين نفسي
وعظ البحتری إيوان كسرى وشفقتني القصور من عبد شمس
ثم جعلت أروض القول على هذا الروي ، وأعاجله على هذا الوزن ،
حتى نظمت هذه القافية المهلهلة ، وأتممت هذه الكلمة الرئيسية ، وأنا
أعرضها على القراء ، راجياً أن يلحظوها بعين الرضاء ، ويسحبوا على عيوبها
ذيل الإغضاء »

وهذه الكلمة تمثل نثر شوقي ، فهو يسجع ولا يكاد يُبين ، غير أنه
قد يوفق إلى تشابهه مبتكرة تسير مسير الأمثال ، كقوله في وصف آثار
العرب في بلاد الأسبان « يسري زائرها من حرم إلى حرم ، كمن يمشي
بالكرنك ويصبح بالهرم »

وتلك والله عبادة صريحة لآثار الفراعنة على ضفاف النيل
وهي كذلك تمثل رأيه في شعر البحتری : فهو عنده « أبلغ من جلي

(١) الدرفس : العلم وهي كلمة فارسية

الأثر ، وحيا الحجر ، ونشر الخبر ، وحشر العبر ، وتصور لنا تلك الكلمة
ما كان يحول في نفس شوقي ، وكيف كان روح البحري يطيف به وهو
يطوف بالجرء

ولا ندري من هم الذين يذكر شوقي أنهم اتفقوا على أن البديع الفرد
من قصيدة البحري قوله

والمنايا موائل وأنوشر

وان يزجي الصفوف تحت الدرفس

وكننا نحب لو تنبه لقوله في وصف الإيوان

ليس يُدرى أصنع إانس لجن سكنوه أم صنع جن لا إانس
وقوله في بكائه

لو تراه علمت أن الليالي جعلت فيه مأتماً بعد عرس

ولشوقي رأيه ، فقد يختلف النقد أحياناً باختلاف الأذواق



البحث السادس عشر

« بين البحري وشوقي »

قد رأيت في الحكمة الماضية أن البحري ابتداءً سينيته بالتبرم بالعيش
وشكوى الزمان ، والتذكر لظلم الأقرين ، وكان ذلك لأن نزعته لم
تكن اجتماعية ، وإنما كانت فردية ، أما شوقي فقد ابتداءً سينيته بقطعة
وجدانية ، تفيض بالحنين إلى مصر ، وتزخر بالشوق إلى النيل ، وهو كما
يتكلم عن نفسه ، ويحدث الناس عن شجونه ، ولكنه في الواقع يتوجع
لما يعاني وطنه من وطأة الظلم ، ويتفجع لما تقاسي بلاده من قسوة
الاضطهاد ، وأنه ليبيكي ملاعب شبابه ، وعهود صباه ، حين يقول في
مطلع هذه السينية

اختلاف النهار والليل يُنسي	فاذكرا لي الصبا وأيام أنسي
وصيفا لي ملاوة في شباب	صُورت من تصورات ومس
عصفت كالصبا للعوب ومرّت	سنة حلوة ولذة خلّس

ثم يأخذ في الحديث عن مصر فيقول:

وملا مصر هل سلا القلب عنها أو أسا جرحه الزمان المؤسي
كلما مرت الليالي عليه رق والعهد في الليالي تقسي
مستطاري إذا البواخر رنت أول الليل أو عوت بعد جرس
ولا أحب أن أنتقل إلى خطاب شوقي للباخرة قبل أن أنبه القاري ،
إلى روعة الحسن في قوله

وسلا مصر هل سلا القلب عنها أو أسا جرحه الزمان المؤسي
فقد جعل حبه لبلاده أعز من أن تنال منه الليالي ، وجعل جرحه
في هوى مصر أعضل من أن يطب له الزمان . وانظر كيف وصف
قلبه حين قال :

كلما مرت الليالي عليه رق والعهد في الليالي تقسي
مستطاراً اذا البواخر رنت أول الليل أو عوت بعد جرس
وهو هنالم يذكر أن قلبه كان يحقق كلما أومض البرق ، أو هب
النسيم ، كما كان يتحدث الاغراب ، وانما يصف ما يحسه الغريب على
شواطئ المحيط وأين وميض البرق ، وهبوب الريح ، من أصوات
البواخر في غسق الليل ؟ ! ثم قال :

يا ابنة اليم ما أبوك بخيل ما له مولعاً بمنع وجنس
أحرام على بلبله الدو ح حلال للطير من كل جنس
كل دار أحق بالأهل الا في خبيث من المذاهب رجس
والقارىء يتلقى هذه الايات الآن بشيء من الطمأنينة ، أما الذين
قرأوها يوم قالمها شوقي فلم فيها رأي ، ومن كان في ريب من هذا
فليذكر الاحكام العرفية ، لا قدر الله لها رجعة ، ولا كتب لها أوبة ،
فقد كنا تنغى بقول شوقي

أحرام على بلبله الدو ح حلال للطير من كل جنس
ثم تتمثل مصر في صورة الشجرة الوريقة ، نُفِّرَتْ عنها البلابل
المغردة ، ثم صارت مأوى للبوم ، ومقيلاً للغربان . وكذلك كانت مصر
في ذلك الحين ، فكان شهيد الحرية محمد بك فريد ، يرسل الاماني عساها

تقبل ثرى مصر ، وتنهل من سلسبيل النيل ، ثم لا تجاب له طلبه ، ولا
يدنو منه مأمول ، في حين أن بلاد الفراغة كانت مفتحة الابواب لكل
أثيم القلب ، وقاح الوجه ، خبيث اللسان !! وسيظل قول شوقي

أحرام على بلبله الدو ح حلال للطير من كل جنس
سيظل هذا البيت مشاراً للشجي والاسى ، حتى تغدو تلك الشجرة
ذات الظلال والافنان ، وهي للبلابل مأوى وللطواويس مقيل ، أما قوله
كل دار أحق بالاهل الا في خبيث من المذاهب رجس
فهو رمية مسددة في صدر الظلم ، ونحر الاستبداد ، وسيظل غصنة
يشجى بها بعض الخلق - ثم قال في خطاب الباخرة

نفسى مِرْجل وقلبي شِراع بهما في الدموع سيري وأرسي
واجعلي وجهك «الفنار» ومجرا ليد «الثغر» يزرمل ومكس
وطني لو شُغلت بالخلد عنه نازعني اليه في الخلد نفسي
وهفا بالفؤاد في سلسبيل ظمأ للسواد من عين شمس
شهد الله لم يغب عن جفوني شخصه ساعة ولم يخل حسى
يصبح الفكر والمسلة ناديه وبالسرحة الزكية يمسي
وأى نفس يمثها شوقي في هذا الشعر البديع ، انه والله يمثل النفس
المصرية ، وحسبى ان أقول النفس المصرية ، وهل في الدنيا - ولولا التقي
لأضفت اليها الآخرة - وطن خليق بان يعذب في سبيله أبناؤه مثل
وادي النيل ؟

ان الذي يعيش في مصر ، وله ذوق شوقي واحساسه ، ليس بكثير
عليه ان يقول

وطني لو شغلت بالخلد عنه نازعتني اليه في الخلد نفسي
وهفا بالفؤاد في سلسبيل ظمأً للسواد من عين شمس
شهد الله لم يغب عن جفوني شخصه ساعة ولم يخل حسني
ولقد كانت مصر ، ولا تزال ، باباً من الفتنة لكل من يمسي وله فيها
رأي مطاع ، وبفضلها يقول فرعون « أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار
تجري من تحتي أفلا تبصرون » ولقد يذكرون أن المأمون قال لجنوده
وهو يشاهد الأهرام « أبهذه كفر فرعون بربه ! » فقال له أحد وزرائه
يا امير المؤمنين ان الله يقول « ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما
كانوا يعرشون » فاذا كانت هذه بقايا ما دمر الله ففرعون العذر ان غلب
عليه الضلال

وطغيان ملوك مصر دليل على ما تورث أهلها من العزة ، وتفرس
فيهم من الجبروت ، كالسيف الصقيل يحمل صاحبه على الفتك ، ويحبب
اليه العدوان ، وسبحان من لو شاء لرزقنا قسطاً من أسباب الفتنة في
هذه البلاد

ثم يقول شوقي وهو يمثل الجزيرة والنيل :

وكأنني أرى الجزيرة أيكاً نعمت طيره بأرخم جرس
هي بلقيس في الخائل صرخ من عباب وصاحب غير نكس
حسبها أن تكون للنيل عرساً قلبها لم يحزن يوماً بعرس
لبست بالأصيل حلة وشي بين صنعاء في الثياب وقس^(١)
قدّها النيل فاستحت فتواتر منه بالجر بين عري ولبس

(١) قس : بالفتح موضع بين العريش والفرم من أرض مصر تنسب اليه الثياب القسية

وأرى النبل كالعقيق بوادي^١ه وان كان كوثر المتحسي
ابن ماء السماء ذو الموكب الفخ^٢م الذي يحسر العيون ويخسي
لاترى في ركابه غير مثن^٣ يجميل أو شاكر فضل غرس
وهذا خيال وادع جميل ، ولكن شوقي لم يصبر عليه ، بل عاد الى

هجيراه من النوح على مجد خوفو ورمسيس وأخذ يقول

وأرى الجيزة الحزينة ثكلى لم تفق بعد من مناحة رمسي^(١)

اكثرت ضجة السواقى عليه وسؤال اليراع عنه بهمس

وقيام النخيل صفرت شعراً وتجردن غير طوق وسلس^(٢)

وكان الاهرام ميزان فرعو ن بيوم على الجبار نحس

أو قناطره تأنق فيها ألف جاب وألف صاحب مكس

روعة في الضحى ملاعب جن حين يغشى الدجى حماها ويغشى

وكذلك يحسب شوقي ، وهو يندب مجد الفراعنة ، أن مافي الطبيعة

من ماء ونبات وجماد يبكى معه ذلك الملك الذى بطش به القدر وعدا

عليه القضاء . والشاعر حين يرضى بحسب الكون يبتسم لا بتسامه ،

وحين يغضب يحسب الكون يكتئب لا كتئابه ، ولعل هذه السذاجة

هي أظرف مافي الشعراء ، إذ كانت سمة من سمات الطفولة البريئة ، ولم

في الطفولة من معان تسكن اليها شوارد النفوس

ثم انتقل شوقي الى الحديث عن أبي الهول فقال :

ورهبين الرمال أفتس الا أنه صنع جنة غير فطس

(١) يريد رمسيس

(٢) السلس بالفتح الحيط ينظم فيه الخرز الايض ، او هو القرط

تتجلى حقيقة الناس فيه سبع الخلق في أسارى إنسي
 لعب الدهر في ثراه صبيهاً والليالي كواعباً غير عُنس^(١)
 رَكبت صيِّد المقادير عيْني لنقد ومخليبه لفرس
 فأصابته به الممالك كسرى وهرقلاً والعبقري الفرنسي

وهذا أيضاً خيال شعراء ، فهو يتوهم أن المقادير ركبت عيني أبي الهول
 لنقد الحوادث ، وأعدت مخليبه لاقتراس الطغاة . ولكن هيهات لما يظن
 هيهات ، والويل لامة تنتظر في خمود ، حتى يثار لها قعيد الصحراء !

على أن من الحق أن نبين أن شوقي لم يسق هذه الخرافة ، وهو
 يحسبها حقيقة ، إنما هو الفن يقضى على صاحبه باستغلال موارد الخيال ،
 وأبو الهول — رضي الله عنه — ان كان ولياً وجل جلاله ان كان
 إلهاً — معبود قديم طالما قدمت له القرابين ، ولا يزال المصريون يقيمون
 بما كان يقيم به آبائهم من قبل ، ويتشاءمون مما كانوا يتشاءمون منه ،
 كما لا يزال العرب يحسبون حساب الساح والبارح ، أسوة بما كان يفعل
 آبائهم الأقدمون ، ولولا اتقاء الفتنة لذكرت نماذج من أساطير الأولين
 ترينا كيف كان « هداة الأمم » يثيرون ما ركذ فيها من العواطف بالاشادة
 بما عرف لهم من المعبودات ، وعلى هذا المنهج جرى شوقي فسمح بحمد
 أبي الهول في جملة من قصائده الخالدة ، والشاعر كالخطيب لاتهمه العقول
 إذا نلفر بالقلوب

(١) عمى : جمع عانس وهي الفتاة يطول مكثها في دار أبيها بعد ادراكها حتى
 تخرج من عداها لا بكار

ثم عاد شوقي إلى قلبه ، وقد غمره الحزن ، فاخذ يناجيه بهذا التجميع
الحزين ، وانظر كيف يقول

يا فؤادي ! لكل أمر قراره	فيه يبدو وينجلي بعد لبس
عقلت لجة الامور عقولا	كانت الحوت طول سبّح وغس ^(١)
غرقت حيث لا يصاح بطاف	أو غريق ولا يصاح لحس
فلك يكسف الشموس نهارة	ويسوم البدور ليلة وكس
ومواقيت الامور اذا ما	بلغتها الامور صارت لعكس
دول كالرجال مرتهنات	بقيام من الجدود وتبس
وليال عن كل ذات سوار	لظمت كل رب روم وفرس
سددت بالهلل قوسا وسلت	خنجرًا ينفذان من كل ترس
حكمت في القرون خوفو ودارا	وعفت واثلا وألوت بعبس
أين مروان في المشارق عرش	أموي وفي المغرب كرسى

— وقفة قصيرة —

لاحظنا ان شوقي تحدث عن نفسه قليلا في بداية القصيدة ، ثم
اندفع في الحديث عن شوقه الى مصر ، وتفجعه لما تقاسى من عادات
الخطوب ، فرأيناه يصور الجزيرة ، ويمثل استحياءها حين قدها النيل ، ثم
رأيناه يذكر ان الجيزة لا تزال في ابواب الحداد على رمسيس ، وأن
السواقي لا تبرح ترسل على ذكره الدموع والالين ، وان النخيل تهردت
في الحزن عليه ، فلم يبق عليها غير الشعور والاطواق ، ورأيناه كذلك

(١) الغس مرادف للسبح

يتكلم عن أبي الهول وعن الاهرام ، ويتخيل ابا الهول قارعة عتيده لا هلاك
الطفاة . ثم رأيناه وقد عاوده القلق على مصر ، ولم يقنعه السكون الى
الخيال ، فأخذ يزفر من جديد ويقول

يا فؤادي ! لكل أمر قرارٌ فيه يبدو وينجلي بعد لبس
وأين هذا القرار ، يا بلبل النيل ! هاته ، هاته ، وخذ من أرواحنا

ما تشاء

ثم شرع يصف القدر بهذه الصورة الشعرية البديعة وهو يقول
عقلت لجة الامور عقولاً كانت الحوت طول سباح وغس
غرقت حيث لا يصاح بطاف أو غريق ولا يصاح لحس
فلك يكسف الشمس نهاراً ويسوم البدور ليلة وكس
ولم تظفر النفس الانسانية برناء أبرع من هذا الرناء ، ولا وجدت
العقول من يذرف عليها مثل هذه الدمعة ، وهي في جبروتها أعوبة القدر
وأضحوكة القضاء ، ومن ذا الذي وقف على القبر الذي ثوت فيه آمال الامم
المعذبة ، ثم جاد عليها بمثل هذه الدمعة الغالية ، يذرفها مثل شوقي على تلك
العقول التي عقلتها لجة الخطوب ، والتي غرقت حيث لا يصاح لحس ،
ولا يصاح بطاف أو غريق

ولقد كانت هذه النفثات مقدمة جميلة لرثاء الحمراء ، فقدمه شوقي
لوقفته على أطلالها تمهيداً هو غاية الغايات في إعداد النفس لبسكاء المجد
الناهب ، والملك السليب ، والنفس المصرية يذكرها مجد الفراعنة بمجد
العرب ، كما يذكرها ملك العرب بملك الفراعنة ، والشجى يبعث الشجى ،
وهذا كله قبر مالك ، لو يعلم اللائون !

ولم يصنع البحري هذا الصنيع ، وإنما حدثنا عما طففت الأيام من
صنابة عيشه ، وما كان من غبنه حين باع الشام واشترى العراق ، وكيف
رأبه نُبُو ابن عمه بعد أن كان أنيس المحضر ، لين الجانبين ، ثم قال :

حضرت رحلي الموم فوجه — ت الى أبيض المدائن عني
أُتسلى عن الحظوظ وآسى لحل من آل ساسان درس
وهذا هو عين الاقتضاب ، ولا يبعد عندي أن يكون الزمن قضي
على جزء من هذه القصيدة ، وإن لم يوجد ما يؤيد هذا الظن ، فقد كانت
هذه القصيدة بلا ريب موضع عناية الرواة ، ولـكن المريب هو أن يقلع
البحري عن عادته في حسن التخلص وهو يحبر قصيدة من أروع قصائده
أن لم تكن أجمل ما قال ، وكان من عادته كذلك أن يتخير للبداية ما يمت
بصلة وثيقة الى ما سينتقل اليه ، وأشهر ماله في هذا الأسلوب قصيدته
الميمية في عتاب الفتح بن خاقان فقد ابتدأها بقطعة من النسيب هي أيضاً
عتاب ، وذلك حيث يقول :

يهون عليها أن أيت متيما وقد جاوزت ارض العراق وأصبحت
أعالج شوقا في الضمير مكمما حمى وصلها مذجورت ابرق الحمى
سُلموا نها الاحشاء ان تنضمر ما بكت حرقه عند الفراق وأردفت
يلم بنا وهنا اذا الركب هو ما فلم يبق من معروفها غير طائف
وفي هذه القصيدة يقول :

وأعرف الذنب الذي سؤتني له وأقتل نفسي حسرة وتندما
ولو كان ما خبرته أو ظننته لما كان غرواً أن ألوم وتكرما
أذكرك العهد الذي ليس سؤدداً تناسيه والود الصحيح المسما

أقر بما لم أجنه متصلاً اليك على أني إخالك ألوما
لي الذنب معروفاً وان كنت جاهلاً به ولك العُتي علي وأنما
ومثلك إن أبدى الفعّال أعادهُ وان صنع المعروف زاد وتما
نقول ان البحّري لم يؤثر التخلص في قصيدته السيّنية وانما أثر
الاقتضاب، ولا كذلك شوقي: فقد اخذتكم عن ويلات الممالك ونكبات
الشعوب، ثم دخل في الموضوع برفق وهو يقول

أين مروانُ في المشارق عرش أموي وفي المغرب كرسى
سقت شمسهم فرد عليها نورها كل ثاقب الرأي نطس
ثم غابت وكل شمس سوى ها تيك تبلى وتنطوي تحت رمس
وعظ البحّري إيوان كسرى وشفّني القصور من عبد شمس
نقرر هذا، ثم نذكر أن البحّري لا لوم عليه في أن خلت قصيدته
من مثل المقدمة الممتعة التي افتتحت بها قصيدة شوقي، لأن ظروف
البحّري وقد ضاق به عيشه، وظلمه أهله، غير ظروف شوقي وهو
يحاول العودة الى وطن أسير تحالفت عليه الرزايا وتنكر له الزمان، وأصله
أهله نار العقوق، وهو قد خلف في هذا الوطن أحلام شبابه وأوهام
صباه، وترك فيه ما يملك من أسباب الحياة، ثم هو لا يدرى اذا عاد
أيقر قراره فيلقى عصا التسيار، أم تعصف به وشاية جديدة، تحمله الى
المنفى من جديد... ولو كان للبحّري مثل هذا القلب المشرد وهو يشد
رحاله الى الايوان، لكان له شأن آخر، ولكانت شكواه مضرب
الامثال، ولكن الشاعر له « رسالة » يؤديها الى أهل عصره، ولا مفر
له من أدائها مادام له قلب ووجدان، وكانت « رسالة » شوقي حين قال

سينيته أن يصف ما يلاقي أهل مصر من الكمد ، وهم يودعون كل يوم
فريقاً من أبنائهم الأحرار ، ويستقبلون بالرغم منهم ما يلقي إليهم البحر
من نفايات الأم وأوشاب الأقطار ، وكان له في ذلك هذا البيت الذي
يصلح لكل أمة ولكل جيل

أحرام على بلبله الدو حُ حلال للطير من كل جنس
وفي مقابله يقول البحري وهو يتحدث عن نفسه
واشترائي العراق خطة غبن بعد بيعي الشام بيعة وكس
ولكن أين هذا من ذاك ؟ ! وأين قول البحري في عنف
الدهر وجوره

وكان الزمان أصبح محو لا هوامع الأخص الأخص
من قول شوقي في المعنى نفسه
عقلت لجة الأمور عقولا كانت الحوت طول سببح وغس
غرقت حيث لا يصاح بطاف أو غريق ولا يصاح لحس
فان هذه صورة شعرية نادرة المثال
ومطلع البحري

صنت نفسي عما يدنس نفسي وترفعت عن جدا كل جبس
فيه ضعف وانحلال ، وليس بقاطع الدلالة على الإباء ، وخير منه
مطلع شوقي

اختلاف النهار والليل ينسي فاذا كرا لي الصبا وأيام أنسي
وان كنا لا ندري بمن يستنجد ، وقد نسي أيام صباه ، ورحم الله
ابن الأحنف إذ يقول :

نرف البكاء دموع عينك فاستعر عيناً لغيرك دمعها مدرارُ
 من ذا يعيرك عينه تبكي بها أرايت عيناً للدموع تُعارُ
 ويذكرون أن اللورد كرومر حضر عرساً مصرياً وسمع المغني يقول
 « حبيبي غاب . هاتوه لي يا ناس » فلما سأل المترجم عن معنى هذا الصوت
 ووقف على مدلوله قال : « إن المصري لكسول ، وإنه ليطلب حتى من يعينه
 على رد محبوبه الغائب » وكذلك يطلب شوقي من يحدثه عن أيام الانس
 في عهد الشباب ، وإنه لمطلب عجيب !

البحث السابع عشر

بين البحترى وشوقي

ولقد أخذ البحترى ، بعد مقدمته الوجيزة ، يتكلم عن إيوان
 كسرى ، ويتحدث عن بنياته ، ويعرض بسكان القفار من الأعراب ،
 فيقول :

أُتسلى عن الخطوظ وآسي	لمحل من آل ساسان دَرسٍ
ذكر تنيهم الخطوب التوالى	ولقد تذكر الخطوب وتُنسي
وهو خافضون في ظل عال	مشرف يحسر العيون ويخسي
مغلق بابهُ على جبل القبة	ق الى دارتي خلال ومكسٍ
حلال لم تكن كاطلال سعدي	في قفار من البسابس مُلسٍ
ومساع لولا المحاباة مني	لم تطقها مسعاة عنس وعبسٍ
نقل الدهر عهدهن من الجد	ة حتى غدون أنضاء ابسٍ

فكأن الجرماز من عدم الازس وإخلاقه بنية رمس
لو تراه علمت ان الليالى جعلت فيه مأتماً بعد عرس
وهو يُنبئك عن عجائب قوم لا يشاب البيان فيهم بلبس
وهذا البيت الاخير تمهيد مباشر لوصف ما في الايوان من النقوش
والتهاويل ، ولنا اليه عودة ، فلنلاحظ الآن ان البحترى يتجسس وهو
يبين عن أثر الايوان في نفسه ، ويتوقف وهو يفصح عما بين العرب
والفرس من شتى الفروق ، وترجع هذه الحبسة الى اتقاء الفتنة ، وكبح
ما يجمع عن هذه المقارنة من شهوة التنافر وإثارة الاحقاد ، ولهذا يقول
في هدوء :

حل لم تكن كاطلال سعدي في قفار من البسابس ملس
ومساع لولا المحابة مني لم تطقها مسعاة عنس وعبس
وقد صدق ، وان جرح الايوان ، وإلا فما هي اطلال سعدي ،
ورسوم ليلى ، ونوى عفراء ! ولم يجد شوقى ما يضطره الى مثل هذه
المواربة ، إذ كان يتكلم عن مجد المسلمين والعرب ، في بلاد اسلامية
بمجموعة الاهواء . ومن هنا نراه يقول في وضوح وجلاء

رب ليل سریت والبرق طرفي وبساط طويت والريح عنسي
أنظم الشرق في (الجزيرة) بالفر ب وأطوي البلاد حزناً لدهس
في ديار من الخلائف درس ومنار من الطوائف طمس
وربى كالجنان في كنف الزيتو ن خضر وفي ذرى الكرم طلس
لم يرعنى سوى ترى قرطبي لمست فيه عبرة الدهر خمسي
ياوقى الله ما أصبح منه وسقى صفوة الحيا ما أمسي

قرية لا تعد في الأرض كانت، تمسك الأرض أن تميد وترسي
 غشيت ساحة المحيط وغطت لجة الروم من شرع وقلس
 ركب الدهر خاطري في ثراها فأتى ذلك الحمى بعد حدس
 فتجلت لي القصور ومن فيها من (الغر) في منازل قُوس
 ما ضفت قط في الملوك على نذل المعالي ولا تردت بنجس
 ومن الخير أن ندل على الايات المختارة هنا وهناك . ونحن نستعيد
 قول البحري

ذكر تزيين الخطوب التوالى ولقد تذكر الخطوب وتنسى
 ولعجز هذا البيت مغزى بديع ، ونستعيد كذلك قوله
 نقل الدهر عهد من الجد ة حتى غدون أنضاء لبس
 فكان الجرماز من عدم الانس وإخلاقه بنية ومس
 وفي هذين البيتين دقة وخيال ، وللقارئ أن يتأمل كيف صارت
 هذه الحلال « أضناء لبس » وكيف أمسى الجرماز وكأنه « بنية لمس »
 فأما قوله

لو تراه علمت أن الليالى جعلت فيه مأتماً بعد عرس
 فهو غاية الغايات في بكاء المغاني ، يتحكم فيها البلى ، وتبطلش
 بها ايدي العفاء

ونستعيد قول شوقي

لم يرعني سوى ترى قرطبي لمست فيه عبرة الدهر خمسي
 ولمس العبرة من المعاني الدقيقة ، وقد بلغ غاية الرفق ، وهو يقول
 في تحية هذا الثرى

يا وقي الله ما أصبح منه وسقى صفوة الحيا ما أمسي
ونستجيد كذلك قوله :

ركب الدهر خاطري في ثراها فأتى ذلك الحمى بعد حدس
يصف تلك البقعة بالدروس ، ويدكر أنه ضل ولم يهتد الا بعد أن
ركب خاطره الدهر ، ومع هذا لم يصل الا بعد توهم وحدس ، وتلك وثبة
من وثبات الخيال

ثم أخذ الباحث يصف ما في الايوان من صور المعارك فقال :

فإذا ما رأيت صورة انطاكية ارتعت بين روم وفرس
والمنايا موائل وأنوشروان يزجي الصفوف تحت الدرفس
في اخضرار من اللباس على أصفر يختال في صبيغة ورس
وعراك الرجال بين يديه في خفوت منهم وإغماض جرس
من مشيح يهوى بعامل ربح ومليح من السنان بترس
تصف العين أنهم جد أحياء لهم بينهم اشارة خرس
يغتلي فيهم ارتياحي حتى تتقراهمو يداي بهمس
وهذه القطعة من أدق ما قيل في الوصف ، يذكر أنه شهد في الايوان
صورة كسرى وهو يحاصر انطاكية وأنتك لو رأيت هذه الصورة لارتعت
من حملة الفرس على الروم ، وكيف يرتاع المرء وهو يشاهد صورة على
الحائط ؟ هذا هو وجه الحسن : فهو يذكر أنك حين ترى هذه الصورة ،
لا يخطر ببالك أنها صورة ، وإنما تحسب لصدق التصوير أنك في ميدان
القتال ، والمنايا موائل أمامك ، وأنوشروان يزجي الصفوف تحت اللواء ،
ولم يفته أن يصف ما على الجنود من ألوان الثياب ، وما هم عليه من إشارات

الخفوت ، بين مُشيح بالرح ، ومُليح بالسنان ، وأنظر كيف يقول :
تصف العين أنهم جد أحياء ، لهم بينهم اشارة خرس
يغتلي فيهم ارتياني حتى تتقراهمو يداي بلمس
فهو يراهم جد أحياء ، وان لم يُسمع لهم صوت ، لأن في سماتهم
ما يدل على اكتفائهم بالاشارة كما يكتفي الخرس ، ثم يعود الى نفسه
فيذكر أنه أمام مصورة ، ثم يُغلب على حسه ، فيرتاب فيما يراه ، فيلمس
الصورة بيده ليعرف حقيقة هي أم خيال . والمصور الحاذق هو الذي
يُسبغ على صورهِ أثواب الحياة ، ولقد أذكر اني شهدت في اطلال
الفراعنة بالاقصر صورة سمكة ، ولم أكد أملأ منها عيني حتى خلتها تنقلب ،
وكذلك يسحر الفن الجميل

ولقد نحا شوقي منحى البحري في الوصف ، وإن اختلف الموصوف ،

فقال وقد تجلت له تلك القصور

وكأنني بلغت للعلم بيتاً فيه مال العقول من كل درس
قد سافى البلاد شرقاً وغرباً حجة القوم من فقيه وقس
وعلى الجمعة الجلالة والناس صر نور الخميس تحت الدرفس
ينزل التاج عن مفارق (دون) ويحيى به جبين (البرنس)
سنة من كرى وطيف أمان وصحا القلب من ضلال وهجس
واذا الدار ما بها من انيس واذا القوم ما لهم من محس
ورقيق من البيوت عتيق جاوز الألف غير مذموم حرس
أثر من (محمد) وراث صار (لروح) ذي الولاء الأمس
بلغ النجم ذروة وتناهى بين (شهلا) في الأماس و(قدس)

مرمر تسبح النواظر فيه ويطول المدى عليها فترسي
وسوار كأنها في استواء ألفات الوزير في عرض طرس
فترة الدهر قد كست سطرها ما اكتسى الهدب من فتور ونفس
ويحها كم ترينت لعليم واحد الدهر واستعدت لحس
وكان الرفيف في مسرح العي من ملاء مدثرات الدمقس
وكان الآيات في جانبيه يتزلزل من معارج قدس
منبر تحت (منذر) من جلال لم يزل يكتسيه أو تحت قس
ومكان الكتاب يغريك رياء ورده غائباً فتدو المس
وهذه القطعة على طولها لاتسمو الى ما وصلت اليه تلك النفثة

البحترية من فتنة القلب والوجدان ، واعمل السر في هذا ان البحترى
وجد في الايوان صورة الحرب بين الفرس والروم ، وصورة الحرب تهز
النفس ، وتثير ما كمن فيها من عناصر القوة والفتوة ، أما شوقي فقد وجد
بالقصر آيات من القرآن ، لم يذكر أكانت في وصف الجنة ، أم في الدعوة
الى القتال .. والفن الذي يستمد قوته من الاصول الدينية ، الوادعة الهادئة ،
لا يصلح الا للكهول ، والويل للامم اذا لم تغلب عليها نزعات الفروسية ،
ولم يستبد بها ما في الشباب من نشاط وجنون . وما أبعد الفرق بين قول البحترى
والمناسيا موائل وانوشر وان يزجي الصفوف تحت الدرفس
وبين قول شوقي

وعلى الجمعة الجلالة والناس صر نور الخميس تحت الدرفس
وشوقي يصف ما رآه ، فلا لوم عليه ولا تريب ، وصدق من قال :
فلو أن قومي انطقني رماحهم نطقن وليكن الرماح أجرت

وقد لا نجد في هذا العصر من يسمح بان توضع في المساجد والمعابد
صور المعارك والحروب ، ولم يظلم أحدٌ أهل الشرق ، ولا كن كانوا
أنفسهم يظلمون ، فقد حولوا جهودهم العلمية والفنية الى الآخرة ، كما
بيننا ذلك في كتاب « الاخلاق عند الغزالي » وتركوا الدنيا لمن هم أحق
بها من شياطين الغرب ، وحيا الله أولئك الشياطين ، فهم ملائكة هذا
الجيل ، وإن رذائل القوة خير من فضائل الضعف ، لو يعلم الشرقيون
ولشوقى ان يذكروا ان جلاله الدين كانت لذلك العهد من أقوى البواعث
على حراسة الملك ، ولم تكن صورة رسمية يستبق اليها طلاب الرزق ،
وللرزق أبواب !! يدل على هذا قوله :

سنة من كرى وطيف أمان وصحا القلب من ضلال وهجس
وإذا الدار ما بها من أنيس وإذا القوم ما لهم من محس
فهو يأسى على أن تبين أن ذلك الحرم ومن فيه من الملوك ، وما فيه
من آثار العقول ، ليس الا سنة من الكرى ، وطيفاً من الامانى
ويعجبني قوله فى وصف القصر

مرمر تسبح النواظر فيه ويطول المدى عليها فترسى
وسوار كأنها فى استواء ألفت الوزير فى عرض طرس
وان كان تشبيه سوارى القصر بألفات ابن مقلة فيه شيء من الضعف
إذ كان جمال الخط لا يتعدى الحسن الى الجلال ، والفرق بعيد بين
الحسن الفاتن ، والجمال الرائع ، فجمال النهر فى الليالى المقمرة فيه حسن
وفتنة ، وفيه أيام السرار روعة وجلال
وقول شوقى

ومكان الكتاب يغريك ريا ورده غائباً فتدنو للمس
 مأخوذ من قول البحري
 يغتلي فيهم ارتياي حتى تنقراهمو يداي بامس
 وبيت البحري أجود في معناه ، وهو كذلك يقتضيه السياق ، أما
 بيت شوقي فهو في مكانه غريب
 وقول شوقي بعد ذلك الوصف
 صنعة (الداخل) المبارك في الغر ب وآل له ميامين شمس
 فيه ضعف ، وكأنه لم يقله الا على سبيل التكملة ، وما أغنى الشعر
 عن مثل هذا التذييل !!

البحث الثامن عشر

الفصل بين البحري وشوقي

رأينا كيف وصف البحري ما رآه في الايوان من رسم الموقعة
 بين الفرس والروم ، ونذكر اليوم انه انتقل من ذلك الوصف الى الحديث
 عن تلك الكأس الروية التي اصطبغ بها في الايوان ، فقال :
 قد سقاني ولم يصرد أبو الغو ث على العسكرين شربة خلص
 من مدام تقولها هي نجم أضوا الليل أو مجاجة شمس
 وتراها اذا اجدت سروراً وارتياحاً للشارب المتحسي
 أفرغت في الزجاج من كل قلب فهي محبوبة الى كل نفس
 وتوهمت ان كسرى ابرو ز معاطي والبلهذ انسي
 حلم مطبق على الشك عيني أم امان غير ظني وحدثني

وهذه القطعة لا تبد ما يقابلها في سينية شوقي ، لان صاحب
الشوقيات لم يزر اطلال الجراء ليغرق همومه هناك في اكواب الشمول
كما فعل البحري وهو يزور الايوان ، فكان لنا ان ندرس هذه الايات
على سبيل الاستطراد ، اذ لا تقتضيها الموازنة ولا يدعو اليها التفضيل ،
ونحن نستملح قوله

من مدام تفولها هي نجم أضواء الليل أو مجاجة شمس
ووصف الخمر بمجاجة الشمس فيه شيء من روعة الخيال ، وعجز هذا
البيت يشفع لصدره ، وقد تدخل اللفظة في شفاعة اللفظات ، ويمر البيت
في خلال الايات ، كما يقول صاحب زهر الآداب ، وكذلك نستعيد
قوله في وصف تلك الصهباء

وتراها اذا اجدت سروراً وارتياحاً للشارب المتحسى
أفرغت في الزجاج من كل قلب فهي محبوبة الى كل نفس
ولك ان تتأمل كيف يرنو الشارب المتحسى الى المدام ، ثم يخالها
أفرغت في الزجاج من كل قلب ، ولا تنس انه يقول (من كل قلب) وانها
لذلك (محبوبة الى كل نفس) فان لهذا الشمول والتعميم معنى يروع
اصحاب الاذواق من علماء المعاني .. وانظر كيف دارت الخمر بعد ذلك
برأس البحري فتوهم — ومن ذا الذي لا يتوهم وهو في مثل حاله ! — ان
كسرى نديمه ، والبلهيد أنيسه ، وكيف تاب الى رشده ، وأخذ يفكر
أهو في حلم أطبق عينيه على الشك ! أم هي أمان غيرن ظنه وحده ! وفي
هذا التردد ما فيه من تمثيل الحيرة والارتياب في رأس المتعقل النشوان .
ثم عاد الى وصف الايوان فقال :

وكان الايوان من عجب الصنعة جوب في جنب أرعن جلس
يتظنى من الكآبة أن يهدو لعيني مصبح أو ممس
مزجاً بالفراق عن أنس إلف عز أو رهقاً بتطليق عرس
عكست حظه الليالي وبات الـمشتري فيه وهو كوكب نحس
فهو يبدي تجلداً وعليه كل كل من كلا كل الدهر مرسى
لم يعبه أن يز من بسط الديـباج واستل من ستور الدمقس
مشمخراً تعلو له شرفات رفعت في رؤوس رضوى و قدس
لابسات من البياض فما تبصر منها إلا فلائيل برنس
لئس يدرى أصنع إنس لجن سكنوه أم صنع جن لانس
غير أنني أراه يشهد أن لم يك بانيه في الملوك بنكس
وفي هذه القطعة نجد البحترى يتمثل الايوان في صورة الحب
أترعت الليالي كأسه بأنس أليفه ثم أزعجته بالفراق ، والعروس أصفاه
الدهر حلاوة الوصل ثم أرهقه بالطلاق. ويراه يتظنى من الكآبة أن يهدو لعيني
من يطالع عند الصباح أو عند المساء، وكيف لا يكون كذلك وقد عكست
حظه الليالي ، فأصبح مثار الشجى ، ومبعث الأنى ، بعد ان كان من
مربع الغزلان ، وملاعب الحور الحسان !! وانظر كيف يقول
فهو يبدي تجلداً وعليه كل كل من كلا كل الدهر مرسى
وفي هذا البيت صورة رائعة لذلك الايوان الذي صوره البحترى
« كائناً حياً » أناخ الدهر عليه بكل كلكه ، وأراه كيف تكون مضاضة
الذل ، بعد بضارة العزة ، وكيف يكون العدم بعد الوجود ، وللشاعر
في الديار الخالية وقفات تبعث ميت الوجد ، وتثير دفين الاحساس. فان

كنت في ريب من ذلك خدثني أى شيطان ، أو أى ملاك ، أوحى الى
البحترى أن الايوان اصبح — وقد استلقت منه ستور الدمقس وبسط
الديباج — شبيهها بالغادة الحسناء نزع عنها البؤس ما تملك من بالي الثياب ،
فأضحت متجردة تدعوك إلى الرحمة حيناً وتغريك بالفتون أحياناً ؛
ونحن نعيذ القارىء من ان يرمينا بالغلو والاسراف ، فهذا والله ما نفهمه
من قول البحترى

لم يعبه أن بُزمن بسط الديبا ج واستل من ستور الدمقس
وكذلك نزع الدهر ما كان بالايوان من عارض التهاويل ، وخلاه
كالغادة المتجردة لا تدري أكان تجردها من قسوة الفقر ، أم من مسكر
الدلال ... وما نريد أن نزيد ؛ وللقارىء أن يتأمل حسن الاداء في قوله
عكست حظه الليالي وبات الـ — المشتري فيه وهو كوكب نحس
فانه لم يقل « بات المشتري فيه كوكب نحس » وإنما قال « بات
المشتري فيه وهو كوكب نحس » وكلمة « وهو » لها ما لها من الفضل في تأكيد
المعنى وتقريره ، عند علماء المعاني .. وكذلك قوله فيما صارت اليه
شرفات الايوان

لابسات من البياض فما تبصر منها الا فلائل برس
فان كلمة « من » لها هنا موقع جميل ، وهي أدل على التقليل من
التنوين : .. أما قوله

ليس يدري أصنع إنس لجن سكنوه أم صنع جن لانس
فهو من عيون هذه القصيدة ، والعرب ينسبون الى الجن
صنع كل عجيب ، وهى خرافة قديمة ، تزخر بها الاساطير ، وهى كذلك

مورد من موارد الخيال — وكان من المستهجن ان يعقب البحترى هذا البيت الفرد بقوله

غير اني اراه يشهد أن لم يك بانيه في الملوك بنكس
وهو بيت ضعيف بينه وبين سابقه بوق بعيد... وقد عاد الى وصف ما في الايوان فقال

فكأنني أرى المراتب والقو م إذا ما بلغت آخر حسي
وكان الوفود ضاحين حسري من وقوف خلف الزحام وخنس
وكان القيان وسط المقاصير يرجحن بين حو وأعس
وكان اللقاء أول من أمس ووشك الفراق أول أمس
وكان الذي يريد اتباعاً طامع في لحوقهم صبح خمس
عمرت للسرور دهرًا وصارت للتعزى رباعهم والتأسي
فلها أن أعينها بدموع موقوفات على الصبابة حنس
ولهذه الايات روعة يحسها من شهد من التصوير الصادق مثل
ما شهد البحترى في اعطاف الايوان. والبحترى بهذا الوصف فنان، يقول
على علم ويعرف ما يعني، ولك أن تتأمل كلمة « كان » وموقعها الجميل
في قوله

وكان الوفود ضاحين حسري من وقوف خلف الزحام وخنس
وقوله :

وكان القيان وسط المقاصير يرجحن بين حو وأعس
وقوله :

وكان اللقاء أول من أمس ووشك الفراق أول أمس

وقد دلت القارىء على مواطن الحسن في هذه القصيدة فلينهل
بعد ذلك من رحيقها كما يشاء.

— نفثة شوقى —

أما شوقى فقد اخذ يبكي الحمراء بعد وصفها فقال

من الحمراء جللت بغير الده	ر كالجرح بين برء ونكس
كسنا البرق لو مح الضوء لحظاً	لمحتها العيون من طول قبس
حصن غرناطة ودار بني الاح	مر من غافل ويقظان ندس
جلل الشالج دونها رأس شيرى	فبدا منه في عجائب برس
سرمد شيبه ولم ار شيباً	قبله يرجى البقاء وينسى
مشت الحادثات في غرف الحمراء	مشي النعي في دار عرس
هتكت عزة الحجاب وفضت	سدة الباب من سمير وانس
عرصات تخلت الخيل عنها	واستراحت من احترام وعس
ومغان على الليالى وضاء	لم تجد للعشى تكرار مس
لا ترى غير وافدين على الت	اربخ ساعين في خشوع ونكس
نقلوا الطرف في نضارة آس	من نقوش وفي عصارة ورس
وقباب من لا زورد وتبر	كالربى الشم بين ظل وشمس
وخطوط تكفلت المعاني	ولا انفاظها بأزين لبس
وترى مجلس السباع خلاء	مقفر القاع من ظباء وخنس
لا الثريا ولا جوارى الثريا	يتنزلن فيه اقار أنس
مرمر قامت الاسود عليه	كلّة الظفر لينات المجس
تنثر الماء في الحياض جماناً	يتنزى على ترائب ملس

وفي هذه الكلمة نرى شوقي يتمثل الحمراء وهي مجللة بغبار الدهر ،
وهذا خيال رائع ، ولكنه ليس بكثير على شوقي ، فقد ألف الحديث
عن اسرار الحياة وطبائع الوجود ، وكلف منذ بعيد بالابانة عن عدوان
الحوادث ، والافصاح عن عسف الخطوب ، ويكاد يستنطق الموت
وهو يتحدث عن مصير من استراحوا من دار الختل والنفاق ..
وانظر كيف يذكّر ان الحمراء أصبحت كالجرح بين برء ونكس ، وهذا
اصدق تصوير لذلك الاثر الذي يحج اليه احفاد بناته ، فيعدونه
ويعنونه ، لو تنفع الاماني أو تصدق الوعود ، ومن ذا الذي لم يفكر في
نكبة الحمراء ، ولم يتمن لو يصبح وهو خليفة ابن زياد . ولكن أين فتوة
العرب ، وأين شباب الزمان !

وللقاري ان يتصور كيف مشت الحادثات في غرف الحمراء مشي
النمي في دار عرس ، فهذا أيضا خيال رائع ، وهو مأخوذ من قول أبي نواس
فتمشت في مفاصلهم كتمشي البرء في السقم
وما لنا ولهذا التكلف ، فقد ذكر النقاد ان أبا نواس كذلك مسبوق ،
على ان تشبيه هتك الحوادث لاستار الحمراء بهتك النمي لدار العرس ،
أروع من تشبيه أثر الجرح في مفاصل الندامى باثر البرء في جسم السقيم ،
وقول شوقي

مشت الحادثات في غرف الحمراء مشي النمي في دار عرس
هتكت عزة الحجاب وفضت سدة الباب من سمير وأنس
فيه روعة ، وفيه جلال ، فهو يصور بطش الحوادث بالحمراء ،
ويصور مع هذا ما كان للحمراء من عزة وسلطان ... أما قوله

وترى مجلس السباع خلاء مقفر القاع من ظباء وخنس
لا الثريا ولا جوارى الثريا يتنزلن فيه أقمار انس
فهو وصف انفرد به ، ولم يعرض لمثله البحري ، وكان عجبا ان يغفل
عن ايراده ، فان انقصور الخالية تذكر الانسان فيما تذكر بمن كان يرتع
فيها ويلعب ، من كل ممشوقة القد ، مجدولة الخلق ، مصقولة الجبين
(خروج العرب من الجنة)

وقد انفرد شوقي كذلك بالحديث عن خروج العرب من الجنة ، ولا
أعبر بغير ذلك ، فقد كان شعراء الاندلس يتغنون بذلك الفردوس ويرونه
حسبهم من نعيم الآخرة والاولى ، ولقد نظر شوقي الى خروجهم نظرة
مملوءة بالدمع حين قال

آخر العهد بالجزيرة كانت	بعد عرك من الزمان وخرس
فتراها تقول راية جيش	باد بالامس بين أسر وحبس
ومفاتيحها مقاليد ملك	باعها الوارث المضيع ببخس
خرج القوم في كتائب صم	عن حفاظ كوكب الدفن خرس
ركبوا بالبحار نعشا وكانت	تحت آباؤهم هي العرش أمس
رب بان لهادم وجوع	لمشت ومحسن لخس
إمرة الناس همة لا تأتى	لجبان ولا تسنى لجبس
واذا ما أصاب بنيان قوم	وهي خلق فانه وهي أس

ومع ان شوقي أشار كما ترى في هذه الايات الى ان ضعف العرب
في أخريات أيامهم كان السبب في خروجهم من تلك البلاد - إذ كانت
إمرة الناس لا تتسنى لجبس ولا تتأنى لجبان - فقد أشار كذلك برفق

الى أن عهدهم لم ينقض الا بعد عرك من الزمان وضرر. والحق ان فتح
العرب للاندلس كان من الاحداث الخطيرة، وكان من الطبيعي ان
تدور عليهم الدائرة، وان يحل بهم ما حل بالفرس والروم. ولا تذكر ما شب
في صدورهم من نار العداوة والبغضاء، ولا ما شجر بينهم على الملك من
خلاف، ولا ما انغمسوا فيه من اللذات والشهوات، ولكن اذكر أنهم
كانوا يحتلون بلاداً لا يزال أهالها يفكرون في الحرية ويحملون بالاستقلال،
والامة الضعيفة لا تضرب عليها الذلة والمسكنة أبد الآبدين، كما يتوهم
الفاطحيون، وانما يظل ضعفها يفتك بالفاصبين في خفاء، كما تفتك في
ضعفها الجرائم، ثم ينتفض هذا الضعف فجأة فاذا هو قوة جارفة تسقط
من بأسها الممالك وتطيح من هولها العروش. فان كنت في ريب من
ذلك فحدثني ماذا صنع العرب بالشعوب التي ملكوها باسم الدين؛ ألم
تثار تلك الشعوب لنفسها من الدين؛ ألم يهجموا عليه بجيش من الوسواس
والخرافات والاضاليل والباطيل حتى صيره كالخرقة البالية لا تصالح
لزينه، ولا ستر، ولا وقاية؛ اسمع يا صاح؛ القوة هي كل شيء في هذا
الوجود، والقوة فوق الحق، فان أردت ان تحيا فتسلح لهذه الحياة،
والقوة هي السلاح، ومن قال بغير ذلك فهو في حاجة الى استشارة الطبيب؛
وكذلك كان العرب، فقد ركبوا البحر وهم أقوياء، فكان عرشاً،
وركبوه وهم ضعفاء، فكان نعشاً، وما تغير البحر، ولكن تغير الناس،
ركبوه أول مرة وهم فاتحون، ثم ركبوه آخر مرة وهم هاربون، وما أبعد
الفرق بين الفتح والفرار؛

ثم قال شوقي في توديع تلك الديار

يا دياراً نزلت كالخلد ظلاً وجئ دانيًا وسلسال أنسٍ
محسّنات الفصول لا ناجرٌ فيها بقيظ ولا جمادى بقرسٍ
لا تحس العيون فوق رباها غير حور حوّ المرافف لعسٍ
كسيت أفرخي بظلك ريشاً ورباً في ربّاك واشتدّ غرسي
هم بنو مصر لا الجميل لديهم بمضاع ولا الصنيع بمنسي
من لسان على ثنائك وقف وجنان على ولائك حبسٍ
حسبهم هذه الطلول عظام من جديد على الدهور ودّرسٍ
واذا فاتك التفات إلى الما ضي فقد غاب عنك وجه التأمي

وما أريد الخوض في تحليل هذه الايات ، فقد طال الحديث ، انما
اذكر اننا غنمنا هذه القصيدة من حياة شوقي في الاندلس ، وغنمنا معها
« قطعة خشب » من قصر الحمراء تجدها في متحف الشاب المذهب حسين
شوقي ، ويا ليتنا نحرص على ما بقي في أيدينا من ملك العرب والمسلمين ..!

* *

وسيدكر القارىء بعد هذا كله اني أوازن بين البحتري وشوقي ،
وسيسأل أيهما أشعر ، وأنا ارجوه ان يراجع الموازنة ليحكم بما يشاء ،
أما أنا فقد حكمت ، والسلام

البحث التاسع عشر

(البوصيري وشوقي)

للوصيري قصيدة مشهورة تسمى «البردة» عارضها شوقي بقصيدة سماها «نهج البردة» وقد رأينا أن نوازن بين هاتين القصيدتين لنقف على مبلغ البوصيري وشوقي من العلم بأسرار الاسلام ، فقد عني هذان الشاعران بدرس الشريعة لاظهار ما فيها من المحاسن ، ودرء ما يؤججه اليها من الشبهات ، وسيكون موقفنا في درس هاتين القصيدتين موقف المؤرخ ، وقد تؤرخ الأفكار كما يؤرخ الاشخاص . وحسبنا أن ندل القاري على مواطن الضعف فيما صبغ من الافكار بصبغة اسلامية ، وللقاري بعد ذلك رأيه ، فان شاء مضى في البحث والتنقيب ، وان شاء رضي واكتفى بما عليه عامة الناس ، والله يهدي من يشاء الى صراط مستقيم

(حياة البوصيري)

هو محمد بن سعيد بن حماد بن عبد الله بن صنهاج . كان أحد أبويه من (ابو صير) والآخر من (دلاص) فركبت له منهما نسبة وقيل : (الدلاصيري) لكنه اشتهر بالبوصيري . وكان يعاني صناعة الكتابة والتصرف ويباشر الشرقية ببلييس (راجع فوات الوفيات)^(١) والبوصيري شاعر مصري ظريف من شعراء القرن السابع تجري

(١) توفي البوصيري سنة ٦٩٥ هـ ، وله قبر مشهور في الاسكندرية يتصل به مسجد كبير تدرس به العلوم الدينية

في شعره النكت المستملحة . وله في شكوى حاله والتدسر من الموظفين قصائد رشيقة تجلو صدأ النفوس ، وفي شعره وصف للحالة الاجتماعية في عصره ، وأحسبه من الصادقين ، فهو يذكر ان الموظفين كانوا يسرقون الغلال ، وانهم لولا ذلك ما لبسوا الحرير ، ولا شربوا الخمر ، وان من الكتاب طائفة تنسكت وعدت من الزهاد مع أنها تملأ بطونها بالسحت وتأكل مال الايتام ، ويذكر ان القضاة خانوا الامانة ، وبرروا خيانتهم بتأويل القرآن والحديث ، ويذكر ان المسلمين والاقباط كانوا مختلفين ، فكان المسلمون يقولون : لنا بمصر حقوق ونحن أولى الآخذين ، وكان القبط يقولون : نحن ملوك مصر ومن سوانا هم الغاصبون ، وكان اليهود يستحلون مال الطوائف اجمعين . وفي ذلك يقول

فلم أر فيهمو حراً أميناً	نقدت طوائف المستخدمين
مع التجريب من عمري سنيماً	فقد عاشرتهم ولبثت فيهم
فلا صبحت شمالهم اليمين	فكتاب الشمال همو جميعاً
بهم فكأنهم سرقوا العيون	فكم سرفوا الغلال وما عرفنا
ولا شربوا خمر الاندرينا	ولولا ذاك ما لبسوا حريراً
كأغصان يملن وينحنينا	ولا ربوا من المردان مرداً
والكن بعد ما حلقوا ذقونا	وقد طلعت لبعضهمو ذقون
كأسياف بأيدي لاعيننا	واقلام الجماعة جائلات
وكل اسم يخطوا منه سيننا	وقد ساومتهم حرفاً بحرف
يتم من اللثام السكاتيننا	أمولاي الوزير غفلت عما
من الزهاد والمتورعينا	تنسك معشر منهم وعدوا

وقيل لهم دعاء مستجاب
تفقهت القضاة فخان كل
وما أخشى على أموال مصر
يقول المسلمون لنا حقوق
وقال القبط نحن ملوك مصر
وحملت اليهود بحفظ سبت
وما ابن قطيبة الا شريك
أغار على قرى (فاقوس) منه
وصير عينها حملاً ولكن
وأصبح شغله تحصيل تبر
وقدمه الذين لهم وصول
وفي دار الوكالة أي نهب
فقام بها يهودي خبيث
إذا ألقى بها موسى عصاه
وشاهدتم إذا اتهموا يودي
وقد ملؤا من السحت البطونا
أمانته وسموه الأئمة
سوى من معشر يتأولونا
بها ولنحن أولى الآخذينا
وان سواهم هم غاصبونا
لهم مال الطوائف أجمعينا
لهم في كل ما يتخطفونا
بجور يمنع النوم الجفونا
لمنزه وغلها خزينا
وكانت راؤه من قبل نونا
فتمم نقصه صلة اللذينا
فليتك لو نهبت الناهيين
يسوم المسلمين أذى وهونا
تلقت القوافل والسفينا
عن الكل الشهادة واليمين

وهذه القطعة ذكرها صاحب فوات الوفيات من قصيدة طويلة
يذكر أنها كانت مشهورة، وشهرتها فيما لا نرى ترجع الى قيمتها الأديبة
لأنها قصيدة ضعيفة يغلب عليها الابتذال، وانما ترجع شهرتها الى ما فيها
من التنديد بالموظفين، والناس يبغضون الموظفين حين يعرفون بالطمع
والاستبداد. وهذه القصيدة قيمتها من الوجهة التاريخية، فهي شاهد على
اختلاف الطوائف في مصر وعلى ما كان يجري اذ ذاك بين المسلمين

والنصارى واليهود ، وهي كذلك شاهد على عيوب الادارة في ذلك الحين !
ومن شعر البوصيري فيما يجري مجرى الدعابة قوله في الحديث عن
جارية راودها عن نفسها فأنكرت عليه الشيب والضعف

أهوى والمشيب قد حال دونه	والتصابي بعد المشيب رُعوته
أبت النفس أن تطيع وقالت	ان حي لا يدخل القنينة
كيف أعصى الهوى وطينة قلبي	بالهوى قبل آدم معجونه
سلبته الرقاد بيضة خدر	ذات حسن كالدررة المكنونه
سمتها قبلة تسرُّ بها النفس	س فقلت كذا كون حزينه
قلت لا بد أن تسيري الى الدا	ر فقلت عسى ! أنا مجنونه !
قلت سيري فاني لك خير	من أب راحم وأم حنونه
انا نعم القرين ان كنت تبغي	ن حلالاً وأنت نعم القرينه
قالت اضرب عن وصل مثلي صنف	حاً واضرب اخلل أو يصير طحينه
لا أرى أن تسمي يدشيخ	كيف أرضى به لطشتي مشينه
قلت اني كثير مال فقلت	هيك أنت المبارز القارونه

وهذا أيضاً شعر ضعيف ، ولكن فيه « حكاية ظريفة » من حكايات
مولانا الشيخ رضي الله عنه وأرضاه ! وأظرف من هذه القطعة أبياته التي
بعث بها الى ناظر الشرقية ، وكانت له حمارة استمارها منه الناظر فأعجبته ،
فكتب على لسانها اليه :

يا أيها السيد الذي شهدت	اخلاقه لي بأنه فاضل
ما كان ظني يبيعني أحد	قط ولكن صاحبي جاهل
لو جرسوه على من سفه	أقلت غيظاً عليه يستاهل

أقصى مرادى لو كنت في بلدى أرعى بها في جوانب الساحل
وبعد هذا فما يحل لكم اخذى لاني من سيدى حامل
وقد استظرف ناظر الشرقية هذه الايات ، ورد اليه الحمار ، ولم
يكن فيها من الزاهدين !

ونحن نستملح كذلك قصيدته التي بعث بها الى احد الوزراء في
شكوى حاله ، وهي قصيدة طريفة ، يذكر فيها انه فقير ، وان ابنائه لا
يجدون ما يأكلون ، وانهم يتحسرون لفقد الكعك ايام الاعياد ، وأن
امراته زارت أختها وشكت اليها سوء الحال ، فأشارت عليها بضربه ،
وتنف ذقنه شعرة شعرة ! وفي تفصيل ذلك يقول وهو يخاطب ذلك الوزير

اليك نشكو حالنا إنا	حاشاك من قوم اولى عُسره
في قلة نحن ولكن لنا	عائلة في غاية الكثرة
أحدث المولى الحديث الذي	جرى لهم بالخيطة والإبرة
صاموا مع الناس ولكنهم	كانوا لمن أبصرهم عبره
ان شربوا فالبئر زير لهم	ما برحت والشربة الجرّه
لهم من الخبز مسلوقة	في كل يوم تشبه النشرة
اقول مهما اجتمعوا حولها	تنزهوا في الماء والخضرة
وأقبل العيد وما عندهم	قمح ولا خبز ولا فطيرة
فارجعهم وان عاينوا كعكة	في كف طفل أوراوا تمره
تشخص ابصارهم نحوها	بشقة تتبعها زفرة
كم قائل يا أبتا منهمو	قطعت عنا الخبز في كره
ما صرت تأتينا بفلس ولا	بدرهم ورق ولا تفره

وأنت في خدمة قوم فهل تخدمهمو يا أبتِ سُخره
 ويوم زارت امهم اختها والاخت في الغيرة كالضرة
 واقبلت تشكو لها حالها وصبرها منى على العشره
 قالت لها كيف تكون النسا كذا مع الازواج يا عُرّه !
 قومي اطلي حقلك منه بلا تخلف منك ولا فتره
 وان تأني نخذي ذقنه أو انتفيا شعرة شعره
 قالت لها ما هكذا عادتني فان زوجي عنده ضجره
 أخاف ان كلمته كلمة طلقني قالت لها بعره
 وهونت قدرتي في نفسها بخأت الزوجة مجرّة
 فقالتني فهددتها فاستقبلت رأسي بأجره
 وحق من حالته هذه أن ينظر المولى له أمره

وفي هذه القصيدة كثير من التعابير المصرية ، ولا تزال بقاياها موجودة في بليس دائرة الاستاذ فكري اباضه !

- قصيدة البردة -

تعد قصيدة البردة أول قصيدة قيّمة في مدح الرسول عليه السلام ، ولم تكن المداخل النبوية مما يتكلم فيه الشعراء ، والبوصيري هو الذي ابتكر هذا النوع ، أو هو الذي بسطه وأطال فيه القصيد ، فان قصائد الكميت بن زيد في مدح آل البيت تعتبر نواة لهذا الفن الذي اكثر منه المولدون ، وقد مدح الرسول في حياته ، مدحه كعب بن زهير بلاميته المشهورة التي يقول في أولها

بانت سعاد قلبي اليوم متبولٌ متمٍ إثرها لم يفد مكبولٌ
وما سعاد غداة البين اذ رحلوا إلا أغن غمض الطرف مكحول
ومدحه الاعشي بداليتة التي يقول فيها

فأقسمت لا أرثي لها من كلاله ولا من وجى حتى تلاقي محمدا
نبي يرى ما لا يرون وذكره أغار لعمري في البلاد وأنجدا
ويرتاب استاذنا الدكتور طه حسين في قصيدة الاعشي ، ويظنها
من وضع الرواة ، وهي على فرض صحتها ليست من المدائح النبوية ، وكذلك
بانت سعاد ، لان المدح الذي جرى على لسان كعب والاعشي لا يزيد
شيئاً عن غيره من المدح الذي جرى في ذلك العهد ، موجهاً الى الملوك ،
أما المدائح النبوية فتمتاز بعد شمائل النبي وسرد ما في الرسالة من المحاسن
الباقية ، ودفع ما وُصِمَ به الرسول من النقائص والعيوب . وهي فوق
هذا كله تقال وتشد تقرباً الى الله ، وهي عند الصوفية من جملة الاوراد
وقد حدثنا البوصيري عن سبب وضعه للبردة فقال « كنت قد
نظمت قصائد في مدح رسول الله صلى الله عليه وسلم ، منها ما كان
اقترحه عليّ الصاحب زين الدين يعقوب بن الزبير . ثم اتفق بعد ذلك
أن اصابني فالج أبطل نصفي ، ففكرت في عمل قصيدتي هذه فعملتها ،
واستشفعت به الى الله تعالى في أن يعافيني ، وكررت انشادها ودعوت
وتوسلت ، ونمت فرأيت النبي صلى الله عليه وسلم فمسح على وجهي بيده
المباركة ، وألقى عليّ بردة فانتبهت ووجدت في نهضة ، فقممت وخرجت
من بيتي ولم أكن أعلمت بذلك أحداً فلقيني بعض الفقراء فقال لي : أريد
أن تعطيني القصيدة التي مدحت بها رسول الله صلى الله عليه وسلم ،

فقلت أيها فقال : التي أنشأتها في مرضك ، وذكر أولها ، وقال : والله
لقد سمعتها البارحة وهي تنشد بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم
ورأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يتمايل وأعجبته وألقى على من أنشدها
بردة ، فأعطيته إياها ، وذكر الفقير ذلك وشاع المنام »

وفي هذه القطعة دلالة على عقلية البوصيري ، فهو رجل فيه طيبة
وسذاجة ، كأكثر الصوفية ، فليس من المعقول ان يبرأ مريض من
مرضه لآية يتلوها ، أو قصيدة ينشدها ، كما يرى البوصيري بقصيدته ،
ولو مرض مفتي الديار المصرية ، لا سمح الله ، ما استغنى بالبردة عن الطبيب !
ولعل حكاية البوصيري هذه هي سبب ما سار بجانب البردة من انحرافات ،
فقد ذكر بعض الشراح لكل بيت من أبياتها فائدة ، فبعضها أمان من
الفقر وبعضها أمان من الطاعون ؛ وهذا النوع من الغفلة قديم : فقد كان
الزنجشري يذكر شيئاً من مثل هذا عن سور القرآن ... ونلاحظ كذلك
ان البوصيري كرر عبارة « صلى الله عليه وسلم » خمس مرات في هذه
الفقرة الصغيرة . وتكرار الصلاة على النبي كلما ذكر اسمه من وساوس
المتأخرين ، وقد زاد البوصيري على ذلك في القصيدة المضرية : فهو يدعو
الله أن يصلي على النبي وشيعته وصحبه عدد الحصى والثرى والمدر ، وعدد نجم
السماء ونبات الأرض ، وعدد وزن مثاقيل الجبال ، وقطر جميع الماء
والمطر ، وما حوت الاشجار من ورق ، وعدد الحروف المقروءة والمكتوبة ،
وعدد النوحش والطير والاسماك والانعام ، وعدد الجن والانس والاملاك ،
وعدد الذر والنمل والحبوب والشعر والصوف والريش والوبر ، وعدد
ما أحاط به العلم المحيط وما جرى به القلم والقدر ، وعدد نعم الله على الخلائق

مذ كانوا ومذ حشروا، وعدد ما كان في الاكوان وما يكون الى يوم البعث،
وتكون هذه الصلاة بهذا التحديد

في كل طرفة عين يطرفون بها أهل السموات والارضين أو يذروا
ملء السموات والارضين مع جبل والفرش والعرش والكرسي وما حصروا
ما أعدهم الله موجوداً وأوجد معه — دوماً صلاة دوماً ليس تنحصر
تستغرق العد مع جمع الدهور كما تحيط بالحد لا تبقي ولا تذر
وهذا النمط من الصلاة على النبي لم يكن معروفاً في صدر الإسلام
وانما هو تصرف من غلاة الصوفية أمثال صاحب «دلائل الخيرات»
والبردة بعد هذا كله مشهورة في جميع الأقطار الإسلامية، وقد
كانت جزءاً من الهدية التي قدمها ابن خلدون الى تيمورلنك، ولهذه
الهدية قيمتها في تقدير الحياة العقلية عند المتقدمين

(نهج البردة)

أما نهج البردة فقصيدة وضعها شوقي تذكراً لحج الخديو السابق
سنة ١٣٢٧ هـ وقدمها اليه بكلمة صغيرة، ثم شرحها المرحوم الشيخ سليم
البشري شرحاً وجيزاً يندأ في نهايته «ولو أن الكاتب عمد الى كل
بيت ففسر غريبه، وفصل مجمله، وأفشى معناه، ونزل عند مغازيه،
وعرض على وجوه العربية مفردة ومركبة، وأرسل الإشارة الى كل ما وقع
له من دقائق البلاغة وفنون البديع وطلب القصة التي يومأ اليها فيه،
ووازن بينه وبين ما يجانسه من الشعر ويسايره من الكلام، وغير ذلك
مما يجري في شرح الكلام ويدخل في أبواب تقده وتفسيره، لطلال القول
وتجاوز القصد»

وكنا نسمع في مجالس أهل العلم بالادب ان الشيخ سليم البشري
لم يشرح نهج البردة ، وانما الشرح لابنه الشيخ عبد العزيز البشري ،
وهذا كلام تقوله لأهميته في تاريخ الادب ، فان شاء الشيخ عبد العزيز
أيده وان شاء نفاه . ولهذا الشرح مقدمة وضعها محمد بك المويلحي ،
وهي مقدمة تتناسب مع ما كتبت له ، فقد حقق فيها ان الشعر باب من
أبواب الكلام ، فحسن الكلام ، وقبحه كقبيح الكلام ،
وأعجب نفسه في التفرقة بين الشعر وبين القرآن ، ووصل الى « ان القرآن
ليس بشعر ، وما هو من الشعر في شيء ، واين هو من الشعر ، والشعر
انما هو كلام موزون مقفى يدل على معنى ، فأين الوزن ، وأين التقفية ،
واين المعاني التي ينتجها الشعراء من معانيه ، وأين نظم كلامهم من نظمه
واساليبه » ثم قال « فاذن لا مناسبة بينه وبين الشعر اذا حققت »
وكان الظن بصاحب عيسى بن هشام ان يعرف ان الكلام في تحريم الشعر
واباحته مما ينبوعه الذوق في القرن العشرين !!
تلك كلمة وجيزة قلناها تمهيداً للموازنة بين البردة ونهج البردة ،
وإنا نرجو ان يكون في هذا التمهيد بعض الغناء

البحث العشرون

(بين البوصيري وشرقي والبارودي)

ابتدأ البوصيري قصيدته بالتشبيب، ونحا شوقي منجاه، وتلك عادة
عربية قديمة، لم يفكر الشعراء في تركها الا في هذا الجيل، وإن كان
منهم من نالها بلام، كالمتنبي اذ يقول:

إذا كان مدح فالنسيب المقدمُ أكل فصيح قال شعراً متينٌ؟
وكان للصوفية شيء من الغزل المستملح المقبول، فكان مريدوهم
يؤولونه ويروونه موجهاً الى الذات الالهية، أو الحضرة النبوية، ولهم في
ذلك التأويل أعاجيب يبسم لها نغم الحزين، فليرجع اليها من شاء في
كتب التوحيد، ليقف على شيء من تصورات أولئك الناس، فقد
برروا ما جرى على ألسنة شيوخهم من المجون، وجعلوه نوعاً من الرمز
والتمثيل، وتلطف المتأدبون منهم فأجروه مجرى الاستعارة التمثيلية،
وألقوا ما يجري بين عشاق الأرواح، بما يجري بين عشاق الاشباح،
الى آخر ما لهم في هذا الباب من لطف الاحتيال

وهذا كله أثر تلك العادة: وهي افتتاح الشعر بالنسيب وهي عادة
لم يقلع عنها شوقي الى الآن. وأظرف ما وقع له في هذا المسلك قصيدته
في « مشروع مانر » فقد افتتحها بهذه الأبيات

أثن عنان القلب واسلم به من ربرب الرمل ومن سربه
ومن تثنى الغيد عن بانه مرتجة الأرداف عن كسبه

ظباؤه المنكسرات الطبا
بيض رقاق الحسن في لحة
ذوابل النرجس في أصله
زِنَّ على الارض سماء الدجى
يمشين أسراباً على هينة
من كل وسمان بغير الكرى
يفلين ذا اللب على ألبه
من ناعم الدر ومن رطبه
يوانع الورد على قضبه
وزدن في الحسن على شهبه
مشي القطا الآمن في سربه
تنتبه الآجال من هذبه

وهي قصيدة طويلة ، ثلثها في النسيب ، ويذكر شوقي أنه قالها
كارهاً ، ولا يبعد على هذا أن يكون ما افتتحها به من التشبيب جزءاً
من المنحة التي اجتدها أنصار المشروع إذ ذاك !! وقد رأيت من شعراء
العصر من يعجب من الجملة التي وجهها النقاد إلى افتتاح الشعر بالنسيب
وهو يرى ذلك نوعاً من الرياضة لقرايح الشعراء ، وأذكر أنني رأيت في
كلام القدماء ما يؤيد هذا المعنى ، فقد كان منهم من يرى التوفيق إلى
اجادة التشبيب باباً للتوفيق إلى الاجادة في سائر القصيدة . ومهما يكن
من شيء ، فقد سار البوصيري وشوقي على أثر من تقدمهم من الشعراء ، ولا
تقل كان الأديب يقضى بتجنب هذا المنهج في المدائح النبوية ، فقد شبب
كعب بن زهير بمحبوبته ، وهو في حضرة الرسول ، فما لامه النبي ، ولا
أنكرها عليه أصحابه ، ولا آخذها مؤرخو الآداب

ولنا أن نلاحظ أن البوصيري جرى في تشبيهه مجرى المحاكاة
والتقليد ، فإنا نراه يقول في مطلع البردة

أمن تذكر جيران بني سلم
أم هبت الريح من تلقاء كاظمة
مزجت دمعاً جرى من مقلة بدم
وأومض البرق في الظلماء من إضم

وذو سلم واد ينحدر عن الذنائب في أرض بني البكاء على طريق
البصرة الى مكة كما ذكر ياقوت ، وفيه يقول كثير
أمن آل سلمى دمنة بالذنائب الى الميث من ريعان ذات المطارب
يلوح بأطراف الأجددة رسمها بندي سلم أطلالها كالذواهب
وكاظمة جو على سيف البحر في طريق البحرين من البصرة ، وفيه
يقول بعض الشعراء

يا حبذا البرق من أكناف كاظمة يسعى على قصرات المرخ والعُشْرِ
لله در بيوت كان يعشقها قلبي ويألفها ان طيبت بصري
فقدتها فقد ظمان أداوته والقيظ يقذف وجه الارض بالشرر
أمنية النفس ان تزدار ثانية وحالنا والاماني حلوة الثمر
واضم واد بجبال تهامة ، وهو الوادي الذي فيه المدينة ، وفيه يقول
سلامة بن جندل

يا دار أسماء بالعلياء من اضم بين الدكادك من قوف معصوب
كانت لها مرة داراً فغيرها مر الرياح بسافي الترب مجلوب
وذكر البوصيري لهذه المواطن ، وشغفه بها ، وحنينه اليها ، ينافي
مصريته ، وكان له ان يتشوق الى احبابه في بليس أو فاقوس ، كما يتشوق
بعض الناس الى احبابه في سنتريس وأسيوط ، ولكن يظهر ان المغاني
العربية كانت احتلت رءوس الشعراء ، فكان من ذلك ان اكثروا من ذكر
نجد ، وسمع ، وأروند ، وان لم يكن لهم بهذه المواطن هوى ، ولم ينعموا
فيها باصطباح ولا اغتياق ، ولذلك نجد التكلف ظاهراً في حديث البوصيري
عن جيرانه بندي سلم ، ونحسبه اختارها للقافية ، كما اختار « اضم » لهذا

الغرض ، وأين هذا الوجد المتكلف من قول من شغل عن أروند ببغداد
وقالت نساء الحي أين ابن اختنا ألا خبرونا عنه حييتمو وفدا
رعاه ضمان الله هل في بلادكم أخو كرم يرعى لذي حسب عهداً
فان الذي خلفتموه بأرضكم فتي ملأ الاحشاء هجرانه وجداً
أبغدادكم تنسيه أروند مربعا الأخاب من يشري ببغداد أروندا
فدتهن نفسي لو سمعن بما أرى رمي كل جيد من تهده عقدا
ومن الناس من يعتذر عن صاحب البردة بأنه تشوق الى تلك
المواطن لصلتها بمدينة الرسول ، وهذا الاعتذار يؤيد ما أشرنا اليه من
انه يتغزل محاكاة وتقليداً ، ولو كان صادق الالوعة لشبب بغادة مصرية ،
وحن الى مغنى من مغاني النيل ،.. ولم يتقيد شوقي بهذا القيد حين قال
ريم على القاع بين البان والعام أحل سفك دمي في الاشهر الحرم
وانما أطلق نفسه من ربة التقليد ، فلم يتحدث عن نجد ولا عن
تهامة ، وان غلبت عليه بعض الاخيلة العربية ، فان سفك الدم في الاشهر
الحرم بقية من خيال الاعراب ، فقد كانوا يأمنون فيها مقارعة السيوف
ويظلمون لاعاصم لهم من فتك العيون

ولم يوفق البوصيري الى حسن الاداء حين قال
أمن تذكر جيران بذي سلم مزجت دمعاً جرى من مقلة بدم
فان قوله « جرى من مقلة » حشوا لا قيمة له ، ولا وجه لما يقوله
بعض الشيوخ من أن ذلك تأكيد ، فانه لم يشك أحد في ان الدم يجري
من العين

ومن رجال الادب من لا تروقه كلمة « على القاع » في قول شوقي

(ريم على القاع بين البان والعلم) أما قوله « أحل سفك دمي في الاشهر
الحرم » ففيه مقابلة يستملحها علماء البديع ، وفيه براعة استهلال ، وهو
كذلك غاية في حسن الاداء

وقول البوصيري :

فما لعينيك ان قلت ا كِفْفاً هَمَّتا وما لقلبك ان قلت استفق يَهم
فيه ضعف وابتدال ، وهو غير موصول بسابقه ، وقد انتقل قبل

ان يتم المعنى فقال

أيحسب الصب ان الحب منكم ما بين منسجم منه ومضطرم
لولا الهوى لم ترق دمعاً على طلال ولا أُرقت لذكر البان والعلم
وقد حار الشراح في ربط هذه الايات :

وقد يستجاد قوله :

فكيف تنكر حباً بعد ما شهدت به عليك عُدول الدمع والسقم
وأثبت الوجد خطي عبرة وضى مثل البهار على خديك والغنم
وشوق أبرع من البوصيري في الحديث عن طيف الخيال . فانا نجد

البوصيري يقول

نعم سرى طيف من أهوى فارّني والحب يعترض اللذات بالآلم
وهو بيت مفرد لم يتم به المعنى . أما شوقي فقد أفصح عن مراده

حين قال

ياناعس الطرف لاذقت الهوى أبداً

أسهرت مضناك في حفظ الهوى فم

أفديك ألفاً ولا آلو الخيال فدى

أغراك بالبخل من أغراه بالكرم
سرى فصادف جرّحاً دامياً فأسا
ورب فضل على العشاق للحلم

والفرق بعيد بين قول البوصيري
نعم سرى طيف من أهوى فأرقني
وبين قول شوقي

سرى فصادف جرّحاً دامياً فأسا

وشوقي يجيد هذا النوع من الترتيب، وهو صاحب هذا البيت البديع
نظرةً فابتسامةً فسلاماً فكلاماً فوعده فلقاءً
وقول شوقي « ورب فضل على العشاق للحلم » أرفق من قول
البوصيري « والحب يعترض اللذات بالألم » — أما قول شوقي
ياناعس الطرف لا ذقت الهوى أبداً

اسهرت مضناك في حفظ الهوى فتم

فهو عندي أغزل بيت قاله المحدثون ... وفي قوله

أفديك ألفاً ولا آلو الخيال فدّى اغراك بالبخل من أغراه بالكرم
صورة صادقة لعبث العشق بالقلوب: فهو يغري المحبوب بالبخل،
ويغري طيفه بالجود، وسماحة الطيف باباً إلى اضطرام الفؤاد

ويقول البوصيري في مدافعة اللاتمين

يا لائمي في الهوى العذرى معذرةً مني اليك ولو أنصفت لم تلم
ويقول شوقي

يا لائمي في هواه والهوى قدر لو شفاك الوجد لم تعذل ولم تلم

وبيت شوقي أجمل ، وقوله « الهوى قدر » من أبدع ما قيل في
دفع العذل والملام . أما قوله « لو شفتك الوجد لم تعذل ولم تلم » فهو أجود
في معناه من قول الشريف الرضي
أقول للآثم المهدي ملامته ذق الهوى وإن أسطعت الملام لم
ومن قول ابن الفارض :

دع عنك تعنيني وذق طعم الهوى فإذا عشقت فبعد ذلك عَنفٌ
ولكن البوصيري كان أرق وهو يحاور الآثم بقوله
عدتك حالي لا سري بمستتر عن الوشاة ولا دائي بمنجسم
أما شوقي فقد غلبت عليه الحكمة وهو يقول في حوار لائمه
لقد أنلتك أذنًا غير واعية ورب منتصت والقلب في صمم
وشوقي يخلق الفرص ليقذف بالكلمة الحكيمة ، وتلك إحدى
سماته ، ولكنها قد تزعزعه عن إصابة الغرض في بعض الأحيان ، على
أن من الحق أن نذكر أن شوقي يعتز بالوجد وهو يدفع لائمه ، فكان له
أن يصرح بأنه منح العاذل أذنًا غير واعية ، وقلبا غير سميع ، ولا كذلك
البوصيري فقد جعل الوجد داء ترجى منه السلامة ، ووصف لائمه
بنصح الجيب حين قال

محضتني النصيح لكن لست اسمعه إن المحب عن العذال في صمم
إلى هنا فرغ البوصيري من النسيب ، فلنقف قليلا عند المعاني التي
انفرد بها شوقي ، وأنا لنستعيد قوله

رمى القضاء بعيني جوذا رأسدا ياسا كن القاع أدرك ساكن الاجم
وهذا معني قديم ، والطريف فيه هو تصوير العينين بصورة السهم

يرمي به القضاء ، فهو لا يذكر ان الجؤذر رماه وانما يذكر ان القضاء
رماه بعيني جؤذر ، والقضاء خبير بانواع النصال .! وقد بلغ غاية الرفق
في قوله

لما رنا حدثني النفس قائلةً يا ويح جنبك بالسهم المصيب رُمي
جحدتها وكتمت السهم في كبدي جُرح الأُحبة عندي غير ذي ألم
رُزقت أسمع ما في الناس من خلق اذا رزقت التماس العذر في الشيم
والبيت الأخير يمت الى ما قبله بصلة ضعيفة ، لأن النظرة الفاتنة
أعز وأمنع من أن تعد من جملة الذنوب ، والذي يكتّم جرح الحب
لا يصفح لمحبوبه عن جناية ، فها هذا المن على الجمال ! وأخطا شارح
القصيدة حين استأنس بقول المتنبي

إن كان سرّكو ما قال حاسدنا فما لجرح اذا ارضاكو ألم
ثم أخذ شوقي يصف هذا السرب الذي صحب حبيبته فقال :

من الموائس بانّا بالرُبي وقتنا اللاعبات بروحي السافحات دي
السافرات كأمثال البدور ضحّى يُغرن شمس الضحى بالحلّي والعصم
القاتلات بأجفان بها سقم وللمنية أسباب من السقم
العائرات بأبواب الرجال وما أُقلن من عثرات الدل في الرمم
المضرمات خدوداً أسفرت وجلت عن فتنة تُسلم الأكباد للضرم
الحاملات لواء الحسن مختلفاً أشكاله وهو فرد غير منقسم
من كل بيضاء أو سمراء زينتنا للعين والحسن في الآرام كالعصم
يُرغن للبصر السامي ومن عجب اذا أشرن أسرن الليث بالغنم
وضعت خدي وقسمت الفؤادرُبي برتغن في كنس منه وفي أمكم

وهذه القطعة من البيان المشرق الجميل ، وأستملح منها قوله :
العائرات بألباب الرجال وما أقلن من عثرات الدل في الرسم
فقد جعلهن يمشين على القلوب ، فيعثرن بقلب بعد قلب ، وإن لم
يسلمن من عثرات الدلال ، وهن يتخطرن في الضحى وعند الأصيل ...
وأستجيد كذلك قوله

يرعن للبصر السامي ومن عجب إذا أشرن أسرن الليث بالغم
فقد وصفهن بالخفر والحياء ، وذكر أنهن يرعن حين تسمو اليهن
العين ، والسحر كل السحر في الحسن الخذر الهيوب ، وكان من العجب
أن يأسر هؤلاء الخفرات الليث إذا أشرن إليه بالبنان المخضوب . . .
وما أروع قوله بعد ذلك في خطاب محبوبته

يا بنت ذي اللبد المحمي جانبه ألقاك في الغاب أم ألقاك في الأطم
ما كنت أعلم حتى عن مسكنه ان المنى والمنايا مضرب الخيم (١)
من أنبت الغصن من صمصامة ذكر وأخرج الرّيم من ضرغامه قرم
بيني وبينك من سمر القنا حجب رمثها عفة عذرية العصم
لم أغش مغناك الا في غضون كرى مغناك أبعد للمشتاق من إرم
وفي هذه الأبيات صورة فاتنة لذلك الشدوذ الذي تحوكه الطبيعة
وانها لصناع ! ومن ذا الذي لم يفكر في الرجل يقطر من جوانبه البأس ،

(١) يرى أستاذنا الدكتور طه أن أخيلة شوقي خلت من الصبغة المصرية وهو
يتكلم عن البان والعلم ، ومضرب الخيم ، وأن قوله « يا بنت ذي اللبد » يذكرنا
بقول ابن هاني ،

يا بنت ذي السيف الطويل نجاده اكذا بجور الخيم في ناديك

وتعبس الدنيا حين يعبس ، ويشور الوجود حين يشور ، وفي بيته فتاة من
من صلبه تحسبها لرقتها وحياتها ظبية تتثنى أو غصنا يمد ؛ وقول شوقي
ما كنت أعلم حتى عن مسكنه أن المني والمنايا مضرب الخيم
من أنبت الغصن من صمصامة ذكر وأخرج الريم من ضرغامه قرم
أجود في معناه من قول الطغراني :

إني أريد طروق الحبي من إضم وقد حماه رُمة من بني ثعل
يحمون بالبيض والسمر اللدان به سود الغدائر حمر الحلي والحلل
وانما كان أجود لتلك النظرة الدقيقة التي سجل بها شوقي عجبه من
أن ينبت الغصن من السيف الذكر ، ويخرج الريم من الضرغامه قرم ؛
وقول شوقي :

يبي وينك من سمر القنا حجب ومثلها عفة عذرية العصم
لم أغش مغناك إلا في غضون كرى مغناك أيمد للمشتاق من إرم
أصرح في معناه وأجود من قول الطغراني

نؤم ناشئة بالجزع قد سقيت نصالها بيماء الغنج والسكرال (١)
قد زاد طيب أحاديث الكرام بها ما بالكرائم من جبن ومن بخل
تبيت نار الهوى منهم في كبد حرّي ونار القرى منهم على القلل
يقتلن انضاء حب لا حراك بها وينحرون كرام الخيل والإبل

« قصيدة البارودي »

ونريد ان نلم الإمامة قصيرة بقصيدة البارودي التي سماها « كشف
الغمة في مدح سيد الامة » وهي ميمية طويلة ضمنها سيرة النبي عليه السلام
من حين مولده الى يوم انتقاله الى جوار ربه ، وبنائها كما قال على سيرة

ابن هشام . والبارودي شاعر فحل ، يعتز به تاريخ الأدب في مصر
وقد نوازن بينه وبين أبي فراس ولم نفكر في الموازنة بينه وبين
البوصيري لأننا لم نتأكد من أنه رمي إلى معارضته ، ولكن استاذنا
الدكتور طه حسين يرى من الواجب أن تقدم للقاري نماذج من قصيدة
(كشف الغمة) في المواطن التي يعرض لمثلها البوصيري وشوقي ، ليكون
الموضوع أوفى ، وليجد القاري في تعدد الصور الشعرية مجالاً للنقد
والتمييز ... فلنذكر الآن ما بدأ به البارودي قصيدته من النسيب . قال

يا رائد البرق يَمِّم دارة العلم	واحد الغمام إلى حي بنى تلم
وان مررت على الروحاء فامر لها	أخلاف سارية هتانة الدِّم
من الغزار اللواتي في حوالبها	رى النواهل من زرع ومن نَعَم
إذا استهلّت بأرض نمنمت يدها	برداً من النور يكسو عاري الأكَم
ترى النبات بها خضراً سنابله	يختال في حلة موشية العلم
أدعو إلى الدار بالسقيا وبن ظمأ	أحق بالري لكني أخو كرم
منازل لهواها بين جانحتي	وديمة سرها لم يتصل بفعي
إذا تنسمت منها نفحة لعبت	بي الصبابة لعب الريح بالعلم
أدر على السمع ذكراها فان لها	في القلب منزلة مرعية الذم
عهد تولى وأبقى في الفؤاد له	شوقاً يفل شبة الرأي والهمم
إذا تذكرته لاحت مخائله	للعين حتى كأنني منه في حلم
فما على الدهر لورقت شمائله	فعاد بالوصل أو ألقى يد السلم
تكاء دتني خطوب لو رميت بها	مناكب الأرض لم تثبت على قدم
في بلدة مثل جوف العير لست أرى	فيها سوى أم تحنو على صنم

لا أستقر بها إلا على قلق ولا ألدُّ بها إلا على ألم
إذا تلفت حولي لم أجد أثراً إلا خيالي ولم أسمع سوى كلي
فمن يردُّ على نفسي لُبانتها أو من يحير فؤادي من يد السقم
وهذا شعر جزل رصين، تغلب عليه سمة الجاهلية في المنحى وفي
الاسلوب، فهو يستسقى للروحاء وما إليها من المغاني العربية، ويجمع بين
شئى الأغراض في الموضوع الواحد. ويعرض له المعنى تبعاً فيتحول إليه
حتى لتحسبه نسي المعنى الاصيل. ألا ترى كيف استسقى للروحاء، وهذا
هو الغرض الاول، ثم مضى في وصف السارية الهتانة الديم فقال

من الغزار اللواتي في حوالبها ري النواهل من زرع ومن نعم
إذا استهلت بأرض نمنمت يدها بُرداً من النور يكسوعارى الأم
ترى النبات بها خضراً منابله يختال في حلة موشية العلم
وكان يتمنى لو رقت شمائل الدهر فعاد بالوصل أو ألقى يد السلم،
فانتقل من هذا الغرض الى وصف ما تكأده من الخطوب، وما مني
به من الإقامة في بلد مثل جوف العير يعبد أهله الأصنام، لا يستقر
به إلا على قلق، ولا يلذ به إلا على ألم، إذا تلفت حوله لم يجد سوى
خياله ولم يسمع غير كلامه

وهذا بحث مجمل، نرجو ان نعود اليه في الكلمة الآتية بشيء من
التفصيل

البحث الحادي والعشرون

« أسلوب البارودي »

قلت في الكلمة الماضية : إن شعر البارودي تغلب عليه سمة الجاهلية في المنحى وفي الأسلوب ، وذكرت في تأييد ذلك أنه قد يتحول إلى المعنى الطاريء حتى لنحسبه نسي المعنى الأصلي ، وهذا الأسلوب معروف في أشعار الجاهليين والمخضرمين ، ومن نماذجهم من شعراء العصر الخالية ، فأننا نرى طرفة بن العبد يشبه قباب محبوبته بخلايا السفين ، ثم يترك المشبه ويمضي في الحديث عن المشبه به فيقول

كأن حمول المالكية غدوة خلايا سفين بالنواصف من دَد
عدوئية أو من سفين بن يامن يجور بها الملاح طوراً ويهتدي
يشق عباب الماء حيزومها بها كما قسم الترب المفاصل باليد

وتراه يهيم بالحديث عن نفسه فيقول
واني لأمضي الهم عند احتضاره بهوجاء مرقال تروح وتغتدي
ثم يندفع في وصف الناقة حتى لا يشك القارئ في أنه قال من أجلها هذه القصيدة ، إذ يصفها في أكثر من ثلاثين بيتاً ، ثم يعود بعد لأي إلى الحديث عن نفسه فيقول

ولست بحلال التلّاع مخافة ولكن متى يسترفد القوم أرفد
وكذلك تجد كعب بن زهير يقول في ثغر محبوبته سعاد
تجلو عوارض ذي ظلم إذا ابتسمت كأنه منهل بالراح معلول

ثم يمضي في وصف ما مزجت به هذه الراح فيقول
 شُجَّتْ بذِي شِمٍ من ماءٍ مَحْنِيَةٍ صَافٍ بِأَبْطَحِ أَضْحَى وهو مشمولُ
 تنفي الرياح القذى عنه وأفرطه من صوب سارية يبيضُ يعاليل
 وتراه يقول في بعد محبوبته
 أمست سعاد بارض لا يبلغها إلا العتاق النجيبات المراسيلُ
 وكان هذا كافياً في الابانة عن بعد الشقة، ولكنه وصف الناقة التي
 تبلغه تلك الارض بنحو عشرين بيتاً، ثم عاد بعد هذا كله الى مرمى اليه
 من استعطاف الرسول فقال

تسمى الوشاة بجنيها وقولهمو
 وقال كل خليل كنت آمله
 فقلت خلوا سبيلي لا أبالكمو
 كل ابن انثى وان طالت سلامته
 أنبئت ان رسول الله أوعدني
 مهلاهداك الذي أعطاك نافلة لا
 لا تأخذني بأقوال الوشاة ولم
 وقد سلك البارودي هذا المسلك في قصيدته (كشف الغمة) فقد
 رأينا كيف أفاض في وصف السحب وهو يستسقى للروحاء، وكيف
 انتقل من الحديث عن وجدته الى الحديث عن غربته، ولنذكر الآن
 شاهداً آخر تؤيد به اختياره لهذا الاسلوب

— وصف الغار —

وصف القرآن الغار الذي آوى اليه النبي مع الصديق وصفاً لازخرف

أفیه اذ قال « إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها » ووصفه أبو بكر رضي الله عنه على هذا النحو فقال « كنت مع النبي صلى الله عليه وسلم في الغار فرأيت نار المشركين . قلت يا رسول الله : لو أن أحدهم رفع قدمه وأنا قال ما ظنك باثنين الله ثالثهما ! » وتحدثت عائشة عن ذلك فقالت « ولما كان ليلة بات النبي صلى الله عليه وسلم في الغار امر الله تعالى شجرة فنبتت في وجه الغار ، وأمر حمامتين وحشيتين فوقفتا على وجه الغار ، وأتى المشركون من كل بطن حتى إذا كانوا من النبي صلى الله عليه وسلم على قدر أربعين ذراعاً معهم قسيهم وعصيهم تقدم رجل منهم فرأى حمامتين على فم الغار فقال لصاحبه ليس في الغار شيء ، رأيت حمامتين على فم الغار فعرفت أن ليس فيه أحدٌ ، وقال رجل آخر : الغار بفقال أمية بن خلف ما أدبكم فيه ، وعليه من نسج العنكبوت ما أرى أنه قبل أن يولد محمد »^(١)

فأما الآن حقيقة ثابتة « هي أن النبي كان مع رفيقه في الغار وأن الله أنزل سكينته عليه فلم يخف ولم يحزن » وقد وُصفت هذه الحقيقة في القرآن وفي كلام الصديق وصفاً يرجع في جوهره إلى الإشادة بفضل الله ورحمته، ووصفت في كلام عائشة وصفاً فيه شيء من الزخرف والخيال: إذ أضافت حديث الحمامتين والعنكبوت — ولنا في حديث عائشة رأي لا يسمح به ظرف الزمان — فلنذكر كيف تناول البرصيري وشوقي والبارودي

هذه الحادثة ، وكيف نحا البارودي في وصفها منجى شعراء الجاهلية .
أما البوصيري فقد قال

فالصدق في الغار والصدق لم ير ما وهم يقولون ما في الغار من أريم^(١)
ظنوا الحمام وظنوا العنكبوت على خير البرية لم تنسج ولم تحم
وقاية الله أغنت عن مضاعفة من الدروع وعن عال من الأطم

وهذا وصف لم يخرج عما ورد في القرآن من وقاية الله لنبيه وإزاله
السكينة عليه ولم يعد ما حدثت به عائشة من حوم الحمام ونسج العنكبوت
أما شوقي فقد قال

سل عصبة الشرك حول الغار حائمة لولا مطاردة المختار لم تسم
هل أبصروا الأثر الوضاء أم سمعوا همس التساييح والقرآن من أم^(٢)
وهل تمثل نسج العنكبوت لهم كالغاب والحائات الزغب كالرخم
فأدبروا ووجوه الأرض تلغهم كباطل من جلال الحق منهزم
لولا يد الله بالجارين ما سلمنا وعينه حول ركن الدين لم يقم
تواريا بجناح الله واستترا ومن يضم جناح الله لا يضم

وفي هذه القطعة يسخر شوقي من المشركين ، ويهزأ بهم ، ويمثل
ضلالهم وإخفاقهم تمثيلاً بشعاً مخيفاً يخزى له وجه الشرك ويرغم به أنف
البحرود ، وللقايء أن يتأمل قوله

فأدبروا ووجوه الأرض تلغهم كباطل من جلال الحق منهزم
فانه من أجل ما شبه فيه المحسوس بالمعقول . أما البارودي فقد قال :

وجاءه النوحى إذاناً بهجرته
 فما استقر به حتى تبوأه
 بنى به عشه واحتله سكناً
 إلفان ما جمع المقدار بينهما
 كلاهما ديدبان فوق مرباة
 ان حن هذا غراماً أو دعا طرباً
 يخالها من يراها وهي جائمة
 ان رفرفت سكنت ظلا وان هبطت
 مرقومة الجيد من مسك وغالية
 كأنما شرعت في قاني سرب
 وسجف العنكبوت الغار محتفياً
 قد شدا طرفا فاستحكمت ورست
 كأنها سابري حاكه لبق
 وارت فم الغار عن عين تلم به
 فياله من ستار دونه قره
 فضل فيه رسول الله معتكفا
 حتى اذا سكن الارجاف واحترقت
 أوحى الرسول باعداد الرحيل الى
 وسار بعد ثلاث من مباءته
 وفي هذه القطعة انتقل البارودي من سرد القصة النبوية الى الافاضة

فيمم الغار بالصديق في الغسم (١)
 من الحمام زوج بارع الرثم
 يأوى اليه غداة الريح والرهـم
 إلا لسر بصدر الغار مكتـم
 يرعى المسالك من بعد ولم يـم
 باسم الهديل أجابت تلك بالنـم
 في وكرها كرة ملساء من أدم (٢)

روت غليل الصدى من حائر شـم
 مخضوبة الساق والكفين بالنـم
 من أدمعي فغدت حجرة القدم
 بخيمة حاكها من أبداع الخـم
 بالأرض لكنها قامت بلا دعم
 بأرض سابور في مجبوحة العـم
 فصار يحكي خفاء وجه ملتـم
 يجلو البصائر من ظلم ومن ظـم
 كالدر في البحر أو كالشمس في النـم
 أكباد قوم بنار اليأس والوـم
 من عنده السر من خل ومن حـم
 يؤم طيبة مأوى كل معتـم

في وصف الحمامتين والعنكبوت ، فتحدث عن بناء العش والغرض من سكناه ، وتكلم عن حراسة الحمامتين ، ورعايتهما للمسالك البعيدة ، وهجرهما للنوم ، وتغنيهما باسم الهديل ، وذكر كيف كانت الحمامة مخضوية الساق والكفين ، وكيف كانت مرقومة الجيد ، وكيف كانت محمرة القدم كأنما شرعت في دموعه الحمراء ، وتكلم عن الخيمة التي شد أطناها العنكبوت ووصفها بجودة النسيج حتى ليحسبها الرائي حلة سابرية ، الى آخر ما قال . وهذا كله خروج عن الموضوع ، واستسلام الى الخيال ، وكذلك كان يفعل الأقدمون

(النظم في قصيدة الباردي)

وتمتاز قصيدة البارودي بالترتيب ، لانه سائر الحوادث وفقاً لما قصه ابن هشام ، ولا كذلك شوقي والبوصيري ، فقد أطاعا الخواطر الطارئة ، وقدما بعض الحوادث على بعض ، وتكلما عن النبي وعن معجزاته مثلاً قبل أن يذكر الميلاد

ولكن مزية الترتيب التي انفرد بها البارودي كانت باباً لفقد الشعر في اكثر القصيدة ، فأصبحت بذلك « منظومة » كتلك المنظومات التي تعرف بالمتون ، وإلى القارىء انموذجاً يرى به غلبة النظم في ميمية البارودي اذ قال :

وأتم طيبة مسروراً بعودته	يطوى المنازل بالوخادة الرُّم
ثم استهلت وفود الناس قاطبة	الى حماء فلاقت وافر الكرم
فكان عام وفود كلما انصرفت	عصابةً اقبلت اخرى على قَدَم
وارسل الرسل ترى للملوك بما	فيه بلاغ لاهل الذكر والفهم

وَأَمَّ غَالِبٌ أَكْنَافَ الْكَدِيدِ إِلَى
وَحِينَ خَانَتْ جُذَامُ فَلَّ شَوْكَتَهَا
وَسَارَ مَمْتَحِيًّا وَادِي الْقُرَى فَمَحَا
وَأَمَّ خَيْبَرَ عَبْدَ اللَّهِ فِي نَفَرٍ
وَيَعْنِي ابْنَ أَنَسٍ عَرَضَ نَحْلَةً إِذْ
ثُمَّ اسْتَقْبَلَ ابْنَ حَصْنٍ فَاحْتَوَتْ يَدَهُ
وَسَارَ عَمْرُو إِلَى ذَاتِ السَّلَاسِلِ فِي
وَعَزَّوَتَانِ لِعَبْدِ اللَّهِ وَاحِدَةٍ

وهذا الأسلوب ظاهر غالب في هذه القصيدة ، وقد يصل أحياناً
إلى الغموض ، ولا ترجع الشاعرية إلى البارودي إلا حين يذكّر نفسه
وبلواه ، وانظر كيف يقول وهو يتحدث عن رجائه في نصرة النبي له
يوم المعاد

إِنِّي وَإِنْ مَالِي دَهْرِي وَبَرَحِي
لثَابِتُ الْعَهْدِ لَمْ يَحُلْ قُوَى أَمَلِي
لَمْ يَتْرِكْ الدَّهْرُ لِي مَا اسْتَعِينُ بِهِ
هَذَا يَجْبُرُ مَدْحِي فِي الرِّسُولِ وَذَا

وفي هذه الأبيات الأربعة لونا من التعبير ، أولهما مملوء بالحرارة
لأنه يمثل أمنية دفنتها الحوادث في صدر الشاعر وثانيهما فيه ضعف وفتور
لأنه عاد إلى القصص من جديد . ولعل أغرب ما وقع له من « النظم »
اعتذاره عن افتتاح قصيدته بالنسيب إذ قال في تقديمها للرسول

فَهَا كَمَا يَا رَسُولَ اللَّهِ زَاهِرَةٌ تَهْدِي إِلَى النَّفْسِ رِيًّا الْآسَ وَالْبَرَمَ

وسميتها باسمك العالى فألبسها
غريبة في إسمار البين لو أنست
لم ألزم نظم حبات البديع بها
وانما هي آيات رجوت بها
نثرت فيها فريد المدح فانتظمت
صدورها بنسيب شف باطنه
لم آخذ جزافاً بل سلكت به
تابعت كعباً وحساناً ولي بهما
والشعر معرض الباب يروج به
فلا يلتمني على التشبيب ذو عنت
ويمكن بعد هذا البيان ان تقرر ان قصيدة البارودي يغلب فيها
النظم عند سرد الحوادث ، ويغلب فيها الشعر عند الوصف وعند
مناجاة الوجدان

سميكت يا رسول الله !

وقد اشترك الشعراء الثلاثة البوصيرى والبارودي وشوقي في التسمي
باسم النبي عليه السلام ، وكلهم يرجو أن ينجو بفضل التسمي باسمه ، فنجد
البوصيرى يقول

إن آت ذنباً فما عهدي بمنتقض
فان لي ذمة منه بتسميتي
من النبي ولا حبلي بمنصرم
محمدأ وهو أوفى الخلق بالذم
ونجد شوقي يقول

يا احمد الخير لي جاه بتسميتي
وكيف لا يتسامى بالرسول سمي

ونجد البارودي يقول

خدمته بمديحي فاعتليت على هام السماء وصار السعد من خدمي
وكيف أُرهب ضيماً بعد خدمته وخادم السادة الأجواد لم يُضم
أم كيف يخذلني من بعد تسميتي باسم له في سماء العرش محترم
والبوصيري هو صاحب الفكرة ، وقد تبعه البارودي ، ولحقهما
شوقي ، وتلك مسألة فيها نظر كما يقولون :

البحث الثاني والعشرون

التخلص والاعتضاب

- التخلص هو انتقال الشاعر من فن الى فن بمناسبة ظاهرة ، ويقابله
الاعتضاب ، ويكثر التخلص في شعر المحدثين ، كما يكثر الاعتضاب في
شعر القدماء . قال ابن رشيق : وأولى الشعر بأن يسمى تخلصاً ما تخلص
فيه الشاعر من معنى الى معنى ثم عاد الى الاول وأخذ في غيره ثم رجع
الى ما كان فيه ، كقول النابغة الذبياني في آخر قصيدة اعتذر بها الى
النعمان بن المنذر

وكفكفت مني عبرة فرددتها الى النحر منها مستهل وداعم
على حين عاتبت المشيب على الصبا وقلت ألماً أصبح والشيب وازع
ثم تخلص الى الاعتذار فقال
ولكن هما دون ذلك شاغل
وعيد أبي قابوس في غير كنه
مكان الشَّغاف تبغية الاصابع
أتاني ودوني راكس فالضواجع

ثم وصف حاله عند ما سمع ذلك فقال
فبت كأني ساورتني صنينة من الرقش في أنيابها السم نافع
يُسهد في ليل التمام سليمها حللي النساء في يديه قعاقع
تناذرها الراقون من سوء سمها تطلقه طوراً وطوراً تراجع
فوصف الحية والسليم الذي شبه به نفسه ما شاء، ثم تخلص الى
الاعتذار الذي كان فيه فقال

أتاني - أبيت اللعن - أنك لمتني وتلك التي تستك منها المسامع
ثم اطرء ما شاء من تخلص الى تخلص حتى انقضت القصيدة ..
وقد يقع من هذا النوع شيء يعترض في وسط النسيب من مدح من يريد
الشاعر مدحه بتلك القصيدة ثم يعود بعد ذلك الى ما كان فيه من النسيب،
ثم يرجع الى المدح، كما فعل أبو تمام، وان أتى بمدحه الذي تمادي
فيه منقطعاً، وذلك قوله في وسط النسيب من قصيدة له مشهورة

ظلمتك ظالمة البرى ظلوم والظلم من ذي قدرة مذموم
زعمت هواك عفا الغداة كما عفت منها طول باللوى ورسوم
لا والذي هو عالم ان النوى أجل وأن أبا الحسين كريم
مازلت عن سنن الوداد ولا غدت نفسي على ألف سواك تحوم
ثم قال بعد ذلك

لمحمد بن الهيثم بن شبابة مجد الى جنب السماك مقيم
ويسمى هذا النوع الإلمام، وكانت العرب لا تذهب هذا المذهب
في الخروج الى المدح، بل يقولون عند فراغهم من نعت الابل وذكر
القفار وما هم بسبيله: دع ذا، وعد عن ذا، وبأخذون فيما يريدون، أو

يأتون بان المشددة ابتداءً للكلام الذي يقصدونه ، فاذا لم يكن خروج
الشاعر الى المدح متصلاً بما قبله ولا منفصلاً بقوله : دع ذا وعد عن
ذا ، ونحو ذلك سمي طفرأً وانقطاعاً : وكان البحري كثيراً ما يأتي به
نحو قوله

لولا الرجاء لمت من ألم الهوى لكن قلبي بالرجاء موكل
ان الرعية لم تزل في سيرة عمره مذ ساسها المتوكل
فلننظر بعد ذلك ما اختاره شعراؤنا الثلاثة من التخلص والاقتضاب

أما البوصيري فقد أتر التخلص اذ قال في محاوراة العذول

انى اتهمت نصيح الشيب في عدل	والشيب أبعد في نصيح عن التهم
فان أمّارتي بالسوء ما تعظت	من جهلها بنذير الشيب والهرم
ولا أعدت من الفعل الجميل قرى	صنيف ألم برأسى غير محتشم
لو كنت أعلم اني ما أوقره	كتمت سرّاً بدا لي منه بالكم
من لي بردّ جراح من غوايتها	كما يردّ جراح الخيل باللجم
فلا ترم بالمعاصي كسر شهوتها	إن الطعام يقوى شهوة النهم
والنفس كالطفل إن تهمله شبّ على	حب الرضاع وان تفضمه ينظم
فاصرف هواها وحاذر أن توليه	إن الهوى ما تولى يضم أو يضم
وراعها وهى في الاعمال سائمة	وإن هي استحلّت المرعى فلا تسم
كم حسنت لذة للمرء قاتلة	من حيث لم يدر أن السم في الدسم
واخش الدسائس من جوع ومن شبع	قرب مخمصة شر من التخم
واستفرغ الدمع من عين قدامتلات	من المحارم والزم حمية الندم
وخالف النفس والشيطان واعصها	وان هما محضاك النصيح فاتهم

وَلَا تَطْعُ مِنْهُمَا خَصِمًا وَلَا حَكَمًا فَأَنْتَ تَعْرِفُ كَيْدَ الْخَصْمِ وَالْحَكَمَ
 أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ مِنْ قَوْلٍ بِلاَ عَمَلٍ لَقَدْ نَسَبْتَ بِهِ نَسْلًا لَنِي عُقْمَ
 أَمَرْتُكَ الْخَيْرَ لَكِنْ مَا اثْمَعْتَ بِهِ وَمَا اسْتَقَمْتُ فَمَا قَوْلِي لَكَ اسْتَقَمَ
 وَلَا تَزُودُ قَبْلَ الْمَوْتِ نَافِلَةً وَلَمْ أَصِلْ سِوَى فَرَضٍ وَلَمْ أَصُمْ
 ظَلَمْتُ سَنَةً مِنْ أَحْيَا الظَّلَامِ إِلَى أَنْ اشْتَكَيْتَ قَدَمَاهُ الضَّرَّ مِنْ وَرَمٍ
 وَهَذَا النَّوْعُ مِنَ التَّخْلِصِ غَيْرُ مَقْبُولٍ ، إِذَا لَاحِظْنَا أَنَّهُ تَخْلَصَ مِنَ
 النَّسِيبِ إِلَى الْمَدْحِ ، أَمَا إِذَا لَاحِظْنَا أَنَّهُ تَخْلَصَ مِنَ النَّسِيبِ إِلَى حِسَابِ
 النَّفْسِ ثُمَّ إِلَى مَدْحِ الرَّسُولِ ، فَإِنَّا نَغْفِرُ لَهُ هَذِهِ الْإِطَالَةَ ، لِأَنَّهَا فِي غَرَضٍ
 مِنْ أَغْرَاضِهِ الْإِسَاسِيَةِ ، وَهُوَ الدَّعْوَةُ إِلَى تَهْذِيبِ النَّفْسِ ، وَتَطْهِيرِ الْوُجْدَانِ
 وَمِنْ الْخَيْرِ أَنْ نَذْكُرَ أَنَّ الْبُوصِيرِيَّ لَا يَفْعَلُ ذَلِكَ فِي جَمِيعِ قَصَائِدِهِ ،
 فَقَدْ رَأَيْنَاهُ يُوَاجِهُ الْغَرَضَ بِلاَ مُقَدِّمَةٍ فِي هَمْزِيَّتِهِ فَيَقُولُ :

كَيْفَ تَرُقَى رَقِيَّتُكَ الْإِنْبِيَاءُ يَا سَمَاءُ مَا طَاوَلَتْهَا سَمَاءُ
 لَمْ يَسَاوُوكَ فِي عِلَاقِكَ وَقَدْ حَا لَ سَنًا مِنْكَ دُونَهُمْ وَسَنَاءُ
 إِنَّمَا مَثَلُوا صِفَاتِكَ لِلنَّاسِ سَ كَمَا مَثَلُ النُّجُومِ الْمَاءُ

وَكَاثِمًا جَارَاهُ شَوْقِي فِي افْتِتَاحِ هَمْزِيَّتِهِ فَقَالَ

وُلِدَ الْهَدْيُ فَالْكَائِنَاتُ ضِيَاءُ وَفَمِ الزَّمَانُ تَبَسُّمُ وَثْنَاءُ
 الرُّوحُ وَالْمَلَأُ الْمَلَائِكُ حَوْلُهُ لِلدِّينِ وَالْدُنْيَا بِهِ بُشْرَاءُ
 وَالْعَرْشُ يَزْهَوُ وَالْخَطِيرَةُ تَزْدَهِي وَالْمُنْتَهَى وَالسَّدْرَةُ الْعَصْمَاءُ

وَلَكِنْ أَيْنَ ابْتِدَاءُ شَوْقِي مِنْ ابْتِدَاءِ الْبُوصِيرِيِّ ، إِنْ الْفَرْقُ بَيْنَهُمَا
 لَبَعِيدٌ ، وَإِنْ كَانَ فِي تَعْبِيرِ الْبُوصِيرِيِّ شَيْءٌ مِنَ الْجَفَاءِ ، فِي تَقْدِيرِ الْإِنْبِيَاءِ
 وَأَعُودُ فَأَذْكُرُ أَنِّي اسْتَمْلَحْتُ قَوْلَ الْبُوصِيرِيِّ فِي رِيَاضَةِ النَّفْسِ

واخش الدسائس من جوع ومن شبع

فرب مخصصة شر من التخم

وجمال هذا البيت يرجع الى ما فيه من صدق الدعوة : فان النفس
يضرُّ بها الزهد ، كما يطغىها الترف ، كالجسم ترديه المسغبة ، كما تضره
البطنة . وأستجيد كذلك قوله

أمرتك الخير لكن ما ائتمرت به وما استقممت فما قولك استقم

وحسن هذا البيت يرجع الى سماحة الشاعر ورفقه ، وخلص دعوته
من شوائب الصلف والكبرياء ، وهذا أدب يحتاج الى مثله اطباء النفوس
وقد أثر البارودي أيضاً حسن التخلص اذ قال

ليت القطا حين سارت غدوةً حملت	عني رسائل أشواقى الى إضم
مرت علينا خماصاً وهي قاربةٌ	مرّ العواصف لا تلوي على أرم
لا تدرك العين منها حين تلمحها	إلا مثلاً كالح برق في الظلم
كانها أحرف برقية نبضت	بالسلك فانتشرت في السهل والعلام
لا شيء يسبقها الا اذا اعتقلت	بناتي في مديح المصطفى قلبي

وهذا التخلص مستملح مقبول ، ومُضيُّ الشاعر في وصف القطاة اشارة
للاسلوب القديم الذي نوهنا به في الكلمة الماضية ، ونريد وفقاً لاشارة
استاذنا الدكتور طه حسين أن نقرر أن هذا الاسلوب جزء من الفن
الشعري عند الجاهليين والمخضرمين ومن سائرهم من المحدثين ، وبيان
ذلك ان الشاعر يرى من الفن ان يصف ما يعرض له وصفاً يحيله صورة
شعرية تكاد تستقل عما تتصل به نوعاً من الاستقلال ، وتكون لهذا

الوصف قيمة أي قيمة حين يراد به تأكيد معنى من المعاني المقصودة .

ومن أمثلة ذلك قول أبي صعتر البولاني

فما نطفة من حبٍّ مزنٍ تقاذفتُ به جنبنا الجودي والليل دامسُ
فلما أقرته اللصاب تنفست شمالاً بأعلى مائه فهو فارس
بأطيب من غيها وما ذقت طعمه ولكنني فيما ترى العين فارس

فإن للشاعر من المبالغة في وصف ماء المزن غرضاً خاصاً هو الاشارة
بعذوبة ذلك الثغر الشهي المذاق ، ويمثل هذا قول عاتكة المرية ، وكانت
كما قال صاحب زهر الآداب عشقت ابن عم لها فراودها عن نفسها

وما طعم ماء أي ماء تقوله تحدر عن غُرّ طوال الذوائب
بمنعرج من بطن واد تقابلت عليه رياح الصيف من كل جانب
نفت جرية الماء القذى عن متونه فما إن به عيب تراه لشارب
بأطيب ممن يقصر الطرف دونه تقي الله واستحياء بعض العواقب

فإن لها من وصف الماء في عذوبته وجمال موقعه وحاجة الاعراب
اليه غرضاً خاصاً هو الاشارة بجمال الحياء وطيب العفاف ، ويشبه هذين
المثالين ما أنشده ابن دريد

وما وجد اعراية قذفت بها صروف النوى من حيث لم تك ظنت
تمنت أحاليب الرعاء وخيمة بنجد فلم يقدر لها ما تمت
إذا ذكرت ماء العضاه وطيبه وبرد الحصى من نحو نجد أرنت
بأوجد من وجد بر يا وجدته غداة غدونا غدوة واطمأنت
فإن يك هذا عهد رباً وأهلها فهذا الذي كنا ظننا وظنت

وأورع من هذا قول الـايوردي (١)

وما أم ساجي الطرف مال به الكرى على عذبات الجزع تحسبه قلبا
تراعى باحدى مقلتيها كناسها وترى باخرى نحوه نظراً غربا
فلاح لها من جانب الرمل مرتع كأن الربيع الطلق ألبسه عصبا
فالت اليه والحريص اذا غدت به سورة الاطماع لم يحمد العقبى
وأنسها المرعى الخصب فصادفت مدى العين في أرجائه بلداً خصبا
فلما قضت منه اللبانة راجعت طلاها فالفتة قضى بعدها نجبا
أتيح له عاري السواعد لم يزل يخوض الى أوطاره مطلباً صعبا
فولت على دُعر وبالنفس ما بها من الكرب لا أقيت في حادث كريا
بأوجد مني يوم عجت ركبها لين فلم تترك لذي صبوة لباً
وكان يكفي أن يشبه الشاعر وجده بفراق محبوبته بلوعة الطيبة يغتال
رشأها الذئب ، ولكن هذه الصورة الشعرية التي وضعها للغزاة المروعة
الملتاعة جعلت المعنى أوقع في النفس ، وأملك للقلب ، وأروع للوجدان
ولننتقل بعد ذلك الى شوقي ، وأنا لنراه صدف عن التخلص
وآثر الاقتضاب ، فانتقل فجأة من ذلك النسيب المونق المشرق الى
الحديث عما تضرع الدنيا من المبكيات ، وما تجن من ظلمات الخطوب ،
وتدرج من هذا الى الحديث عن غفلة النفس وقرها الى الاخلاق ،
وكذلك بقول

نفس دنياك تخفي كل مبكية وان بدا لك منها حسن مبتسم

(١) تجد هذه المعاني الوجدانية في كتاب « مدامع العشاق » عند الكلام عن

الطبيعة في انفس الشعراء »

فُضِيَ بِتَقْوَاكَ فَاهَا كُلَّمَا ضَحَكَتْ
مُخْطُوبَةً مُنْذُ كَانَ النَّاسُ خَاطِبَةً
يَفْنَى الزَّمَانُ وَيَبْقَى مِنْ إِسَاءَتِهَا
لَا تَحْفَلِي بِجَنَائِهَا أَوْ جَنَائِهَا
كَمْ نَأْتُمْ لَا يَرَاهَا وَهِيَ سَاهِرَةٌ
طَوْرًا تَمُدُّكَ فِي نَعْمَى وَعَافِيَةٍ
كَمْ ضَلَلْتِكَ وَمَنْ تَحْجِبُ بِصِيرَتِهِ
يَا وَيْلَتَاهُ لِنَفْسِي رَاعِيهَا وَدَهَا
رَكَضَتْهَا فِي مَرِيعِ الْمَعْصِيَاتِ وَمَا
هَامَتْ عَلَى أَثَرِ اللَّذَاتِ تَطْلُبُهَا
صَلَاحُ أَمْرِكَ لِلْإِخْلَاقِ مَرْجِعُهُ
وَالنَّفْسُ مِنْ خَيْرِهَا فِي خَيْرِ عَافِيَةٍ
تَطْفِي إِذَا مَكْنَتْ مِنْ لَذَّةٍ وَهَوًى
إِنْ جَلَّ ذَنْبِي عَنِ الْغَفْرَانِ لِي أَمَلٌ
أَلْقِي رَجَائِي إِذَا عَزَّ الْمَجِيرُ عَلَى
إِذَا خَفَضْتَ جَنَاحَ الذَّلِّ أَسْأَلُهُ
وَإِنْ تَقَدَّمَ ذُو تَقْوَى بِصَالِحَةٍ
لَزِمْتَ بَابَ أَمِيرِ الْأَنْبِيَاءِ وَمَنْ
وَهَذِهِ قِطْعَةٌ مُخْتَارَةٌ، الْجِيدُ فِيهَا أَكْثَرُ وَأَجُودُ مِمَّا يَقَابِلُهُ فِي كَلَامِ
الْبُوصِيرِيِّ، وَإِنْ قَوْلُ شَوْقِي

لَا تَحْفَلِي بِجَنَائِهَا أَوْ جَنَائِهَا الموت بالزهر مثل الموت بالفحم

لا شرف معنى واسمى خيالا من قول البوصيري

واخش الدسائس من جوع ومن شبع قرب مخمصة شر من التخم
ولك أن تلاحظ أن البوصيري وقف موقف الناصح الأمين ، فلما
وصل الى نفسه ذكر أنه لم يصل ولم يصم سوى الفرض ، وأنه يأسى
على أن لم يتزود نافلة قبل الموت ، وأنه لذلك ظلم سنة من أحيا الظلام حتي
تورمت قدماءه ، ومن هنا لم تكن الفرصة سانحة ليزدرف ما ذرف شوقي
من الدمع . وأين شوقي من البوصيري ! لقد كان البوصيري من أئمة
الصوفية ، أما شوقي فقد كان حين نظم قصيدته من رجال البلاط ، وكان
يحسن أن يقول

رمضان ولي هاتها ياساقي مشتاقة تسمى الى مشتاق
ومن هنا سنحت له الفرصة ليزفر تلك الزفرة الحارة ، ويرمى بذلك
الندم الموجه الذي يذيب لفائف القلوب ، وانظر كيف يقول
ان جل ذنبي عن الغفران لي أمل في الله يجعلني في خير معتصم
وكان شوقي أوفر الناس احساساً بخطره وكرمه حين قال
وان تقدم ذو تقوى بصالحة قدمت بين يديه عبرة الندم
« قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله
ان الله يغفر الذنوب جميعاً انه هو الغفور الرحيم »

البحث الثالث والعشرون

« المعجزات »

لنا في المعجزات رأي خاص ، لا يسمح به ظرف الزمان ، لان درس المعجزات بطريقة علمية يتطلب عرض ما يحيط بها من الحقائق والفروض ، وقد يثير هذا فتنة نحن عنها أغنياء ، فلنذكر فقط ما يتصل بما ذكره البوصيري وشوقي والبارودي من معجزات النبي عليه السلام ، ولنذكر قبل ذلك ان القرآن يفيض بالتدمر من إلحاح المعاندين ولجاجتهم في طلب المعجزات ، إذ كان النبي يدعو الى تحكيم العقل ، وكان أولئك الكفار يأبون الا أن تكون الرسالة مصحوبة بألعاب بهلوانية ، تنفر منها القلوب ، وتأبأها العقول ، وتنبوعها الاذواق ، ولننظر كيف يقول فيهم عز شأنه وتبارك اسمه في سورة الاسراء (قل لئن اجتمعت الانس والجن على ان يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً ، ولقد صرّفنا للناس في هذا القرآن من كل مثل فأبى أكثر الناس الا كفوراً ، وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الارض ينبوعاً ، أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الانهار خلالها تَفْجيراً ، أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفاً أو تأتي بالله والملائكة قبيلاً ، أو يكون لك بيت من زخرف ، أو ترقى في السماء ، ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتاباً نقرؤه ، قل سبحان ربي هل كنت الا بشراً رسولا) — وهذه الآيات صريحة في ان النبي لا يملك لنفسه شيئاً ، وأن الامر كله لله ، وان في القرآن

هَدَى وتبصرة لقوم يعقلون ، وأصرح من هذا قوله تعالى في سورة
العنكبوت (وقالوا لولا أنزل عليه آيات من ربه ، قل إنما الآيات عند
الله وإنما أنا نذير مبين ، أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم ؟
إن في ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون) — ومعنى هذه الآيات أن
معجزة النبي الباقية هي القرآن ، وفي تأييد ذلك يقول البوصيري :

آيات حق من الرحمن محدثة قديمة صفة الموصوف بالقدم
لم تقترن بزمان وهي تخبرنا عن المعاد وعن عاد وعن إرم
دامت لدينا ففاقت كل معجزة من النبيين إذ جاءت ولم تدم
وتبعه شوقي فقال :

جاء النبيون بالآيات فانصرفت وجئتنا بحكيم غير منصرف
آياته كلما طال المدى جدد يزينهن جلال العتيق والقدم
يكاد في لفظة منه مشرفة يوصيك بالحق والتقوى وبالرحم
ويمكن بعد هذا أن نقرر أن شعراءنا الثلاثة لم يهتموا بنقد الأخبار
الواردة في المعجزات ، وإن كان شوقي على شيء من الحرص ، ويليهِ
البوصيري ، أما البارودي فقد نظم كل ما صادفه من هذا القبيل ، وقد
اشترك البوصيري والبارودي في الحديث عن سجود الأشجار ، وسعياها
إلى الرسول ، فقال البوصيري

جاءت لدعوته الأشجار ساجدة تمشي إليه على ساق بلا قدم
كأنما سطرت سطرًا لما كتبت فروعها من بديع الخط بالقم
وقال البارودي

أ تلك أم حين نادى مريحة فأتت إليه منشورة الأغصان كالجم

حَنَّتْ عَلَيْهِ حُنُوُّ الْأُمِّ مِنْ شَفَقٍ وَرَفَرَتْ فَوْقَ ذَاكَ الْحَسَنُ مِنْ رَحْمٍ -
جَاءَتْهُ طَوْعًا وَعَادَتْ حِينَ قَالَ لَهَا عَوْدِي وَلَوْ خَلَّيْتُ لِلشُّوقِ لَمْ تَرِمِ -
وَانْفَرَدَ الْبَارُودِي بِالْحَدِيثِ عَنْ شَقِّ صَدْرِ النَّبِيِّ وَهُوَ غَلَامٌ فَقَالَ

فَبَيْنَمَا هُوَ يَرْعَى الْبِهِمَ طَافَ بِهِ شَخْصَانُ مِنْ مَلَكَوَاتِ اللَّهِ ذِي الْعَظَمِ
فَأَضْجَعَاهُ وَشَقَا صَدْرَهُ بِيَدٍ رَفِيقَةٍ لَمْ يَبْتَ مِنْهَا عَلَى أَلَمٍ -
وَبَعْدَ مَا قَضَى مِنْ قَلْبِهِ وَطَرًا تَوَلَّىَا غَسَلَهُ بِالسَّلْسِلِ الشَّبِيمِ
مَا عَاجَلَا قَلْبَهُ إِلَّا لِيَخْلَصَ مِنْ شَوْبِ الْهَوَى وَيُعِي قَدْسِيَةَ الْحِكَمِ
فِيَالِهَا نِعْمَةً لِلَّهِ خَصَّ بِهَا حَبِيبَهُ وَهُوَ طِفْلٌ غَيْرُ مُحْتَمِلِ
وَشَقَّ الْمَلَائِكَةُ لَصَدْرِ النَّبِيِّ وَغَسَلُوهُ أَيْاهُ بِالسَّلْسَبِيلِ لَيْسَ مِنَ الْمُعْجَزَاتِ

لَا أَنَّ الْمُعْجَزَةَ تَسْكُونُ لِلْإِقْنَاعِ ، وَهُوَ لَا يَدْعُ إِلَى رَبِّهِ فِي طِفُولَتِهِ حَتَّى يَكُونَ
لِلْإِقْنَاعِ مَجَالٌ ، وَأَمَّا هُوَ نَوْعٌ مِنَ التَّطْهِيرِ لَمْ تَجْرِبْهُ الْعَادَةُ وَلَمْ يَعْرِفْهُ النَّاسُ ،
وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ ، وَقَدْ مَرَّ الْبَارُودِي بِهَذِهِ الْأَسْطُورَةِ مَرَّةً
الطَّيْفَ ، فَلَمْ يَعْزُضْ لَهَا بِنَقْدٍ وَلَمْ يَتَنَاوَلْهَا بِتَحْلِيلٍ ، وَنَحْنُ نَسْكُتُ فِي هُنَا بِأَنَّ
نَقَرَّ أَنَّهَا فِي حَاجَةٍ إِلَى تَحْقِيقٍ ، ثُمَّ نَلْتَفِتُ إِلَى مَا فِيهَا مِنْ رَوْعَةِ الْخَيَالِ ،
فَقَدْ صُوِّرَ النَّبِيُّ فِيهَا صُورَةً رَائِعَةً ، وَتَمَثَّلَ فِيهَا لَطْفُ اللَّهِ بِهِ ، وَاحْسَانُهُ إِلَيْهِ
وَتَسْكِرَتُهُ أَيْاهُ ، وَهِيَ صُورَةٌ شَعْرِيَّةٌ نَحْبُ أَنْ نَمْتَعَ بِهَا الْقَارِئُ ، لِيَرَى كَيْفَ
ابْتَدَأَ الْقَصَصُ فِي سِيرَةِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ ... ذَكَرَ مُحَمَّدُ بْنُ ظَفَرٍ مِنْ
حَدِيثٍ طَوِيلٍ أَنَّ النَّبِيَّ قَالَ

« وَكُنْتُ مُسْتَرْضَعًا فِي بَيْتِ سَعْدِ بْنِ بَكْرٍ ، فَبَيْنَمَا أَنَا ذَاتَ يَوْمٍ مُنْتَبِذٌ
مِنْ أَهْلِي فِي بَطْنِ وَادٍ مَعَ أَرَابِلِي مِنَ الصَّبِيَّانِ إِذَا أَنَا بِرَهْطٍ ثَلَاثَةٍ مَعَهُمْ
طَشَتْ بِرَهْزَةٍ مِنَ الذَّهَبِ مَلَانٌ ثَلَاثًا ، فَأَخَذُونِي مِنْ بَيْنِ أَصْحَابِي ،

وانطلق اصحابي هرباً حتى انتهوا الى شفير الوادي ثم أقبلوا على الرهط وقالوا: ما أربكم من هذا الغلام، فانه ليس منا، هذا ابن سيد قريش، وهو مسترضع فينا من غلام يتيم ليس له أب، فإيرد عليكم قتله، وماذا تصيبون من ذلك. فان كنتم لا بد قاتليه فاخترأوا منا أينما شئتم فليأتكم مكانه فاقتلوه ودعوا هذا الغلام فانه يتيم، فلما رأى الصبيان ان القوم لا يحIRON جواباً انطلقوا مسرعين الى الحي يؤذنونهم ويستصرخونهم على القوم قال فعمد أحدهم فاضجعني الى الارض إضجاعاً رقيقاً ثم شق بطني ما بين مفرق صدري الى عاني، وانا انظر اليه، ولم أجد لذلك مساً ثم أخرج احشاء بطني فغسلها بذلك الثلج فأنعم غسلها، ثم أعادها الى مكانها، ثم قام الثاني منهم فقال لصاحبه: تنح عنه، فنحاه عني، ثم أدخل يده في جوفي فأخرج قلبي وانا انظر اليه، فصدعه ثم أخرج منه مضغة سوداء فرمى بها، ثم أمر يده يمينه منه، وكأنه يتناول شيئاً، فاذا بخاتم من نور في يده يحار الناظرون اليه نختم به قلبي فامتلاً نوراً، وذلك نور النبوة والحكمة، ثم أعاده مكانه فوجدت برد الخاتم في قلبي دهرأ، ثم قال الثالث تنح عنه، فنحاه عني، فأمر يده على مفرق صدري الى منتهى غايقي، فالتأم ذلك الشق باذن الله تعالى، ثم أخذ بيدي فانهضني من مكاني انهاضاً لطيفاً ثم قال للاول الذي شق بطني: زنه بعشرين من أمته فوزني فرجحتهم ثم قال: زنه بمائة من أمته، فوزني فرجحتهم، ثم قال زنه بالف من أمته فوزني فرجحتهم، ثم قال دعه فوالله لو وزنته بامته لرجحتهم! قال ثم ضموني الى صدورهم، وقبلوا رأسي وما بين عيني، ثم قالوا: لا تُرع! فانك لو تدري ما يراد بك من الخير لقرت به عيناك! قال فبينما نحن كذلك

اذ اقبل الحي بحذافيرهم ، فاذا ظئرى امام الحي تهتف باعلى صوتها وتقول
واضعيفاه ! فانكبوا على وضمونى الى صدورهم ، وقبلوا رأسي وما بين عيني
— يعني الملائكة — وقالوا : حبذا أنت من وحيد ! وما انت بوحيد :
ان الله معك وملائكته والمؤمنين من أهل الارض ! ثم قالت ظئرى :
وايتيما ! ! استضعفت من بين اصحابك ، فقتلت لضعفك ! قال فانكبوا
على وضمونى الى صدورهم ، وقبلوا رأسي وما بين عيني — يعني الملائكة —
وقالوا : حبذا أنت من يتيم ! ما اكرمك على الله ! لو تعلم ما يراد بك من
الخير ثقلت به عيناك ! فوصل الحي الى شفير الوادى فلما ابصرتنى أمي
— وهي ظئري — قالت لا أراك الا حياً بعد ! فجاءت حتى انكبت على
ثم ضمتنى الى صدرها ، فوالذي نفسي بيده انى لفي حجرها قد ضمتنى اليها
وان يدى لفي بد بعض الملائكة ، وجعل القوم لا يرونهم ، قال : فقال بعض
القوم : ان هذا الغلام قد أصابه لم أو طائف من الجن ، فانطلقوا به الى
كاهننا حتى ينظروا له ويداويه ، فقلت يا هذا ما بي شيء مما تذكرون ، ان
آرابي لسليمة وفؤادي صحيح ، ليست لي فلة ، فقال أبي -- وهو زوج
ظئري -- ألا ترون كلامه كلام فصيح ؟ انى لأرجو أن لا يكون بابني بأس
فاتفقوا على أن يذهبوا بي الى الكاهن ، فلما انصرفوا بي قصوا عليه قصتى
فقال اسكتوا حتى أسمع من الغلام ، فانه هو أعلم بأمره منكم ، فسألتني فقصصت
عليه القصة ، وأمرني من أوله الى آخره ، فوثب إلى وضمني إلى صدره
ثم نادى بأعلى صوته : يا للعرب ! اقتلوا هذا الغلام واقتلوني معه افواللات
والعزى لئن تركتموه وأدرك ليبدان دينكم ، وليسفهن عقولكم ، وعقول
آبائكم ، وليخالفن أمركم ، وليأتينكم بدين لم تسمعوا بمثله ! قال : فعمدت

ظئري اليه فانزعني من حجره وقالت : لا أنت أعته وأجن ! ولو علمت
أن هذا من قولك لما أتيتك به ، فاطلب لنفسك من يقتلك ، فإننا غير
قاتلي هذا الغلام ! ثم احتملوني وأدوني الى أهلهم وأصبحت مفزعاً مما فعل
بي ، وأصبح أثر الشق ما بين صدري الى منتهى عانتي كأنه الشراك (١)
وقد نقلنا هذا الحديث على طوله لتمكن القاريء من تقده وتمييزه
ولنجعله على بينة من الحكم له أو عليه ، ان شاء ، أما نحن فتريننا فيه
عبارته ، اذ كانت عبارة ضعيفة لا تسمو الى ما في صحيح الحديث من
متانة التركيب ، وحلاوة التعبير ، ويريننا بنوع خاص مفتتح الحديث فان
طريقة القصص التي سلكها قد تدل على أنه موضوع ، وذلك قوله « روى
شداد بن أوس قال : بينا نحن جلوس مع النبي صلى الله عليه وسلم اذ
أقبل شيخ من بني عامر وهو مدبره قومه ، يتوكأ على عصاه ، فمثل بين
يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم ونسبه الى جده فقال : يا بن عبد المطلب
اني انبئت أنك تزعم أنك رسول الله صلى الله عليه وسلم الى الناس ، وأن
الله تعالى أرسلك بما أرسل به ابراهيم وموسى وعيسى وغيرهم من الانبياء
والخلفاء ، ألا وانك تفوهت بعظيم ! انما كانت الانبياء والخلفاء في بيتين
من بني اسرائيل ، وأنت ممن يعبد الحجارة والأوثان ، فمالك والنبوة ؟
ولكن لكل حق حقيقة ، فانبئني بحقيقة قولك ، وبدو شأنك ! قال :
فأعجب النبي بمسأله ، ثم قال يا أخا بني عامر ، ان لهذا الحديث الذي
سألتني عنه نبأ عظيماً ومجلساً كريماً الخ »
فان القاريء يرتاب على الأقل في صحة هذه الجملة « اني انبئت أنك

تزعّم أنك رسول الله صلى الله عليه وسلم الى الناس » فان كلمة صلى الله عليه وسلم لا تقال لمن « يزعم » أنه رسول . وعبارة « فأنبئني بحقيقة قولك وبدو شأنك » عبارة مولدة ، ولا ريب في ذلك . وما أظن النبي يقول « ان لهذا الحديث الذي سأنتنى عنه نبأ عظيماً ، ومجلساً كريماً » فان هذا أيضاً من تعابير المولدين ، ولكل عصر أسلوب

أكتفي بهذا في نقد هذه الاقصوصة ، وأترك للمشتغلين بعلم الحديث تقديمها الى محكمة التعديل والتجريح ، وأكل الى استاذنا الدكتور طه حسين تأريخ هذا النوع من البيان ، وأنتقل الى ما ذكره من العجائب عند ميلاد الرسول ، كاصداع ايوان كسرى ، وخود نار الفرس ، ونضوب بحيرة ساوة ، وما الى ذلك من خوارق العادات ، قال البوصيري في البردة

أبان مولده عن طيب عنصره	يا حسن مبتدأ منه ومختتم
يوم تفرس فيه الفرس انهمو	قد أنذروا بحلول البؤس والنقم
وبات ايوان كسرى وهو منصدع	كشمل اصحاب كسرى غير ملتئم
والنار خامدة الانفاس من أسف	عليه والنهر ساهي العين من سدم
وساء ساوة ان غاضت بحيرتها	وردّ واردها بالغيظ حين ظمى
كأن بالنار ما بالماء من بلل	حزناً وبالماء ما بالنار من ضم
والجن تهتف والانوار ساطعة	والحق يظهر من معنى ومن كلم
عمّوا وصمّوا فاعلان البشائر لم	تسمع وبارقة الانذار لم تسم
من بعد ما أخبر الاقوام كاهنهم	بأن دينهم المعوج لم يقم
وبعد ما عاينوا في الافق من شهب	منقضة وفق ما في الارض من صنم
حتى غدا عن طريق الحق منهزم	من الشياطين يقفوا إثر منهزم

وقال في الهمزية :

وتداعي ايوان كسرى ولولا
 آية منك ما تداعي البناء
 وغدا كل بيت نار وفيه
 كربة من خمودها وبلاء
 وعيون للفرس غارت فهل كا
 ن لنيرانهم بها إطفاء
 ويقول شوقي في نهج البردة
 واخل كسرى واواناً يدل به
 هوى على أثر النيران والأيم
 ويقول في الهمزية

ذعرت عروش الظالمين فزلزلت
 وعلت على تيجانهم أصداء
 والنار خاوية الجوانب حولهم
 خمدت ذوائبها وغاض الماء
 والآي تترى والخورق حمة
 جبريل رواح بها غداء
 ويرى القارى أن البوصيري أكثر من شوقي إشادة بتلك الخوارق،
 وشعره فيها يفيض بالحياة، أما شوقي فقد آثر الحيلة وهو يتكلم عن
 هذه الموضوعات، فكان شعره فيها أضعف من شعره في سائر أغراض
 القصيدة، وسنرى تحليله لفريضة الجهاد في الكلمة الآتية.

ويمكن بعد هذا أن نحكم بأن شعر البوصيري أروع من شعر شوقي
 في وصف الخوارق والمعجزات، وأن شوقي أبعد نظراً من البوصيري في
 نقد الاخبار والآثار، فإن انصداع الايوان، وخمود نار الفرس، ونضوب
 بحيرة ساوة، وانقضاء الشهب على الاصنام: كل هذه الحوادث فيها
 نظر، وكلها في حاجة الى تمحيص، ولكن أكثر الناس لا يعلمون

البحث الرابع والعشرون

— وصف القرآن —

لم يمن البارودي بوصف القرآن كما عني به البوصيري وشوقي ، أما البوصيري فقد قال :

دعني ووصفي آيات له ظهرت ظهور نار القرى ليلاً على علم
فالدر يزداد حسناً وهو منتظم وليس ينقص قدراً غير منتظم
فما تطاول آمال المديح الى مافيه من كرم الاخلاق والشم
وأول هذه الايات فيه شيء من السذاجة . وعبارة « دعني ووصفي آيات له ظهرت » عبارة عامية . وقوله

فالدر يزداد حسناً وهو منتظم وليس ينقص قدراً غير منتظم
غير واضح المدلول ، لان الدر الذي يتحدث عنه لا يصح ان يكون صفة القرآن ، لانه لا يهم بنظم القرآن ، ولا يصح أن يكون صفة لتقريظ القرآن ، اذ لم تسبق ذلك اشارة ولم يتقدمه دليل ، فلم يبق إلا أن تكون هذه خطرة عرضت للشاعر وعز عليه أن تضيع ، فقيدها في ذلك البيت وهو في ذاته بيت جميل ... أما قوله

فما تطاول آمال المديح الى مافيه من كرم الاخلاق والشم
فهو بيت يمدح به شخص ، ولا يقرظ به كتاب ، وقد كان الشاعر يرمي الى وصف القرآن بأنه دعوة الى محاسن الشم ومكارم الاخلاق ، وليكنه لم يوفق الى حسن الاداء ... وقوله بعد ذلك

آيات حق من الرحمن محدثة قديمة صفة الموصوف بالقدم
لم تقترن بزمان وهي تخبرنا عن المعاد وعن عاد وعن إرم
فيه إشارة الى ما اختلف فيه المتكلمون عن قدم القرآن وحدوثه ،
وهي إشارة مبهمه لا تغنى في دفع ولا تأييد ، والبيت الثاني غير جيد
المعنى ، لان أخبار القرآن عن عاد وعن إرم ، ليس حجة الا عند المسلمين ،
أما جمهور العالم فلا يصدق من أخبار العهود الاولى غير ما تشهد به
الآثار ، بعد أمن اللبس والتزوير ... أما قوله

دامت لدينا ففاقت كل معجزة من النبيين اذ جاءت ولم تدم
فهو بيت القصيد ، اذ كان القرآن هو المعجزة الباقية ، وكان هو
المرجع حين يجد الخلاف ، وهو أيضاً المعجزة الصريحة التي يعتز بها العقل
ويصح للمسلمين أن يواجهوا بها العالم غير مترددين ، أما نبع الماء من
بين يدي الرسول ، وتظليل الغمام اياه ، وسجود الاشجار له ، وما الى
ذلك من المعجزات ، فهي مسائل يحتاج عرضها الى مخاطرة ، وهي مخشية
الضرر ، قبل أن تكون مرجوة النفع ، ولكن أكثر الناس لا يفقهون
وقوله :

ما حوربت قط الاعاد من حرب

أعدى الاعادى اليها ملقى السلم

ردت بلاغتها دعوى معارضها

رد الغيور يد الجاني عن الحرم

كلمة صدق ، ويكفى ان تقرأ القرآن بحميدة ونزاهة لتلمس هذه
الحقيقة ، فالقرآن كتاب خطر رهيب ، يحمل عدوه على الايمان به ،

والخشوع لديه ، ولو صحت - لا صحت - أراجيف الملحدين من أن
القرآن من إنشاء محمد بن عبد الله لكان محمد هذا أعظم رجل شهد هذا
الوجود « وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه يمينك إذا
لارتاب المبطلون . بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم وما يجحد
بآياتنا الا الظالمون » وما أصدق قول البوصيري في آيات الكتاب العزيز
لها معان كموج البحر في مددٍ وفوق جوهره في الحسن والقيم
فما تُعدُّ ولا تُحصى عجائبها ولا تُسام على الإكثار بالسام
قرت بها عين قاريها فقات له لقد ظفرت بحبل الله فاعتصم
إن تتلها خيفة من حر نار لظى أطفأت نار لظى من وردها الشيم
لا تعجبن لحسود راح ينكرها تجاهلاً وهو عين الحاذق الفهم
قد تنكر العين ضوء الشمس من رمد وينكر الفم طعم الماء من سقم
وهذا البيت الأخير من فرائد الأمثال ، وهو غاية في تقرير
المكابرين . . . أما شوقي فقد قال :

جاء النبيون بالآيات فانصرفت وجئتنا بحكيم غير منصرم
آياته كلما طال المدى جُدُّ يزينهن جلال العتق والقدم
يكاد في لفظة منه مشرفة يوصيك بالحق والتقوى وبالرحم
وهذا الوصف على إيجازه جميل ، وكنت أود أن لا يكتفي شوقي
في وصف القرآن بهذه الآيات . . . وقد انتقل الى الإشادة بحديث
النبي فقال :

يا أفصح الناطقين الضاد قاطبةً حديثك الشهد عند الذائق الفهم
خلت من عطل جيد البيان به في كل منتشر في حسن منتظم

بكل قول كريم أنت قائله
تحي القلوب وتحبي ميت الهمم
وقول شوقى

آياته كلما طال المدى جدده
يزينهن جلال العتق والقدم
أروع من قول البوصيري

فما تعد ولا تحصى عجائبها
ولا تسام على الاكثار بالسأم
وقول البوصيري

ان تتلها خيفة من حر نار لظى
أطفأت حر لظى من وردها الشيم
فيه ضعف ، لأنه ينقل القرآن من الغرض الذى أنزل لأجله ، وهو
تهذيب النفوس ، وثقيف العقول ، الى غرض ضئيل ، هو اتخاذه ورداً
من أوراد الصباح أو المساء ، كما فعل المتأخرون ؛ وقوله

حليت من عطل جيد البيان به
في كل مبتثر فى حسن منتظم
غير جيد المعنى ، وهو لا يزيد عن قول بعض الناس « أما القرآن فهو
زينة البيان ، وقلائد العقيان » وعيب هذا النوع من الوصف يرجع الى
ما فيه من الشمول ، وجودة الوصف لا تتم الا بتحديد الموصوف
« وصف الهيجاء »

عنى العرب كثيراً بوصف الحرب ، فأفاض شعراؤهم في الاشادة
بذكر الغزاة ، والتمدح بآثار المجاهدين. وهذا كتاب الحماسة شاهد عدل
على تلك النزعة الحربية التي سيطرت على نفوس العرب زمناً غير قليل ،
فقد اختار أبو تمام قطعاً قليلة في الحديث عن أدب النفس ومكارم الاخلاق ،
وفعل مثل ذلك في الفكاهات والملح والنسيب ، ثم ملأ كتابه بالحماسة
والهيجاء والمدح : وهي الفنون التي تترجم النفس العربية ، وتكشف عما

فيها من مطوى النوازع ، ومكنون الميول ، وكذلك مهتد السبيل
لشعرائنا الذين أرادوا التنويه بما خاض النبي من المعارك ، وما اقتحم من
الحروب ، وإن اختلفت مناحيهم في وصف الهيجا.

أما البوصيري فقد تحدث عن الحرب بطريقة مجملة ولم يميز بعض
الغزوات عن بعض وهو يتكلم عن أخبار القتال ، فوصفه للحرب
وصف فضفاض يصاح لبوساً لكل موصوف . وانظر كيف يقول

راعت قلوب العدا أنباء بعثته	كسبأة أجفلت غفلاً من الغنم
ما زال يلقاهم في كل معترك	حتى حكوا بالقنا لهما على وضم
ودوا الفرار فكادوا يغبطون به	أشلاء شالت مع العقبان والرخم
تمضي الليالي ولا يدرون عدتها	ما لم تكن من ليالي الأشهر الحرم
كأنما الدين ضيف حل ساحتهم	بكل قرم إلى لحم العدا قرم
يجر بحر خميس فوق سباحة	يرمي بموج من الأبطال ملتطم
من كل منتدب لله محتسب	يسطو بمستأصل للكفر مصطلم
حتى غدت ملة الاسلام وهي بهم	من بعد غربتها موصولة الرحم
وانه ليحسن ان نسجل اعجابنا بقوله في وصف المجاهدين من	

اصحاب الرسول

هم الجبال فصل عنهم مصادمهم	ماذا رأى منهمو في كل مصطدم
وسل حنيناً وسل بدرأ وسل أهدأ	فصول حتف لهم ادهى من الوخم
المصدري البيض حمراً بعد ماوردت	من العدا كل مسود من اللمم
والسكاكين بسمر الخط ما تركت	أقلامهم حرف جسم غير منعجم
شاكي السلاح لهم سيما تميزهم	والورد يمتاز بالسيما من السلم

تهدي اليك رياح النصر نشرهمو فتحسب الزهر في الأكام كل كمي
وقد يستضعف قوله

كأنهم في ظهور الخيل نبت ربي من شدة الحزم لا من شدة الحزم
طارق قلوب العدا من بأسهم فرقا فما تفرق بين البهم والبهم
أما البارودي - جعل الله له اسان صدق في الآخرين - فقد وصف
الحرب وصفا حيا صارخا يبعث ميت العزم ، ويشير مدفون الصيال ،
وما ظنك بجندي سفاح نشأ في أرض الفراعنة الذين هموا ببناء الصروح
الشوامخ ليبلغوا أسباب السموات ، وليحاربوا المقتدر القهار ، وانه لضلال
أجل من الهدى ، وغى أهدي من الرشاد :

ولننظر كيف يقول

قام النبي لنصر الحق معترما تبدو به البيض والقسطال منتشرة
بجحفل لجموع الشرك مخترم كالشهب في الليل أو كالنار في الفحيم
لمع السيوف وتصلال الخيول به كالبرق والرعد في مغدودق هزم
عمرم ينسف الأرض الفضاء اذا سرى بها ويدك الهضب من خيم
فيه الحكمة التي ذلت لعزتها معاطس لم تذلل قبل بأخطم
من كل معترم بالصبر محتزم للقرف ملتزم في البأس مهترم
طالت بهم هم نالوا السماك بها عن قدرة وعلو النفس بالهمم
بيض أساورة غلبت تساورة شكس لدى الحرب مطعمون في الأزم
طابت نفوسهم بالموت اذ علموا ان الحياة التي يبعون في العدم
ساسوا الجياد فظلت في أعنتها طوع البنانة في كرم ومقتحم
تكاد تفقه لحن القول من أدب وتسبق الوحي والاياء من فهم

كأن أذناها في السكر ألوية
 من كل منجرد يهوى بصاحبه
 والبيض ترجف في الأغما من ظمأ
 من كل مطرد لولا علائقه
 كأنه أرقم في رأسه حمة
 فلم يزل سائراً حتى أناف على
 ولقهم بخميس لو يشد على
 فأقبلوا يسألون الصفح حين رأوا
 ريعوا فذلوا، ولو طاشوا لو قرم
 وهذه صورة شعرية قليلة المثال، وإنك لتعجب حين ترى
 البارودي يفتن في تصوير الحرب وهو يتحدث عن الغزوات غزوة
 غزوة، وانظر كيف يقول مثلاً في يوم بدر

يوم تبسم فيه الدين وانهملت
 أبلى علي به خير البلاء بما
 وجال حمزة بالصمصام يكسؤهم
 وغادر الصحب والانصار جمعهم
 تقسمتهم يد الهيجاء عادلة
 كأنما البيض بالأيدي صوالجة
 لم يبق منهم كمي غير منجدل
 فما مضت ساعة والحرب مسفرة
 قد أمطرتهم سماء الحرب صائبة
 على الضلال عيون الشرك بالسجيم
 حباه ذو العرش من بأس ومن هم
 كساً يفرق منهم كل مزدحم
 وليس فيه كمي غير منهزم
 فالهام للبيض والأبدان للرخم
 يلعبن في ساحة الهيجاء بالقيم
 على الرغام وعضو غير منحطم
 حتى غدا جمعهم نهياً لمقتسم
 بالمشرفية والمراف كالرجم

فأين ما كان من زهو ومن صلف
جاءوا ولا شر وسم في معاطسهم
وأين ما كان من نخر ومن شمم
فأرغموا والردى في هذه السيم
من عارض الحق لم تسلم مقاتله
أما شوقي فقد وصف النبي في الحرب وصفاً رقيقاً لا يلائم ما تقضي
به الحرب من غلبة الغضب وشمول العيوس ، ولننظر كيف يقول

البدر دونك في حسن وفي شرف
شُمُ الجبال اذا طاولتها انخفضت
والليث دونك بأساً عند وثبته
تهفو اليك وان أدميت حبتها
محبة الله ألقاها وهييته
كأن وجهك تحت النقع بدر دجى
بدره تطلع في بدر فغرته
وهذا شعر جميل ، لكنه أرق من أن يوصف به ذوو البأس وهم

يقارعون الهول في ميدان الجلاد . وبمعجني قوله في وصف الغزاة
ترى بأسد ويرى الله بالرجم
له مستقتل في الله معترم
شوقاً على سابع كابرق مضطرم
بعزمه في رحال الدهر لم يرم
من أسيف الله لا الهندية الخزم
من مات بالعهد أو من مات بالقسم
تفاوت الناس في الأقدار والقيم

مهما دعيت الى الهيجا قت لها
على لوائك منهم كل منتقم
مسيح للقاء الله مضطرم
لو صادف الدهر ينبغي نقلة فرمى
بيض مفاليل من فعل الحروب بهم
كم في التراب اذا فتشت عن رجل
لولا مواهب في بعض الأنام لما

(حكمة الجهاد)

لم يفصح البوصيري عن السر في مشروعية القتال ، وأشار إليها
البارودي اشارة خفيفة حين قال :

ذاقوا الردى جرعا فاستسلموا جزعا للصالح والحرب مرقاة الى السلم

أما شوقي فقد أبان عن حكمة الجهاد ، وأفصح عنها افصاحا يرضي
المنصف ويكبح جهل المعاند الكنود ، ولننظر كيف يقول

قالوا غزوت ورسل الله ما بعثوا لقتل نفس ولا جاءوا لسفك دم

جهل وتضليل احلام وسفسطة فتمتحت بالسيف بعد الفتح بالقلم

لما أتى لك عفوا كل ذي حسب تكفل السيف بالجهال والعم

والشر ان تلقه بالخير ضقت به ذرعا وان تلقه بالشر ينحسم

وقد رأى لتأييد حجته أن يضرب المثل بالمسيحية ، فقد كانت دين

سلام واخاء ، وليكنها لم تقم إلا بالسيف ، وفي هذا يقول

سل المسيحية الغراء كم شربت بالصاب من شهوات الظالم الغليم

طريدة الشرك يؤذيها ويوسعها في كل حين قتالا ساطع الحدم

لولا حماة لها هبوا لنصرتها بالسيف ما انتفعت بالرفق والرحم

ثم عاد الى تأكيد فضيلة الجهاد فقال

علمتهم كل شيء يجهلون به حتى القتال وما فيه من الذم

لولا لم نزل للدولات في زمن ما طال من عمد أوقر من دعم

تلك الشواهد ترى كل آونة في العصر الغر لا في العصر الدهم

بالامس مالت عروش واعتلت سرر لولا القذائف لم تثلم ولم تصم

— المدنية الاسلامية —

وقد انفرد شوقي بالافصاح عن جلال المدنية الاسلامية ، وتقديعها

على مدنية المصريين واليونان والرومان ، وفي ذلك يقول

دع عنك روما وآتيننا وما حوتا كل اليواقيت في بغداد والتوّم
وخل كسرى وإيواناً يدلّ به هوي على أثر النيران والأئم
واترك رعمسيس ان الملك مظهره في نهضة العدل لافي نهضة الهرم
دار الشرائع روما كلما ذكرت دار السلام لها ألفت يد السلم
ماضارعها بياناً عند ملتأم ولا حكنها قضاء عند مختصم
ولا احتوت في طراز من قياصرها على رشيد ومأمون ومعتصم
من الذين اذا سارت كتائبهم تصرّفوا بحدود الارض والتخم
ويجلسون الى علم ومعرفة فلا يُدّانون في عقل ولا فهم
يطاطي، العلماء الهام ان نبسوا من هيبة العلم لامن هيبة الحكم
وقد مضى الشاعر في وصف خلفاء الاسلام ، وما كان لهم من الاثر

في حيطة الدين ، ولا يجبني من ذلك كله غير قوله

واترك رعمسيس ان الملك مظهره في نهضة العدل لافي نهضة الهرم
فانه من فرائد الامثال ... ولنسجل بعد هذه الموازنة المفصلة ان
البوصيري سما في المدائح النبوية سمواً لم يوفق الى معشاره في سائر شعره
وهذا أثر لصدق العاطفة ، بخلاف صاحبيه فان شعرهما في هذا الباب
دون ما يعرف الناس لهما من الشعر البليغ ، وصدق شوقي حين قال

المادحون وأرباب الهوى تبع لصاحب البردة الفيحاء ذي القدم
مديحه فيك حب خالص وهوى وصادق الحب يملئ صادق الكلام

البحث الخامس والعشرون

أبو نواس وابن دراج

ولنوازن بين قصيدتين لشاعرين كان أحدهما شاعر زمانه في المشرق وهو أبو نواس، وكان ثانيهما شاعر زمانه في المغرب وهو ابن دراج : « سابق حلبة الشعراء العامرين ، وخاتمة محاسن أهل الاندلس أجمعين » كما قال أبو حيان

وكان الواجب أن نذكر شيئاً عن أبي نواس وعصره ، ولكننا رأينا أن نحيل القارىء الى ما كتبه في ذلك أستاذنا الدكتور طه حسين في حديث الاربعاء ، ونكتفي بما ذكره جامع الديوان من أن أبا نواس لما قدم على الخصيب في مصر صادف في مجلسه جماعة من الشعراء ينشدونه مدائح فيه ، فلما فرغوا قال الخصيب : ألا تنشدنا أبا علي ؟ فقال : أنشدك أيها الأمير قصيدة هي بمنزلة عصا موسى تلقف ما يافكون ! قال : هات اذاً . فأنشده رائيته المشهورة

اجارة بيتينا أبوك غيور وميسور ما يرجى لديك عسير
فاهتز لها الخصيب ، وأمر له بجائزة سنوية . وقد طار ذكر هذه القصيدة في جميع الامصار ، ، وعارضها كثير من الشعراء ، منهم احمد بن دراج القسطلي الاندلسي — وسنبسط عنه القول — ومنهم حسان بن نمير المعروف بعرقلة الدمشقي ، فقد وازن قصيدة أبي نواس بقصيدة مدح بها صلاح الدين بن يوسف بن أيوب رقصده بها الى مصر كما فعل أبو

نواس حين توجه بقصيدته الى الخصب وفيها يقول
 عسى من ديار الظاعنين بشير
 ومن جور أيام الفراق مجير
 لقد عيل صبري بعدهم وتكاثرت
 همومي ولكن الحب صبور
 وكم بين أكناف الثغور متم
 كئيب غزته أعين وثغور
 وكم ليلة بالمطرون قطعها
 ويوم الى الميطور وهو مطير
 سقى الله من سطرًا ومقرا منازل
 بها للندامى نظرة وسرور
 ولا زال ظل النيرين فانه
 طويل ويوم المرء فيه قصير
 ويا بردي لا زال مأوك باردًا
 وماء الحيا من ساحتك نير
 أبى العيش إلا بين أكناف جلق
 وقد لاح فيها أشمس وبدور
 وكم بحمي جيرون سرب جاذر
 حباثلهم المال وهو نفور
 ولكن سأحويه إذا سرت قاصداً
 الى بلد فيه الصلاح أمير

وعارضها محمود سامي البارودي بقصيدة جيدة نختار منها قوله
 ألا فرعى الله الصبا ما أبره
 وحيًا شبابًا مر وهو نصير
 اذ العيش أفواف ترف ظلاله
 علينا وسلسال الوفاء نير
 واذا نحن فيما بين إخوان لذة
 على شيم ما إن بهن نكير
 تدار علينا الكأس بين ملاعب
 بها اللهو خدن والشباب سمر
 فألحظنا بين النفوس رسائل
 وريحاننا بين الكؤوس سفير
 عقدنا جناحي ليلنا بنهارنا
 وطرنا مع اللذات حيث تطير
 وقلنا لسائنا أدرها فانما
 بقاء الفتى بعد الشباب يسير
 فطاف بها شمسية لهبية
 لها عند الباب الرجال ثور
 اذا ما شربناها أقننا مكاننا
 وظلت بنا الأرض الفضا تدور

وبعجبنا منها قوله في وصف الحمام الساجدة

وكم ليلة أفنيت عمر ظلامها
شغلت بها قلبي وامتعت ناظري
صنعت بها صنوع الكريم بأهله
فما راعنا الا حفيف حمام
تجاوب أترابا لها في خمائل
نواعم لا يعرفن بؤس معيشة
توسد هامات لهن وسائدا
كأن على أعطافها من حبيكها
خوارج من أيك دواخل غيره
إذا غازلتها الشمس رقت كأنما
فلما رأيت الصبح قد رف جیده
خرجت أجر الذيل تيهاً وانما
ومن الوفاء أن تنوه بهذه القطعة الجزلة التي وصف بها نفسه
وهو يقول :

ولي شيمة تأبى الدنيا وعزيمة
إذا سرت فالارض التي نحن فوقها
فلا عجب ان لم يصبرني منزل
همامة نفس ليس ينفي ركاها
معوذة أن لا تكف عناها
لها من وراء الغيب أذن سمیعة
ترد إلهام الجيش وهو يمور
مراد لمهري والمعاقل دور
فليس لعقبان الهواء وكور
رواح على طول المدى وبكور
عن الجد إلا أن تتم أمور
وعین ترى ما لا يراه بصیر

وفيت بما ضنّ الكرام فراسة بأمرى ومثلى بالوفاء جدير
وأصبحت محسود الجلال كأنى على كل نفس فى الزمان أمير
إذا صلت كف الدهر من غلوائه وإن قلت غصت بالقلوب صدور
وفى هذه المعارضات دليل على مبلغ ما ظفرت به قصيدة أبى نواس من
تقدير الشعراء ، فلنضعها فى الميزان لنعرف بالتحديد ما فيها من مواطن
الحسن ومطازن الابتدال

« أغراض القصيدة »

الغرض الاول لهذه القصيدة هو مدح الخصيب ، وقد استتبع هذا
عند الشاعر ان يتحدث قليلا عن نفرة جارتة منه ، وانصرافها عنه ، وأن
يذكر ما دار بينه وبين زوجه من الحوار حين هم بالرحيل ، وأن يصف
كيف سار الشعراء الى مصر وكيف نسوا من أجل واليها جنات الشام
ورياض العراق ، وقد فرق مدحه للخصيب بين أجزاء القصيدة ، فتكلم
عن سؤدده وجوده وبصره بالعواقب وتنكيله بالمفسدين ، ثم عاد فتكلم
عن هيئته وما أعد للسلم والحرب ، وما له من طيب العنصر وكرم
الاخلاق ، ثم اختتم القصيدة بهذين البيتين

وإني جدير إذ بلغتك بالمنى وأنت بما أملت فيك جدير
فإن تولني منك الجميل فأهله والا فاني عاذر وشكور
ولنأخذ فى نقد القصيدة وتحليلها ، فنذكر أولاً أنه حاور جارتة بقوله
أجارة بيتينا أبوك غيور وميسور ما يرجى لديك عسير
وإن كنت لا خماً ولا أنت زوجة فلا برحت دوني عليك ستور
وليس فى صدر البيت الاول أثر لحسن الأداء ، وعبارة « أجارة

بيتينا « ثقيلة على السمع ، وهي كذلك غير واضحة المدلول ، أو هي تحتاج على الأقل الى ان نذكر ان الشاعر قد يريد بيتي جارته بيت السكن وبيت النسب ، وقد يريد غير ذلك ، ولقد أذكر — من باب الفكاهة — اني كنت اناقش الاستاذ محمد الهياوي مرة في قيمة المنفلوطي وفهمه للادب فقال : كيف وقد مات ولم يفهم قول أبي نواس « أجارة بيتينا ابوك غيور » لقد كان يكسر التاء من « بيتينا » ظناً منه ان هذا اسم مكان !!

وانك اتسكاد تلمس التناقض حين تقرن البيت الاول بقوله

وان كنت لاخلماً ولا أنت زوجةٌ فلا برحت دوني عليك ستورُ

فهو أولاً (يشكو) عسر ما يرجو من هذه الجارة، وذلك يوجب ان

تكون مرجع هواه، ثم يصرح بانها ليست زوجة ولا صديقة، فيضطرك

الى أن تسأله: وإلام تقصد حين تقول « فلا برحت دوني عليك ستور »

ثم يغاب عليه ضيق الصدر ، وقلق النفس ، فيقول

وجاورت قوماً لا تراورَ بينهم ولا وصل إلا ان يكون نشورُ

فأنا بالمشغوف ضربة لازبٍ ولا كل سلطان عليّ قدير

وهو بهذا يتملأ من أسر فؤاده وحبس أمانيه، في تلك البقعة

التي لم يقر لقلبه فيها قرار، ولم تنعم عينه فيها بغير لآلاء النجوم ، حين

تأنس العيون بالعيون ، وتسكن القلوب الى القلوب . . ثم أخذ يحدثنا

عن علمه بحركات الأهواء ، وخطرات النفوس ، فقال

وإني لطرف العين بالعين زاجرٌ فقد كدت لا يخفي عليّ ضمير

والزجر هنا ليس معناه الردع ، وإنما هو من زجر الطير ، وأصله

أن يرمى الرجل الطائر بحصاة أو يصيح به ، فإن ولأه في طيرانه ميامنه

تفاعل به ، وان ولأد مياسره تطاير منه ، ويريد أنه يقرأ ما في الصدر
بملاحظة العين ، وهذا البيت تأكيد لما قرره قبل من عنف جارته به ،
وقسوتها عليه ، وان لم تصرح بالقطيعة ، ولم تعلن الصدود . . . ولم يقف
أبو نواس عند هذا الحد في وصف نفسه بصدق الفراسة ، بل شبه نظرتة
بنظرة العقاب في سكون الريح وقد طوت القوت ليلتين عن فرخها
الأزغب فقال :

كما نظرت والريح ساكنة لها عقاب بأرساغ اليدين ندور
طوت ليلتين القوت عن ذي ضرورة أزيغب لم ينبت عليه شكير
فأوفت على عشاء حين بدا لها من الشمس قرن والضرب يمور
تقلب طرفاً في حجاجي مغارة من الرأس لم يدخل عليه سرور

وهذه اللفتة من أبي نواس فيها خروج على فطرتة ، اذ هي تقليد
صريح لاسلوب الأعراب ، ويظهر أن أبا نواس كان يعني في المواقف
الرسمية بمراعاة الأساليب القديمة ، ابتغاء مرضاة الرواة واللغويين ، كما
كان ينقاد لفطرتة كل الاتقياد ، وهو يتحدث عن الصهباء ، ويشيد بذكر
الندامى والسقاة والمغنين ، من كل رخم الصوت ، أو أصبح الوجه ، أو
عذب الحديث ، وهو الذي يقول

قد أسحب الزق ياباني وأكرهه حتى له في أديم الأرض أخدود
لا أرحل الراح إلا أن يكون لها حاد بمنتحل الأشعار غريد
فاستنطق العود قد طال السكوت به

لن ينطق اللهو حتى ينطق العود

ولنذكر بعد هذا أن أبا نواس انتقل من الحديث عن نفرة جارتة
وصدق فراسته ، الى الحديث عن حوار زوجه فقال :

تقول التي من بيتها خف مركبي عزيزي علينا أن نراك تسير
أما دون مصر للغنى متطلب بلى إن أسباب الغنى لكثير
فقلت لها واستعجبتها بواذر جرت فجرى من جريهن عير
ذريني أكثر حاسديك برحلة إلى بلد فيه الخصيب أمير
وهذه القطعة من الشعر المختار ، ويرجع جمالها الى ما فيها من وضوح
الفكرة وسلاسة التعبير ، وانظر الصدق في قوله

أما دون مصر للغنى متطلب بلى إن أسباب الغنى لكثير
ولكن الشعراء في ذلك العهد لم يطب لهم من أسباب الغنى غير
مدح الملوك والأمرء ، وكان هذا باباً لحصر العبقرية في ناحية واحدة
هي خلق المحامد ، والمناقب ، لكل من جن له الدهر فظفر بأثارة من الملك
أو زاد بسطة في المال . وقوله

ذريني أكثر حاسديك برحلة إلى بلد فيه الخصيب أمير
من الابيات المختارة ، والتعبير عن وفرة المال بكثرة الحساد من
السكنايات المستملحة ، وقد قال له الخصيب حين انشد هذا البيت : اذا
يكثر حسادها ، وتبلغ أملاء ، وأمر له بألف دينار ، ثم قال في مدح الخصيب
اذا لم تزر أرض الخصيب ركابنا فأني فتى بعد الخصيب تزور
فما جازه جود ولا حل دونه ولكن يصير الجود حيث يصير
وليس لهذين البيتين قيمة أدبية ، ومن السهل أن يزعم الشاعر أن
ممدوحه خير الناس على الإطلاق ، وأن الجود لا يجوزه ولا يحل دونه ،

وانما يصير حيث يصير ، الى ما هنالك من وثبات الخيال ، وقد نال منه
الضعف والاسفاف حين قال

فلم تر عيني سوّداً مثل سوّدد يحل أبو نصر به ويسير
ولكنه وفق كل التوفيق حين قال

فنى يشتري حسن الثناء بماله ويعلم ان الدائرات تدور
فانه يصف الخصب بالسعي لنيل السمعة الحسنة والصيت البعيد،
ويصفه مع هذا بضبط النفس ، والحذر من عادات النوائب ، وجائزات
الخطوب ، ولا تطيب الدنيا لملك أو أمير الا اذا خطا في حكمه وملكه
خطوات الحذر الهيبوب ، الذي يتوقع في كل لحظة ان يتنكر له الدهر ،
وان تثور من حوله الاقدار... ثم أخذ يصف بطشه بالمفسدين ، وتنكيله
بالعابثين بأمن الناس فقال

الوصف
النور
و

وأطرق حيات البلاد حية خصيبة التصميم حين تسور
سموت لأهل الجور في حال أمنهم فأضحوا وكل في الوثاق أسير
إذا قام غنته على الساق حلية لها خطوه عند القيام قصير

وفي هذه الايات اشارة الى ان مصر في ذلك العهد كانت تقاسي
شيئاً من الاضطراب ، وكانت لذلك طعمة لاستبداد الحكم وسخرية
الشعراء ، وأي سخر آلم للنفس ، وأوجع للقلب ، من قول أبي نواس
في أحد فتيان مصر وهو يرسف في الصفا

إذا قام غنته على الساق حلية لها خطوه عند القيام قصير
وقد أحسن أبو نواس في وصف الخصب بنصح الجيب حين قال
فمن يك أمسى جاهلاً بمقاتي فان أمير المؤمنين خبير

وما زلت توليه النصيحة يافعا الى أن بدا في العارضين قتيـ
 اذا غاله أمر فاما كفيته وإما عليه بالكفاء تشير
 وهذا من أجل ما يوصف به الرجل المخلص للحق حين يظفر بأمرار
 الملوك ، وفي هذه القصيدة قطعة آخرها الشاعر وكانت أولى بالتقديم ،
 وهي وصف رحلة الشعراء الى الخصيب ، ونحن نسرد هذه القطعة تنميـ
 للموضوع ، ونصرح بانها رديئة في العبارة وفي السياق ، قال :

رحلن بنا من عقر قوف وقد بدا من الصبح مفتوق الاديم شهير
 فما نجدت بالماء حتى رأيتها مع الشمس في عيني أباغ تغور
 وغمرن من ماء النقيب بشربة وقد حان من ديك الصباح زمير
 ووافين اشراقا كينائس تدمر وهن الى رعن المدخن صور
 يؤمنن أهل الغوطتين كأنما لها عند أهل الغوطتين ثور
 وقاسين ليلا دون بيسان لم يكدهن سنا صبحه للناظرين ينير
 واصبحن بالجولان يرضخن صخرها ولم يبق من اجراحهن شطور
 واصبحن قد فوزن من نهر فطرس وهن عن البيت المقدس زور
 طوالب بالركبان غزة هاشم وفي الفرما من حاجهن شقور
 واستأنف مدح الخصيب فقال

ولما أتت فسطاط مصر أجارها على ركبها أن لا تزال مجير
 من القوم بسام كأن جبينه سنا الفجر يسرى ضوءه ويير
 زهاب الخصيب السيف والرمح في الوغى وفي السلم يزهو منبر وسرير
 جواد إذا لا يدي كففن عن الندى ومن دون عورات النساء غيور
 له سلف في الأعجمين كأنهم اذا استؤذنوا يوم السلام بدور

وسنعود الى تحليل هذه القطعة الاخيرة حين نوازن بينها وبين
ما يماثلها في قصيدة ابن دراج

البحث السادس والعشرون

نفحة من الادب الاندلسي

نقدنا في البحث الماضي قصيدة أبي نواس في مدح الخصيب، ورأينا
مبلغه من الصدق حين ظنها كعصا موسى تلقف ما يافكون، ولم يبق
الا ان نوازن بينها وبين قصيدة ابن دراج الذي أوصاه أميره بمعارضة
أبي نواس، ولكننا رأينا ان نقف وقفة قصيرة عند رغبة المنصور بن
أبي عامر في أن يظهر شاعره على شاعر الرشيد، فقد كانت هناك منافسة
شديدة بين رجال المشرق ورجال المغرب في الادب والفلسفة والتشريع،
وكان لاهل الاندلس كلف شديد بالظهور على أهل الشرق، وكان لابن
دراج هذا ولع عجيب بسبق من نبغ من الشعراء في مصر والشام والعراق،
وسنرى كيف بذأبا نواس وبرعه حين نضع قصيدته في الميزان، وكان
من أثر ذلك التنافس أن عقدت المفاضلات بين الكتاب والشعراء والمؤلفين:
فازداد قادة الفكر قوة الى قوة ونشاطاً الى نشاط، وتقدم النقد تقدماً
ظهرت ثمرته في ما كان يعني به العرب اذ ذاك من العلوم والفنون

وهذه رساله أبي الوليد الشقندي - التي وضعها في تفضيل بر الاندلس
على بر العدو، والتي اثبتتها المقرئ طيب الله ثراه في نفح الطيب - تدل
على رغبة الاندلسيين في الظهور على من عداهم من العالمين، واني لذا كر

ما جاء فيها عن الشعر والشعراء، لأضع يد القارىء على اثر هو في جملة ثمره
لما كان من التنافس بين قرطبة وبغداد، ولأن نشر له صفحة من صحف
النقد والمفاضلة تتمثل فيها عبقرية العرب في ذلك الفردوس المفقود. (١)
قال الشقندي بعد كلام طويل :

وهل لكم في الشعر ملك مثل المعتمد بن عباد في قوله
وليل بسد النهر أنسا قطعتة بذات سوار مثل منعطف النهر
نضت بردها عن غصن بان منعم فياحسن ما انشق الكمام عن الزهر
وقوله في أبيه
سميدع يهب الآلاف مبتدئا وبعد ذلك يلقي وهو يعتذر
له يد كل جبار يقبلها لولا نداها لقلنا انها الحجر
ومثل ابنه الرضى في قوله
مرؤا بنا أصلاً من غير ميعاد فاوقدوا نار قلبي أي إيقاد
لاغروا ان زاد في وجدي مروره فرؤية الماء تذكى غلة الصادي

(١) جاء في نفح الطيب ص ٧٧٨ مانصه « قال ابن سعيد اخبرني والذي
قال : كنت يوماً في مجلس صاحب سبتة ابي يحيى بن ابي زكريا صهر ناصر بني
سبتة المؤمن فجري بين ابي الوليد الشقندي وبين ابي يحيى بن المعلم الطنجي نزاع في
التفضيل بين البرين. فقال الشقندي لولا الاندلس لم يذكر بر العدو ولا سارت عنه
فضيلة ولولا التوقير للمجلس لقلت ما تعلم . فقال الامير ابو يحيى اريد ان تقول كون
اهل برنا عرباً واهل بركم بربر ، فقال : حاش لله ! فقال الامير والله ما اردت غير
هذا، فظهر في وجهه انه اراد ذلك ، فقال ابن المعلم : اتقول هذا وما الملك والفضل
الا من بر العدو ؟ فقال الامير : الرأي عندي ان يعمل كل منكما رسالة في تفضيل
بره ، فالكلام هنا يطول ويمر ضياعاً ، وأرجو اذا اخليهما له فذكر كما يصدر منكما
ما يحسن تخليده . ففعلاً »

وهل لكم ملك ألف في فنون الادب كتاباً في نحو مئة مجلدة مثل
المظفر بن الافطس ملك بطليموس ولم تشغله الحروب ولا المملكة عن
همة الادب

وهل لكم من الوزراء مثل ابن عمار في قصيدته التي سارت أشرد
من مثل ، وأحب إلى الاسماع من حبيب وصل ، التي منها
أثمرت ربحك من رؤوس ملوكهم لما رأيت الفصن يُعشق مشعرا
وصبغت درعك من دماء كآتهم لما رأيت الحسن يلبس احمر
ومثل ابن زيدون في قصيدته التي لم يُقل - مع طولها - أرق منها
في التشبيب ، وهي التي يقول فيها (١)

كأننا لم نبت والوصل ثالثنا والسعد قد غص من اجفان واشينا
سران في خاطر الظلماء يكتمننا حتى يكاد اسان الصبح يفشيننا
وهل لكم من الشعراء مثل ابن وهبون في بديهته بين يدي المعتمد بن
عباد واصابته الغرض حين استحسن المعتمد قول المتنبي
اذا ظفرت منك العيون بنظرة أثاب بها معي المطي ورازمه
فارتجل :

لئن جاد شعر ابن الحسين فأنما تجيد العطايا والاله تفتح اللهها
تنبأ عجباً بالقريض ولو درى بانك تروي شعره لتألها
وهل لكم مثل شاعر الاندلس ابن دراج الذي قال فيه الشعالي :
هو بالصقع الاندلسي كالمثني بصقع الشام ، الذي ان مدح الملوك قال
مثل قوله :

(١) ارجع الى هذه القصيدة في كتاب « مدامع العشاق »

ألم تعلمي ان الثواء هو التوى^(١) وان بيوت العاجزين قبور
وان خطيرات المهالك ضمن^٢ لراكبها ان الجزاء خطير
تخوفني طول السفار وانه بتقبيل كف العامري جدير
محير الهدى والدين من كل ملحد وليس عليه للضلال محير^(٢)

وان ذكر الغربة عن الاوطان ، ومكابدة نوائب الزمان ، قال :
قالت وقد مزج الفراق مدامعا بدماع وترائب^١ بترائب
اتفرق^٢ حتى بمبزل غربة كم نحن للأيام نهبة ناهب
ولئن جنيت عليك ترحه راحل فانا الزعيم لها بفرحة آيب
هل أبصرت عيناك بدراً طالعا في الافق الا من هلال غارب
وان شبه قال :

لمعاقل من سوسن قد شيدت أيدي الربيع بناءها فوق القضب^١
شرفاتها من فضة وحماتها حول الامير لهم سيوف من ذهب
وهل من شعرائكم من تعرض لذكر العفة : فاستنبط ما يسحر به
السحر ، ويطيب به الزهر . وهو أبو عمرو بن فرج في قوله
وطائفة الوصال عفت عنها وما الشيطان فيها بالمطاع

(١) التوى . الهلاك

(٢) اختار الشقندي قطعة كبيرة من قصيدة ابن دراج ، ولكننا اكتفينا بذكر
هذه الايات لاتنا سنعود الى القصيدة مرة ثانية . وقد قال الشقندي في التعقيب
على ما اختاره :

« وانا اقسم بما حوته هذه الايات ، من غرائب الآيات ، لو سمع هذا المدح
سيد بني حمدان لسلا به عن مدح شاعره الذي ساد كل شاعر ، وراى ان هذه
الطريقة اولى بمدح الملوك من كل ما تفنن فيه كل ناظم ونثر »

بدت في الليل سافرة فباتت دياجي الليل سافرة القناع
 وما من لحظة إلا وفيها الى فن القلوب لها دواعي
 فلكت النهى حجاب شوقي لأجري بالعفاف على طباعي
 وبت بها مبيت السقب يظما فيمنعه العكام من الرضاع^(٣)
 كذاك الروض ما فيه لمثلي سوى نظر وشم من متاع
 ولست من السوائم مهملات فأخذ الرياض من المراعي
 وهل بلغ أحد من مشبهي شعرائكم أن يقول مثل قول أبي
 جعفر اللامي

عارضه أقبل في جنح الدجى يتهادى كتهادى ذي الوجى
 بددت ريح الصبا لؤاؤه فانبرى يوقد عنه سرجا
 ومثل قول أبي حفص بن برد
 وكأن الليل حين لوى ذاهبا والصبح قد لاحا
 كلة سوداء أحرقتها عامد أسرج مصباحا
 وهل منكم من وصف ما تحدثه الحمرة ، من الحمرة على الوجنة ، بمثل
 قول الشريف الطليق

أصبحت شمسا وفوه مغربا ويد الساقى المحي مشرقا
 واذا ما غربت في فوه تركت في الخلد منه شفا
 بمثل هذا الشعر فليطلق اللسان ، ويفخر على كل انسان
 وهل منكم من عمد الى قول امرئ القيس
 سموت اليها بعد ما نام أهلها سمو حباب الماء حالا على حال

(٣) السقب : ولد الناقة ، والعكام ما يعكم به

فاختلسه اختلاس النسيم لنفحة الازهار ، واستلبه بلطف استلاب
الشمس لرضاب طلّ الأَسحار ، فلطفه تلطيفاً يمتزج بالارواح ، ويغني
في الارتياح ، عن شرب الراح ، وهو ابن شهيد في قوله

ولما تملأ من سكره ونام ونامت عيون الحرس
دنوت اليه على رقبة دنو رفيق درى ما التمس
أدب اليه ديب الكرى وأسمو اليه سمو النفس
أقبل منه بياض الطلي وأرشف منه سواد اللعس
فبت به ليلتي ناعماً الى ان تبسم ثغر الغلس

وقد تناول هذا المعنى ابن أبي ربيعة على عظم قدره وتقدمه، فعارض
الصهيل بالهناق ، وقابل العذب بالزقاق ، فقال ويا ليلته سكت

ونفضت عني العين اقبلت مشية الى حُباب وركني خيفة القوم أزور
وأنا أقسم لو زار جل محبوبه له لكان ألطف في الزيارة من هذا
الأزور الركن ، المنفض للعيون ، لكنه إن أساء هنا فقد أحسن في قوله

قالت لقد أعييننا حجةً فأت اذا ما هجع الساهر
واسقط علينا كسقوط الندى ليلة لا ناه ولا زاجر

ولله در محمد بن سفر أحد شعرائنا المتأخرين عصرًا ، المتقدمين قدرًا ،
حيث نقل السعي الى محبوبته ، فقال — ويا ليلته لم يزل يقول مثل هذا
فبمثله ينبغي أن يتكلم ، ومثله يليق أن يدون :-

وواعدتها والشمس تجنح للنوى بزورها شمسًا وبدر الدجى يسري
فجاءت كما يمشى سنا الصبح في الدجى وطوراً كما مرّ النسيم على النهر
فمطرت الآفاق حولي فأشعرت بمقدما والعرف يشعر بالزهر

فتابعت بالتقبيل آثار سعيها كما يتقصي قارىء أحرف السطر
فبت بها والليل قد نام والهوى تنبه بين الغصن والحقف والبدر
أعانقها طورا وأثم تارة الى أن دعتنا للنوى راية الفجر
ففضت عقودا للتعانق بيننا فيا ليلة القدر اتركي ساعة النفر
وهل منكم من قيد بالاحسان فأطلق لسانه بالشكر فقال — وهو
ابن اللبابة —

بنفسي وأهلي جيرة ما استعنتهم على الدهر إلا واثنت موعانا
أراشوا جناحي ثم بلوه بالندی فلم أستطع من أرضهم طيرانا
ومن يقول وقد قطع عنه ممدوحه ما كان يعتاده من الاحسان
فقابل ذلك بقطع مدحه له فبلغه أنه عتبه على ذلك وهو ابن وضاح :
هل كنت الا طائرا بفنائكم في دوح مجدكم أقوم وأقعد
إن تسلبوني ريشكم وتقلصوا عني ظلائكم فكيف أغرد
وهل منكم شاعر رأى الناس قد ضجوا من سماع تشبيه الثغر بالاقاح
وتشبيه الزهر بالنجوم ، وتشبيه الحدود بالشقائق ، فتلطف لذلك في أن
يأتي به في منزع يصير خلقه في الأسماع جديداً ، وكليله في الأفكار
حديداً ، فأغرب أحسن اغراب ، وأغرب عن فهمه بحسن تخيله أنبل
إعراب ، وهو ابن الرقاق اذ قال :

وأغيد طاف بالكؤوس ضحى وحشها والصباح قد وضحا
والروض أهدى لنا شقائقه وآسه العنبري قد نفحا
قلنا وأين الاقاح قال لنا أودعته ثغر من سقى القدحا
فظل ساقى المدام يحجد ما قال فلما تبسم افتضحا

وقال :

أديرها على الروض المندى وحكم الصبح في الظلماء ماضي
وكأس الراح تنظر عن حباب ينوب لنا عن الحديق المراض
وما غربت نجوم الافق لكن نقلن من السماء الى الرياض

وقال :

ورياض من الشقائق أضحت يتهادى بها نسيم الصباح
زرتها والغمام يجلد منها زهرات تروق لون الراح
قلت ما ذنبها ؟ فقال مجيباً سرقت حمرة الحدود الملاح
فانظر كيف زاحم بهذا الاحتيال المخترعين ، وكيف سابق بهذا

اللفظ المبتدعين

وهل منكم من برع في أوصاف الرياض والمياه ، وما يتعلق بذلك ،
فانتهى الى غايه السباق ، ونضح كل من طمع بعده في اللحاق ، وهو :
أبو اسحاق ابن خفاجة القائل

وعشي أنس أضجعتني نشوة فيها يمهّد مضجعي ويدمست
خلعت علي بها الاراكة ظلها والغصن يصغي والجمام يحدث
والشمس تجنح للغروب مريضة والرعد يرثي والغمامة تنفث

والقائل

لله نهر سال في بطحاء أشهى وروداً من لَمَى الحسناء
متعطف مثل السوار كأنه والزهر يكتنفه مجرّ سماء
قد رق حتى ظن قرصاً مفرغاً من فضة في بردة خضراء
وغدت تحف به الغصون كأنها هدب تحف بمقلة زرقاء

ولطالما عاطيت فيه مدامة
والريح تعبت بالغصون وقد جرى
والقائل:

حث المدامة والنسيم عليل
والروض مهتز المعاطف نعمة
ريان فضضه الندى ثم انجلى
والقائل:

أذن الغمام بدية وعقار
واربع على حكم الربيع بأجرع
متقسم الحاظ بين محاسن
نثرت بحجر الروض فيه يد الصبا
وهفت بتغريد هنالك ايكة
هزت له أعطافها ولربما
والقائل:

سقياً لها من بطاح خز
اذ لا ترى غير وجه شمس
والقائل:

نهر كما سال الله سلسال
ومهب نفحة روضة مطولة
غازاتها والاقحوانة مبسم
والقائل:

صفراء تخضب أيدي الندماء
ذهب الاصيل على لجين الماء

والظل خفاق الرواق ظليل
نشوان تعطفه الصبا فيميل
عنه فذهب صفحته اصيل

فامزج لجيناً منهما بنضار
هزج الندامى مفصح الاطيار
من ردف رابية وخصر قرار
درر الندى ودراهم الاثوار
خفاقة بمهب ريح عرار
خلعت عليه ملاءة النوار

ودوح نهر بها مَطْل
أطل فيه عذار طل

وصبا بليلى ذيلها مكسال
في جانبيها للنسيم مجال
والآس صدغ والبنفسج خال

وساق كحيل اللحظ في شأ وحسنه
 ترى للصبيا نارا بخديه لم يثر
 سقاها وقد لاح الهلال عشيّة
 عقاراً نماها الكرم فهي كريمة
 وقد جال من جون الغمامة أدم
 وضمخ درع الشمس نحر حديقة
 ونمت بأسرار الرياض خميلة
 والقائل :

وأشقر تضرّم منه الوغى
 من جلتار ناضر لونه
 بشعلة من شعل الباس
 وأذنه من ورق الآس
 تطلع للغرة في شقرة
 حباية تضحك في كاس
 وهل منكم من يقول منادماً لنديمه ، وقد باكر روضاً بمحبوب
 وكأس ، فألفاه قد غطّى محاسنه ضباب ، تخاف أن يكسل نديمه عن الوصول
 إذا رأى ذلك ، وهو الحسن بن بسام :

ألا بادر فثان سوى ما
 ولا تكسل برؤيته ضباباً
 عهدت الكأس والبدر التمام
 تنص به الحديقة والمدام
 فان الروض ملتئم الى أن
 توافيه فينحط اللثام
 وهل منكم من تغزل في غلام حائك بمثل قول الرصافي
 قالوا وقد أكثروا في حبه عدلى
 لو لم تهم بمذال القدر مبتذل
 لاخترت ذاك والكن ليس ذلك لي
 علقته حبيبى الشجر عطره
 حلو اللعى ساحر الاجفان والمقل

غزِيلٌ لم تزل في الغزل جائلةً بنانه جَوْلان الفكر في الغزل
جذلان تلعب بالمحواك أمله على السدى لعب الايام بالاجل
ضماً بكفيه أو خضاً بأخمصه تحبُّط الظبي في أشراك محبيل
ومثل قوله في تغلب مسكة الظلام على خلق الأصيل

وعشي رائق منظره قد قطعناه على صرف الشمول
وكان الشمس في اثنائه ألصقت بالارض خدلاً للنزول
والصبا ترفع أذيال الربى ومحيا الجو كالنهر الصقيل
حبذا منزلنا مغتبقا حيث لا يطرقنا غير الهديل
وهل منكم من وصف غلاماً جميل الصورة راقصاً بمثل قول

ابن خروف

ومنزع الحركات يلعب بالنهى لبس المحاسن عند خلع لباسه
متأوداً كالغصن وسط رياضه متلاعباً كالظبي عند كناسه
بالعقل يلعب مدبراً أو مقبلاً كالدهر يلعب كيف شاء بناسه
ويضمّ للقدمين منه رأسه كالسيف ضم ذبابه لرياسه

وهل منكم من وصف خالاً باحسن من قول النشار

ألوامى على كلفى بحبي متى من حبه أرجو سراحا
وبين الخد والشفقين خال كزنجبي أتى روضاً صباحاً
تخيّر في جناه فليس يدري أيحبنى الورد أم يحبنى الاقاحا

وهل منكم الذي اهتدى الى معنى في ثم وردة الخد ، ورشف رضاب
الشعر ، لم يهتد اليه أحد غيره ، وهو أبو الحسن بن سلام المالقي في قوله
لما ظفرت بليلة من وصله والصب غير الوصل لا يشفيه

أنضجت وردة خده بتنفسه وطفقت أرشف ماءها من فيه ^(١)
 وهل منكم أعمى قال في ذهاب بصره ، وسواد شعره ، وهو الطليطي
 ما اشتفت مني الأيام في وطني حتى تضايق فيما عن من وطري
 ولا قضت من سواد العين حاجتها حتى تكر على ما طل في الشعر
 وهل نشأ عندكم من النساء مثل ولادة المروانية ^(٢) ومثل زينب
 بنت زياد المؤدب التي تقول

ولما أبى الواشون إلا فراقنا وما لهم عندي وعندك من ثار
 وشنوا على أسمعنا كل غارة وقل حمان عند ذاك وأنصاري
 غزوتهمو من مقلتي وأدمعي ومن نفسي بالسيف والسييل والنار
 ثم قال الشقندي بعد كلام : وأنا أختم هذه القطع المتخيرة بقول
 أبي بكر ابن بقي ليكون الختام مسكا

عاطيته والليل يسحب ذيله صهباء كالمسك الفتيق لناشق
 وضممته ضم الكمي لسيفه وذو ابتاه حمائل في عاتق
 حتى إذا مالت به سنة الكرى زحزحته شيئا وكان معانق
 باعدته عن أضلع تشاقه كيلا ينام على وساد خافق

وقول الفاضل أبي حفص بن عمر القرطبي

همو نظروا لواحظها فهاموا وتشرب لب شاربها المدام
 يخاف الناس مقلتها سواها أيدع قلب حامله الحسام
 مما طر في إليها وهو باك وتحت الشمس ينسكب الغمام

(١) حذفنا هنا جملة من كلام الشقندي لم نر لها أهمية

(٢) انشد لها بيتين لم نر لها قيمة

وأذكر قدما فأنوح وجداً على الأغصان تنتدب الحمامُ
وأعقب بينها في الصدر غما اذا غربت ذكاء أتى الظلام
وبقوله أيضاً

لها ردف تعلق في لطيف وذاك الردف لي ولها ظلومُ
يعذبني اذا فكرت فيه ويتمبها اذا همت تقومُ

تلك أيها القارئ، نفحة من الادب الاندلسي، رأينا أن نهد بها
لدرس قصيدة ابن دراج الذي أوصاه أميره المنصور ابن أبي عامر بمعارضة
أبي نواس، كما ذكر ابن خلكان، وإنا نرجو أن يكون فيما اقتطفناه
تذكرة لطلاب الأدب، وتبصرة لعشاق البيان، فقد مضت عهود على
نهضة الشعر في مصر ولم نجد من الباحثين من قيد ما ابتكره شعراؤنا
في العصر الحديث من المعاني الجديدة، وما ابتدعوه من الصور الطريفة
مع حرصهم على أن يمثل الشعر اغراض الحياة، وأطباع العقول، وألوان
النفوس، وأهواء القلوب



البحث السابع والعشرون

(حياة ابن دراج)

كان أبو عمر أحمد بن دراج القسطلبي المتوفى سنة ٤٢١ للهجرة من كبار الشعراء ، وكان بصقع الأندلس كالمثني بصقع الشام ، كما قال صاحب اليتيمة : وكان له ديوان شعر في جزأين ، كما ذكر صاحب وفيات الأعيان ، وكان يجيد النثر ، كما نص صاحب الذخيرة ، وليكن الزمان لم يترك لنا ما نعرف به صدق ما قاله في وصفه مؤرخو الآداب ، فقد ضاع ديوان شعره ، وضاعت رسائله البليغة ، ولم يبق من آثار فضله الا بقايا ضئيلة لا تكفي في الإبانة عن منزلته في عالم البيان

ولندكر أولاً ما قاله المؤرخون في وصفه ، ثم ننتقل الى وصف نثره وشعره ، بقدر ما تسمح به الشواهد والأمثال

قال ابن بسام في الذخيرة « كان أبو عمر القسطلبي في وقته لسان الجزيرة شاعراً وأولاً حين عد معاصريه من شعرائها المشهوره ، وآخر حامل لوائها ، وبهجة أرضها وسماها ، وأسوة كتابها وشعرائها . . . » به بدى ذكر الجميل وختم ، حل اسمه من الاماني محل الأنا ، وأحد من تضاءلت الاول عن جلالة قدره ، وكانت الشام والعراق خطر ذكره ، وقد أجرى الثعالي طرفاً من أمره ، وأغرب بلمع من شعره ، ثم قال « وانما ذكرته أنا وان كان من شعراء ابن أبي عامر لأنه تراخت أيامه ، وأغضى عنه حمامه ، حتى أخرجته المحن ، وسالت به تلك الفتن »

والقاري يرى في عبارة ابن بسام شيئاً من اللبس والغموض، وهذا يرجع الى سببين : أولهما أن كتاب الذخيرة مني بالمسخ والتحريف، ولا يزال الى الآن مخطوطاً يحده الباحث في دار الكتب المصرية، وثانيهما أن ابن بسام يؤثر السجع، والسجع قيد يضطر الكاتب الى التعثر، فتظهر في عباراته آثار الضعف والاضطراب

وقال أبو حيان « أبو عمر القسطلي سابق حلبة الشعراء العامرين وخاتمة محاسن أهل الاندلس أجمعين، كان ممن طوحت بهم تلك الفتنة الشنعاء، واضطرتته الى النجعة، فاستقرأ ملوك الاندلس أجمعين، يهز كلاً بمدحه، ويستعينه على نكبتة، وليس منهم من يصفى له، ولا يحفظ ما أضيع من حقه، وأرخص من عقله، وهو يخطبهم بمقوله فيصمون عنه، الى أن أناخ بساحة المنذر بن يحيى أمير سرقسطة، فألقى عصا سيره عند ما بوأه، ورحب به وأوسع قراه، ولم يزل عنده وعند ابنه بعده » وقال ابن فضل الله، كما ذكر صاحب معاهد التنصيص بعد ذكر قصيدة ابن دراج التي عارض بها أبا نواس :

« ومن وقف على هذه القصيدة وقصيدة أبي نواس عرف فضل قائلها على من تقدم، وشهد له بأنه سبق وان تأخر، وجزم بأن الرجال معادن، ولم يشك أن الخواطر موارد لا تنزح، وأن الأفكار مصاييح لا تطفأ، وأن الافهام مرء لا تتناهى صورها، وأن العقول سحائب لا ينفد مطرها، وعلم أن المعاني غير متناهية، والفضائل غير متواربة، وأن أم الليالي ولود، وأن الفضل في كل حين مشهود، وأن هذا الشاعر

في قصيدته هذه التي عارض بها أبا نواس، لم يدع له عارضاً يستمطر، ولا عارضة تذكر، وأنه لحقيق أن ينشد
واني وإن كنت الأخير زمانه لآت بما لم تستطع الاوائل
وكذلك كانوا يرون في ابن دراج شاعراً مفلحاً يبخل بمثله الزمان،
ولكن عدوان الحوادث على آثاره الادبية حال بيننا وبين التثبت من
صدق ما حكم به المتقدمون

— شيء من نثره —

يغلب السجع في نثر ابن دراج، ويجد فيه القاري شيئاً من مستملح
التشبيه، ولندكر القطعة الآتية على سبيل التمثيل:
«حاش لله أن أستشف المسيل قبل جمومه، وأستكره الدر قبل حفوله
أو أتعلم عن سراج المعذرة، وأغفل عن أدبي الباهر في نظرة الى
ميسرة . . . ولكن

ما ذا تقول لأفراخ بذى مرخ حمر الحواصل لا ماء ولا شجر
ما أوضح العذري لو أنهم عذروا وأجل الصبر بي لو أنهم صبروا
لكنهم صغروا عن أزمة كبرت فما اعتذاري عن عذره الصغر
وقد قلبت لهم ظهر مجن الامور، وميزت بين الميسور والمعسر،
فما وجدت أحسن بدءاً، ولا أحمد عوداً، مما أذن الله لعباده الذين أمرهم
أرضه، وسخر لهم بحره وبره، أن يمشوا في مناكبها ويأكلوا من رزقه،
وحيث نتقلب في كرمك، وأين نأمن في حرمك، وحيث توحشنا
دعوتك، ولا تعد منا نعمتك، فمن ملكك الى ملكك، ومن يمينك
الى شمالك»

وفي كتاب الذخيرة عدة قطع على هذا الاسلوب، وإن كنت أرتاب
بما في ذلك الكتاب من التحريف

— شيء من شعره —

نعود فنذكر أن الدهر ضنّ علينا بآثار هذا الشاعر المجيد، فليرض
القاري بما نختاره من تلك القصائد التي أثبتتها صاحب اليتيمة، أحسن الله
له الجزاء، وأنا لنستعيد قوله في لوحة الشوق

وحشية اللفظ هل يودّي قتيلاً كمو	دمي مضاعٌ وجاني ذاك عيناكِ
اني أراك بقتل النفس حاذقةً	قولي فديتك من بالقتل أوصاكِ
ما لي ولله برق أستسقيه من ظمأ	هيات لا ربي إلا من ثناياك
لولا الضلوع لظل القلب نحوكمو	ضعي بعيشك فوق القلب يمينك
أصليتني لوحة الهجران ظالمةً	رحماك من لوحة الهجران رُحماك

ونستعيد قوله في وصف السفن تشق عباب المحيط

اليك شحناً الفلك نهوى كأنها	وقد دغرت عن مغرب الشمس غربان
على لجج خضر اذا هبت الصبا	ترامى بنا فيها ثبيرٌ وشهلانٌ
وان سكنت عنا الرياح جرى بنا	زفير الى ذكر الاحبة حنانٌ
يقطن وموج البحر والهم والدجى	تموج بنا فيها عيونٌ وآذانٌ
ألا هل الى الدنيا معادٌ وهل لنا	سوى البحر قبرٌ أو سوى الماء كفان
وهبنا رأينا معلم الارض هل لنا	من الارض مأوى أو من الانس عرفان
هوت أمهم ماذا هوت برجالهم	الى نازح الآفاق سفنٌ وأظعان
كواكب الا أن افلاك سيرها	زمامٌ ورحلٌ أو شراعٌ وسُكّانٌ

وفي هذه القصيدة يقول في شكوى الزمان، وتوديع الأحباب

وان بلاداً أخرجتني لمأطل
سلاماً على الإخوان تسليم آيس
فلا مؤنس إلا شهيق وزفرة
وما كان ذاك البين بين أحبة
وما أوجع ما يقول

فيا عجباً للصبر منا كأننا
مضى عيشهم بعدي وعيشي بعدهم
ومن مختار القصيد قوله

لك الله بالنصر العزيز كفيل
هو الفتح أما يومه فمعمل
وآيات نصر ما تزال ولم تزل
سيوف تنير الحق أني انتضيتها
ألا في سبيل الله غزوك من غوى
لئن صدئت ألباب قوم بمكرهم
وان يحي فيهم مكر جالوت جدم
خفيف على ظهر الجواد اذا عدا
وجرداء لم تبخل يداها بغاية
لها من خوافي لقوة الجو أربع
ويبيض ركن الشرك في كل منتأى
تمور دماء الكفر في شفراتها
وأسمر ظمآن الكعب كأمنا

وان زماناً خان عهدي لخوان
وسقياً لدهر كان لي فيه اخوان
ولا مسعد الا دموع وأجفان
ولكن قلوب فارقتهم ابدان

لهم غير من كنا وهم غير من كانوا
كأنني قد خنت الوفاء وقد خانوا

أجد مقام أم أجد رحيل
اليك واما صنعه فجزيل
بهن عمايات الضلال تزول
وخيل يحول النصر حيث تجول
وضل به في الناصب كمين سبيل
فسيف الهدى في راحتك صقيل
فأحجار داود لديك مئول
ولكن على صدر الكمي ثقل
ولا كرها نحو الطعام بخيل
وكشحان من ظبي الفلا وتليل
فلولا وما أزرى بهن فلول
ويرجع عنها الطرف وهو كليل
بهن الى شرب الدماء غليل

إذا ماهوى للطعن ايقنت انه بصرف الردى نحو النفوس رسول
وفيهما يقول

كتائب عز النصر في جنباتها وكل عزيز يعمته ذليل
يسير بها في البر والبحر قائد يسير عليه الخطب وهو جليل
إذا انشق ليل الحرب عن صبح وجهه فقد حان من يوم الضلال افول
وله قصيدة عينية بديعة نوهت بها الذخيرة ، ولكنها لم تسلم من
التحريف ، نختار منها قوله

فما تجاوزت قرن الليل معتسفاً إلا وقرن رخيم الدل بارعة
تحتي منه تقيل ومعتنق يشدني غله فيه وجامعه
لم أطلع الدرع إلا حين شققة عن صفح صدري ما نحوى مدارعه
ولا توقيت سهماً من لواظظه يذيب سيفي وفي قلبي موافعه
غصن تجرع أنداء الغمام فما يطوق الدهر إلا وهو جازعه
يمس سكرأ وسكر الدل عاطفه وتارة وانتهاء الوشي لاذعه
فبت تحت رواق الليل ثانيه والشوق ثالثا والوصل رابعة
والسحر يسحر من لفظ ينازعني والمسك يعبق من كأس انازعه
فيا ظلام نجوم الليل اذ حرمت بدر السماء وفي حجري مضاجعه
ويا حنين ظباء القفر اذ فقدت غزالهن وفي روي مراتمه

— رائية ابن دراج —

واشهر قصائد ابن دراج رائيته في مدح المنصور بن أبي عامر التي عارض
بها رائية أبي نواس في مدح الخصيب ، وقد صن الدهر علينا ايضاً
بهذه القصيدة ، فلم يبق منها إلا قطع مبعثرة هنا وهناك ، وقد راجعت

كل ما وصلت اليه من تاريخ الاندلس، وسألت كل من اعرف انه شغل
بتاريخ الادب في تلك البلاد، ثم لم اظفر بمطلع هذه القصيدة، وانما
يبدأون بقوله

ألم تعلمي ان الثواء هو التوى وان بيوت العاجزين قبور
ومن البعيد ان يكون هذا البيت هو المطلع، اذ يبعد ان لا يضع
الشاعر مقدمة لهذا الحوار

ولناخذ في الموازنة فنذكر ان قول ابي نواس

تقول التي من بيتها خف مركبي عزيزٌ علينا ان نراك تسيرُ
اما دون مصر للغني متطلب بلى ان اسباب الغنى لكثير
فقلت لها واستعجلتها بواذرُ جرت فجرى من جريهن عيبر
دعيني اكثر حاسديك برحلة الى بلد فيه الخصيب امير

هذه القطعة دون قول ابن دراج

ألم تعلمي ان الثواء هو التوى وان بيوت العاجزين قبور
وان خطيرات المهالك ضمنُ لراكبها ان الجزاء خطيرُ
تخوفني طول السفار وانه لتقيل كف العامري سفير
ذريني أرد ماء المفاوز آجناً الى حيث ماء المكرمات نير
وقد بلغ ابن دراج ذروة البلاغة، وبذا ابا نواس وبرعه، بقوله في

توديع زوجته ووليدته

ولما تداننت للوداع وقد هفا بصبري منها انة وزفيرُ
تناشدني عهد المودة والهوى وفي المهد مبعوم النداء صغيرُ
عني بمرجوع الخطاب ولحظه بموقع أهواء النفوس خبير



تبوأ ممنوع القلوب ومهدت له أذرع محفوفة ونحور
عصيت شفيع النفس فيه وقادني رواح لتدآب السرى وبكور
وطار جناح البين بي وهفت بها جوانح من ذعر الفراق تطير
لئن ودعت مني غيوراً فاني على عزمي من شجوها لغيور
ولا لوم على أبي نواس في أن خلت قصيدته من مثل هذا الموقف
الحزين ، إذ لم يترك ببغداد زوجاً ينازعه اليها الوفاء ، ولا طفلاً تعطفه
إليه نوازع الشوق ، ولواعج الحنين

واحب ان لا يفوت القارىء ، ترجيع هذا البيت
تناشدني عهد المودة والهوى وفي المهد مبغوم النداء صغير
وكلمة « مبغوم النداء » كلمة مختارة بارعة المدلول ، وقوله
عَيَّ بمرجوع الخطاب ولحظه بموقع اهواء النفوس خبير
بيت نادر المثال ، وقوله

تبوأ ممنوع القلوب ومهدت له أذرع محفوفة ونحور
من أرق ما صنور به الحنان ، وما اوجع ما يقول
عصيت شفيع النفس فيه وقادني رواح لتدآب السرى وبكور
وطار جناح البين بي وهفت بها جوانح من ذعر الفراق تطير
وانظر تصوير الحزم بقوله

لئن ودعت مني غيوراً فاني على عزمي من شجوها لغيور
وقول أبي نواس

ولما أتت فسطاط مصر أجارها على ركبها ان لا تزال بحير
من القوم بسام كأن جبينه معنا الفجر يسري ضوؤه وينير

زها بالخصيب السيف والرمح في الوغى وفي السلم يزهو منبر وسرير
جواد إذا لا يدي كففن عن الندى ومن دون عورات النساء غيور
له سلف في الأعجمين كأنهم إذا استؤذنوا يوم السلام بدور
في هذه القطعة سلاسة وجلاء ، وهي أروع من قول ابن دراج
تلاقت عليه من تميم ويعرب شمس تلالا في العلى وبدور
من الحيريين الذين أكلهم سحائب تهى بالندى وبحور
همو صدقوا بالوحي حين أتاهم وما الناس إلا عابد وكفور
مناقب يعيا الوصف عن كنه قدرها ويرجع عنها الوهم وهو حسير
ألا كل مدح عن نداء مقصر وكل رجاء في سواك غرور
ونحن حين تقابل هذه القطعة بكلمة أبي نواس نرى التكلف ظاهراً
في أبيات ابن دراج ، وليتأمل القارىء قوله
مناقب يعيا الوصف عن كنه قدرها ويرجع عنها الوهم وهو حسير
فهو ظاهر الغلو ، واضمح التكلف ، أما قوله
همو صدقوا بالوحي حين أتاهم وما الناس إلا عابد وكفور
فهو بيت ضعيف

وقد وصف أبو نواس رحلته إلى مصر وصفاً لا قيمة له ، أما ابن دراج
فقد أجاد الوصف حين قال

ولو شاهدتني والهواجر تلتظي علي ورقراق السراب يمور
أسلط حر الهاجرات إذا سطا على حر وجهي والأصيل هجير
وأستنشق النكباء وهي لوافح واستمطى الرمضاء وهي تفور
والهوت في عين الجبان تلون وللذعر في سمع الجري صفير

ولو شاهدتني والسرى جل عزمي
وأعتسف المومة في غسق الدجى
أميرته على غول التنايف ماله
وقد خيلت طرق المجرة أنها
ودارت نجوم القطب حتى كأنها
لقد أيقنت ان المنى طوع همتي
وهذا شعره جزل رصين، ومن الحزن أن السياق يدلنا على ان
هذه القطعة الوصفية ضاع منها شيء كثير

وقد انفرد ابن دراج بالاجادة في وصف هيبة اللقاء حين قال
ولما تراءوا للسلام ورقعت
وقد قام من زرق الأسنه دونه
رأوا طاعة الرحمن كيف اعتزازها
وكيف استوى بالبر والبحر مجلس
يقولون والأوجال تخرس السنأ
لقد حاط اعلام الهدى بك حائط
عن الشمس في أفق الشروق ستور
صفوف ومن بيض السيوف سطور
وآيات صنع الله كيف تنير
وقام بعبء الراسيات سرير
وحارت عيون منهمو وصدور
وقدر فيك المكرمات قدير



فهرس

صحيفة	صحيفة
١٧ أنفس الشعراء	البحث الأول
١٧ درس نفسية الشاعر	أهواء النقاد
١٧ نقد بيت لزهير	١ تمهيد
١٨ نقد مطلع بانت سعاد	٢ شخصية الناقد
١٨ رأي الجاحظ في سينية أبي نواس	٣ القديم والجديد
١٨ نقد صاحب المثل السائر	٤ الدفاع عن النوع
١٩ نقد بيت لابن الدمينية	٤ نقد السيدة سكينة
١٩ نقديت لأبي نواس	٨ أحكام الفقهاء
١٩ تأثير الادب القديم	٩ نقد المأمون
٢٠ نقد بيت لشوقي	البحث الثاني
٢٠ نقد بيت لحافظ	عود الى أهواء النقاد
٢٠ نقد رثاء مطران لصبري	٤٠ تطير ابن الرومي
٢٠ نقد رثاء شوقي لمحمد تيمور	١١ عواطف الآباء
٢١ ابن الرومي وابن المعتز	٢ شعراء الأحزاب
٢٢ تأثير الحضارة والبداءة	١٣ نقد عبد الملك بن مروان
٢٢ وصف الرضاب	١٥ نقد الرشيد
٢٣ المتوكل وابن الجهم	البحث الثالث

صحيفة	صحيفة
٣٨ نقد منهج القدماء	٢٣ خلاصة البحث
٣٩ نقد مناهج المعاصرين	البحث الرابع
البحث السادس	شعراء الأحزاب
٤١ الحاسة الفنية	٢٤ ضياع شعر الأقلية
٤٢ السبيل الى كسب الذوق	٢٤ حملة الشريعة على الشعر
٤٣ أشعار السكتاب	٢٥ تشجيع النبي لحسان
٤٥ فهم الجمال	٢٦ شعراء اليهود
٤٦ إدراك البيان	٢٧ الحياة العقلية عند قریش
٤٧ نفوس الانبياء	٢٨ نقد من ظن الشعر من رث القول
٤٨ خواص البيان المعقد	٢٨ شعر عبيد الله بن عبد الله
البحث السابع	ابن عتبة
٥٣ خطر الابهام والغموض	٢٩ هوان الشعر في أنفس الفقهاء
٥٣ وصف الناشئ للشعر الجميل	٢٩ ارتجاز النبي برجز ابن رواحة
٥٤ نقد بديع الزمان	٢٧ اشعار الخلفاء
٥٦ وصف أبي حاتم للشعراء	٣٠ شعراء العلويين والامويين
٥٧ نقد ذلك المنهج	٣٠ المتوكل وشاعر دير الرصافة
٥٧ خطأ النقاد المعاصرين	البحث الخامس
٥٨ ما يجب على الناقد	٣٢ نفسية الناقد
البحث الثامن	(٣٣) موازنة الحاتمي بين البحتري
٦٠ الصور الشعرية	وإني تمام

صحيفة	صحيفة
٨٩ التكرار في القرآن	٦٤ تنقل
٩١ نماذج من الصور الشعرية في القرآن	٦٥ فضل سورة الشعرية
البحث الثاني عشر	البحث التاسع
٩٣ المعاني والاعراض	٦٦ أهمية الصور الشعرية
٩٣ أهمية الالفاظ المختارة	٦٦ صورة صديق
٩٤ أهمية الخيال الرائع	٦٩ رثاء الحليّة
٩٤ تمثيل الغرض	٧١ استعطاف الاحباب
٩٥ وصف الليل الطويل	٧٣ وصف معركة
٩٦ رثاء أشجع لابن زياد	٧٤ ترديد الشاعر للمعنى الواحد
٩٦ تشعب الغرض	٧٦ وصف حصان
٩٨ وصف بديع الزمان للعلم	البحث العاشر
٩٩ وصفه للقاضي الظالم	٧٦ اختلاف الصور الشعرية
١٠٠ تمني الرقاشي والحجاج	٧٩ الصورة الواحدة عند شاعرين
١٠١ نصيح أعرابي لسيامان بن عبد الملك	٧٩ وصف الحمامة الباكية
البحث الثالث عشر	البحث الحادي عشر
١٠٣ الحصري وشوقي	٨٢ الصور الشعرية في القرآن
١٠٣ حياة الحصري	٨٢ موارد الامثال
١٠٥ داليته	٨٤ ارد الخيالية في القرآن
١٠٦ دالية شوقي	٨٧ الاستعارة التمثيلية صورة للمعنى
	والصورة الشعرية مثال للغرض

صحيفة	صحيفة
المبحث السادس عشر	١٠٧ الموازنة
١٣٦ حنين شوقي الى مصر	١٠٨ مواطن الحسن
١٣٧ غربة محمد بك فريد	١١٢ مظان الضعف
١٣٨ النفس المصرية	١١٣ روعة الخيال
١٣٩ السر في طغيان ملوك مصر	١١٤ البراعة في تناول المعاني
١٣٩ وصف الجزيرة	١١٤ الحكم
١٤٠ مجد خوفو ورمسيس	المبحث الرابع عشر
١٤٠ وصف أبي الهول	١١٥ البحري وشوقي
١٤١ كلف الشعراء بالاساطير	١١٥ حياة البحري
١٤٢ عنف الاقدار	١١٧ بداية حياته
١٤٢ وقفة قصيرة	١١٨ اتصاله بأبي تمام
١٤٣ بكاء النفس الانسانية	١٢٢ شخصية شوقي
١٤٤ الاقتضاب في قصيدة البحري	١٢٤ وفاء البحري
١٤٥ ظروف البحري وشوقي	المبحث الخامس عشر
١٤٧ نكتة عن لورد كرومر	١٢٧ بكاء الممالك عند البحري وشوقي
المبحث السابع عشر	١٢٧ وصف القرآن للممالك البائدة
١٤٧ وصف البحري الايوان	١٢٨ تغني العرب بحضارتهم القديمة
٤٨ وصف شوقي لقصر الحمراء	١٣٠ ايوان كسرى
١٥٠ وصف البحري لصور الايوان	١٣١ نفسية البحري
١٥١ وصف شوقي لرسوم الحمراء	١٣٢ نفسية شوقي

صحيفة	صحيفة
١٧١ عقلية البوصيري	١٥٢ إهمال المسلمين لتصوير الحروب
١٧٢ نهج البردة وشارحه	البحث الثامن عشر
البحث العشرون	١٥٤ الفصل بين البحري وشوقي
١٧٤ البوصيري وشوقي والبارودي	١٥٦ براعة البحري في وصف
١٧٤ افتتاح الشعر بالنسيب	الايوان
١٧٥ تقليد البوصيري للاعراب	١٥٩ بكاء شوقي على أطلال الحمراء
١٧٧ نقد مطلع البوصيري وشوقي	١٦٠ بكاءه على ما كان فيها من
١٧٨ الموازنة بينهما في النسيب	ملاعب الحسان
١٨١ وصف شوقي للبحر العين	١٦١ خروج العرب من الجنة
١٨٣ قصيدة البارودي	١٦٢ القوة فوق الحق
١٨٥ ايثاره الاساليب القديمة	١٦٣ توديع الاندلس
البحث الحادي والعشرون	البحث التاسع عشر
١٨٦ اسلوب البارودي	١٦٤ البوصيري وشوقي
١٨٧ وصف الغار	١٦٤ حياة البوصيري
١٨٨ تزوير عائشة لقصة الغار	١٨٥ نقده لموظفي الشرقية
١٩٠ براعة البارودي في تصوير الغار	١٦٧ شيء من لعبه ولهوه
١٩١ النظم في قصيد البارودي	١٦٨ شكوى حاله الى احد الوزراء
١٩٣ سميك يا رسول الله	١٦٩ قصيدة البردة والمدائح النبوية
البحث الثاني والعشرون	١٧٠ سبب وضع هذه القصيدة
١٩٤ التخلص والاقتضاب	١٧١ بدعة تكرار الصلاة على النبي

صحيفة	صحيفة
٢١٩ حكمة الجهاد	١٩٦ تخلص البوصيري
٢٢٠ المدنية الاسلامية	١٩٨ تخلص البارودي
البحث الخامس والعشرون	١٩٨ قيمة الاستطراد في أساليب
٢٢١ أبو نواس وابن دراج	الاقدمين
٢٢٢ قصيدة حسان بن نمير	٢٠٠ تخلص شوقي
٢٢٢ قصيدة البارودي	البحث الثالث والعشرون
٢٢٤ اغراض قصيدة ابي نواس	٢٠٣ المعجزات
البحث السادس والعشرون	٢٠٣ نفرة القرآن من الخوارق
٢٢٣ نفحة من الادب الانداسي	٢٠٤ القرآن هو المعجزة الباقية
البحث السابع والعشرون	٢٠٥ خرافة شق صدر النبي
٢٢٤ حياة ابن دراج	٢١٠ ما اقترن بالميلاد من الحوادث
٢٤٥ شئ من ثره	البحث الرابع والعشرون
٢٤٦ شئ من شعره	٢١١ وصف القرآن
٢٤٨ رائية ابن دراج	٢١٤ وصف الهيجاء

الْبَلَاءُ

حَبِيبُ اللَّهِ وَشَيْخُهُ

الْأَخْلَافُ وَعِنْدَ الْغَزَا

أَبْرَ الشَّعْرِ وَطِ الشَّعْوِ

بَلَاءُ الْعَقَبَاتِ

55 000 1870
V.N.C.
DVIE DCE

- ٢٦٠ -

1973
JAN

زَهْرُ الْأَرْجَاءِ

لابي اسحق الحصري القيرواني

نُفُصْل وَنُضْبُوط وَنُشْرُوع

بقلم

الدَّكْتُورُ زَكِي مُنَازِلِي

APR

القاري
والقطع

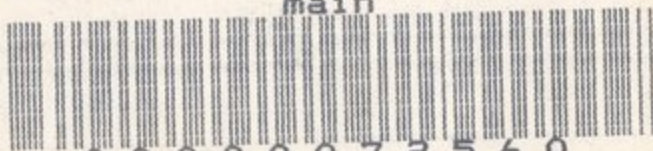
الفاخرة

PJ
7541
Z3
1926
c.1

من
المختار

b. 12397 374
i. 137 34221

main



00000072560

PJ 7541 Z3 1926/c.1

